

الإسلاموفوبيا فى أوروبا: الخطاب و الممارسة

مؤلف جماعي



الإصدار الأول (2019)

رقم التسجيل: VR . 33691 . B



د.بوستي توفيق

د. بوقنور إسماعيل

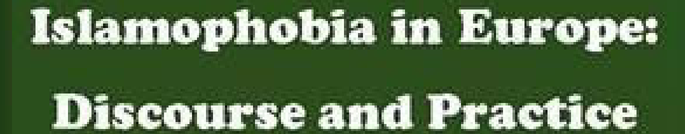
د. حميداني سليم



المركز الديمقراطي العربي













Germany: Berlin 10315
Gensinger- Str: 112
http: // democraticac.doc







الإسلاموفوبيا في أوروبا: الخطاب والممارسة

الطبعة الأولى

رقم التسجيل: VR. 33691.B

تحرير:

د. بوستي توفيق د. بوقنور إسماعيل د. حميداني سليم

تأليف:

مجموعة باحثين

التصميم و الإخراج الفني: بن قيطة بلال

الناشر:

المركز العربي الديمقراطي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية

برلين- ألمانيا

Germany:

Berlin 10315 Gensinger- Str: 112 Tel: 0049-Code Germany

030- 54884375

030- 91499898

030- 86450098

mobiltelefon : 00491742783717



فهرس المحتويات



فهرس المحتويات

العنوان	رقم الصفحة



فهرس المحتويات



مقدمة

مقدمة:

الإسلاموفوبيا هو الخوف أو الكراهية أو التحامل ضد الدين الإسلامي أو المسلمين بشكل عام، لا سيما عندما ينظر إليه باعتباره قوة جيوسياسية أو مصدر للإرهاب. ولفترة طويلة، بالنسبة للغرب المسيحي، كان المسلمون يشكلون خطرا قبل أن يصبحوا مشكلة. وهكذا، فإن الإسلاموفوبيا المعاصرة هي أكثر نتيجة لعلاقة التناقض مع الحقيقة المسلمة بالعنصرية البيولوجية أو حتى الثقافية.

ومع ذلك، فالملاحظ استمرارية الافتتان والاحتقان ضد الإسلام والمسلمين، وهذا يؤكد أن الإسلام لم يتوقف أبدا عن الاستحواذ على الضمائر الأوروبية، فكره الإسلام اليوم هو مجرد تحديث للخوف القديم، واقتراض "أقنعة جديدة" من الكراهية. هذا الكتاب يهدف إلى تأسيس نوع من التفسير لاستمرارية الإسلاموفوبيا في الخيال الغربي.

لقد زادت جرائم الكراهية ضد المسلمين في مرحلة ما بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، وتم رسم قوالب نمطية ضارة بصورة المسلمين على نطاق واسع، وبشكل سلبي منتشر جدا في العالم. حيث تشير الإحصائيات العالمية أن جرائم الكراهية المعادية للمسلمين هي ثاني أقل الجرائم المبلغ عنها من قبل، ولكن في عام 2001، أصبحت ثاني أعلى الجرائم التي تم الإبلاغ عنها في حوادث التحيز الديني، بعد جرائم الكراهية المعادية لليهود في أوربا والولايات المتحدة.

يعمل النشطاء المسلمون على تغيير هذه العقلية المعادية للإسلام والمسلمين، فقد انتقدوا الحرب العالمية على الإرهاب على نطاق واسع منذ اليوم الذي تم إطلاقه حتى نهايتها غير الرسمية، وخاصة في العالم الإسلامي والمجتمعات الإسلامية في جميع أنحاء العالم، بما في ذلك في الغرب نفسه. والخوف من الإسلام قضية حقيقية قد يتجاهلها الكثيرون، ولكنها موجودة فعليا في حياة المسلم اليومية.

كما يبدو أن الارتفاعات الحادة في المشاعر المعادية للمسلمين وجرائم الكراهية ترتبط بدورات الانتخابات في أوربا، وهذا ليس من قبيل الصدفة، ففي السنوات الأخيرة، اعتمد الساسة الأوربيون بشكل متزايد على الخطابات المعادية للمسلمين لتعبئة الناخبين، في حين أن هذا الفعل كان يعتبر في الماضي القريب خطابا غير مقبول من قبل أعضاء العديد من الأحزاب. إن التعامل مع كراهية



الإسلام هو مسؤولية تقع على عاتقنا جميعا، حيث هناك حاجة ملحة لزيادة الوعي بكيفية تأثير الخوف من الإسلام وجميع أشكال العنصرية على حياة الناس في العالم الحديث.

Abstract:

Islamophobia is the fear, hatred of, or prejudice against, the Islamic religion or Muslims generally, especially when seen as a geopolitical force or the source of terrorism. For a long time, for the Christian West, Muslims were a danger before becoming a problem.Thus, contemporary Islamophobia is more a result of a relationship of ambivalence to the Muslim fact that a biological racism or even culturalist. However, if one notes a permanence of fascination – Islam has never ceased to obsess European consciences, today's Islamophobia being only the updating of an old fear, borrowing "new clothes"of hatred. This book, which aims to establish a kind of continuity in the occidental imagination. Hate crimes against Muslims have been on the rise post 11/9, prejudicial stereotypes that broadly paint Muslims in a negative light are quite pervasive.Anti-Muslim hate crimes used to be the second-least reported, but in 2001, they became the second-highest reported among religious-bias incidents, after anti-Jewish hate crimes.

Muslim activists are working to change this mindset. The global war on terror was widely criticized from the very day it was launched till its unofficial ending, especially in the Islamic world and in Muslim communities throughout the world, including in the West itself.Islamophobia is a real issue. Many people may ignore it, but it's very present in a Muslim's daily life.Spikes in anti-Muslim sentiments and hate crimes appear to correlate with elections cycles. This is not a coincidence. In recent years, politicians have increasingly relied on anti-Muslim rhetoric to mobilize voters. What was once considered unacceptable discourse by members of many parties.Tackling Islamophobia is a responsibilityfor all of us. There is a need for greaterawareness of how Islamophobia and all formsof racism affect people's lives in modernworld.



الإسلاموفوبيا: تحليل نظري معرفي

د.محمد عدار
جامعة بومرداس- الجزائر

تقديم عام

بالرغم من القوة المادية والتكنولوجية التي يتميز بها الغرب عن بقية المجتمعات الإنسانية، إلا أنه يواجه اليوم إشكالية نفسية –فكرية، وتتمثل في "الغيرية"، بمعنى تأسيس ثنائية الاختلاف بين الأنا أو الذات المكونة للهوية ومختلف المضامين التي تحملها الذات وتساهم في تشكيلها: الدين، الثقافة، القيم، منظومة العادات... من جهة، والآخر المعبر عنه بالغرب، من جهة أخرى والمزود بصور قبلية عن العالم الإسلامي ذات أبعاد صراعية–إقصائية في إطار العلاقات الدولية.

لقد أنشأت هذه السلوكيات الغربية المعادية للإسلام، سلوكيات في نفس الاتجاه، وذلك تحت مسميات "التطرف" و "الأصولية" وغلبة التصور النظري ألصراعي ممن خلال أطروحات صامويل هنتغتون، برنارد لويس ... وتهميش بالمقابل التصور النظري الحواري، فغاب التواصل، وإمكانية فهم الطرفين لبعضهما البعض، فأضحت السياسة الدولية في مجملها ذات طابع نمطي.

إشكالية الدراسة: تناقش الدراسة إشكالية، تتمثل في:

ماهي المحددات التاريخية والاجتماعية المفسرة لأسباب العداء بين العالم الغربي والعالم الإسلامي؟

لماذا يتم اعتبار الإسلام بمثابة العدو المستقبلي للعالم الغربي؟

هل يحمل الإسلام قيم المعاداة للغرب؟

فرضيات الدراسة:

- يتضمن الإسلام مجموعة من القيم ذات الأبعاد الإنسانية الخالية من العداء للعالم الغربي.
- يبين المسار التاريخي للعلاقات بين العالم الغربي والعالم الإسلامي على وجود حالة من الخوف النفسي المبني على الكراهية والسلبية والإقصائية للدين الإسلامي والمسلمين.
- تتطلب العلاقات الحضارية بين الغرب والعالم الإسلامي تفعيل مجموعة من الآليات القيمية المشتركة للوصول إلى علاقات دولية مبنية على المقاربة التعاونية منها على الصراع والعنف.

مناهج الدراسة:



لقد وظفت الدراسة، مجموعة من المناهج، لعل أهمها مايلي:

- المنهج التاريخي: لقد استعملت التاريخي، لتبيان المسار التطوري لحالة عداء العالم الغربي للعالم الإسلامي، ولتحصيل التطور التاريخي، يستوجب الاستعانة بالمنهج التاريخي لأنه أحسن أداة لضمان الحقيقة العلمية.

توضح السلوكيات الغربية بعد أحداث 09/11، من خلال:

- فرض قانون حظر المآذن في سويسرا.
- فرض منع الحجاب في فرنسا.
- الخوف من أسلمة الغرب.

يمكن تفسير هذه السلوكيات الغربية من خلال، إطار منهجي، يأخذ في البداية تحديد معنى مجموعة من المتغيرات الأساسية مثل:

- مفهوم الغرب.
- مفهوم الإسلام وبعض خصائصه: الوسطية والواقعية، الجمع بين الثبات والمرونة والإنسانية
- مفهوم الإسلاموفوبيا.
- مفهوم العنصرية والهيمنة.

يوضح تاريخ العلاقات و التفاعلات بين الغرب و العالم الإسلامي مجموعة من الرواسب التاريخية، المتحكمة في منطلقات كل طرف ، وذلك من خلال التصورات الغربية التي تدعي أن الإسلام في بدايته انتشر بحد السيف ،و يحمل في محتواه آيات تدعو إلى العنف(إشارة إلى الدعوة المحمدية) ،ثم انتقل الصراع –في إطار الحروب الصليبية– ليأخذ منحى آخر ، ففضلا عن المواجهة المادية الاستعمارية التي استهدفت العالم الإسلامي ، ظهرت حملة تشويه لقيم و تعاليم الدين الإسلامي من قبل السلطة الدينية –البابوية ذات السلطة السياسية في أوروبا.

يمكن ذكر في هذا الإطار، الأفكار الدينية المسيحية، التي استهدفت شخصية الرسول «ص" من جهة، والدين الإسلامي الذي نعن بأقبح الصفات والنعوت، مما يوحي أن الإستراتيجية السياسية –العسكرية والإعلامية–لمحاصرة العالم الإسلامي اليوم باعتباره " العدو الجديد"–تستمد مشروعيتها من السيرورة التاريخية المفسرة لطبيعة العداء بين المنظومتين.



لم تقتصر فكرة العداء، الإقصاء والتهميش للدين الإسلامي على القرون الوسطى، التي عرفت فيها أوروبا حالة من الركود الجمود الفكريين، بل حتى في عصر الأنوار، اتجه فلاسفة ذلك العصر إلى تأسيس ازدواجية تعامل مع الدين الإسلامي، بمعنى أخذ المعاني الدينية الإسلامية المتفقة مع تعاليمهم، وازدراء ما يخالف شريعتهم، مما يدل على تواصل صفة العداء بالرغم من اعتبار الحضارة الغربية أن عصر الأنوار يمثل الانطلاقة النهضوية الغربية للعالم كله.

وعلى الرغم من الدراسات الاستشراقية التي قام بها مجموعة من المفكرين الأوروبيين، إلا أنها في مجملها لا تخلوا من التحيز الفكري ذي البعد التهميشي –الإحتقاري ليس فقط للدين الإسلامي، بل وصف كل ما يتعلق بالشرق أو مصدره شرقي، بأنه متخلف، وغير مناسب، وبذلك تكونت النزعة المركزية الغربية التي تجعل من أوروبا أو الغرب بصفة عامة مصدر كل حقيقة وتطور.

يتضمن التطور التاريخي وجود تكريس غربي لفكرة العداء والإقصاء لمنظومة التعاليم الإسلامية، وذلك منذ التاريخ الإنساني الأول، مما يؤكد على اعتبار «نظرية المؤامرة "بمثابة الإطار النظري المفسر لأسباب العداء بين العالم الغربي والعالم الإسلامي، وإن كان هناك من ينفي عليها روح العلمية.

يمكن القول أنّ الاستعمار وبمختلف أشكاله التقليدية والحديثة، مسؤول بصفة مباشرة على عملية تخلف العالم الإسلامي و ترمي كل السياسات الاستعمارية إلى القضاء على المقومات الحضارية الأساسية للعالم الإسلامي، بعدما قضت على بنيته التحتية و السبب يتمثل في وجود التناقض بين القيم الغربية المادية التي تحاول احتلال الصدارة و التفوق، والقيم الإسلامية ذات الأبعاد العالمية التي تحمل الرخاء للإنسانية جمعاء، وأمام ذلك، اعتمد الغرب على اعتبار الإسلام –بعد نهاية الحرب الباردة وبعد القضاء على النازية، الفاشية والشيوعية بأنه العدو المستقبلي للعالم الغربي، فبدأ الخوف من" أسلمة أوروبا" من خلال بداية فرض الحجاب في فرنسا، الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول "ص" في الدانمارك، وحظر المآذن في سويسرا.

لقد اعتمد الغرب مجموعة من الآليات عبر التاريخ، فانتهج سياسة التفتيت، وعمل بسياسة التغريب والاستيطان، كما صاغ سياسة مكافحة الإرهاب تدعو إلى الترادف بين الإرهاب والإسلام، ودعا إلى ضرورة تجديد الخطاب الديني، الذي يقوم –حسب اعتقاد الغرب–على ضرورة مراجعة محتوى القرآن وحذف بعض آياته حتى يتناسب مع العصر.



لا تشتمل المراجعة والتجديد للخطاب الديني –كما يتوهم الغرب –بل يتعلق الأمر بتأسيس آليات تجاوز حالة "المأزق الفكري والحضاري الذي وقع فيه الغرب، والاعتماد على الحوار كآلية لمناقشة كل الاهتمامات الدولية.

يشكل الحوار العالمي الشامل المخرج لحالة الخوف والرهاب الذي يعاني منه الغرب اليوم، كما لتفعيل الهيئة الأممية نفس التأثير، لأنها أحسن تعبير عن الإرادة الكونية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية.

أولا/في تحديد المفاهيم والمصطلحات

يستوجب البحث تحديد مفاهيم الدراسة، والمتمثلة في: مفهوم الغرب، مفهوم الإسلاموفوبيا ومفهوم العنصرية والهيمنة.

1/ مفهوم الغرب:

يرى "محمد عابد الجابري " أن كلمة "غرب" لم تكن في المرجعية العربية الإسلامية تعني في يوم من الأيام وجود "آخر" يقع بالتحديد خارج بلاد الإسلام، وإنما صارت هذه الكلمة بصورة ما هذه المعاني جميعها من خلال الترجمة من اللغات الأوروبية، وعليه فاصطلاح الغرب: أي الدول الغربية، والشرق: أي الدول الشرقية هما معا ترجمة من اللغات الأوروبية التي ميزت في هذا الأخير (الشرق) بين الشرق الأدنى والشرق الأوسط والشرق الأقصى، وذلك حسب البعد والقرب من أوروبا [(1)].

وأغلب الظن، أن المقصود بالغرب اليوم غرب جغرافي وإيديولوجي، فهو يشمل قارة أوروبا كلها، وأمريكا الشمالية واستراليا ونيوزلندا، حيث يسود السكان المهاجرون من أوروبا، وفي هذه الجغرافيا، تسود قيم مشتركة تجمعها نزعة موجهة هي "النزعة الغربية"، وتشير النزعة المركزية الغربية إلى أنّ الغرب وفي قلبه أوروبا هو مركز العالم، والمنتج الأوحد للقيم الإنسانية، والحكم المطلق في وضع وتقنين معنيي التقدم والتخلف، والمرجع الأوحد في تسجيل انتقال شعب ما أو ثقافة محددة من البربرية والهمجية إلى المدنية[(2)].

إن النزعة الغربية الأوروبية هي حاصل منظومة من تقاليد ثلاثة سادت في الغرب، وهي: التقليد الإغريقي (في حقلي الفكر والفنون) والقانون الروماني (في الحقوق والسياسة والدولة) والمسيحية في

حقل الأخلاق[3]، وقد أدت تلك التقاليد، على الطريقة الغربية ن في شقها الإغريقي إلى العنصرية والهيمنة، وفي شقها الروماني إلى الاستعباد والاستغلال، وفي شقها المسيحي إلى التنصير.

2/مفهوم الإسلام:

يعرف" الجرجاني " الإسلام على أنه "الخضوع والانقياد لما أخبر به الرسول "محمد(ص)[4]، والإسلام حسب "أبي حنيفة النعمان" هو التسليم والانقياد لأوامر الله تعالى [5].

وعليه فالإسلام هو التسليم و الخضوع و الانقياد لما جاء في الوحي الإلهي، من عقائد (الإيمان بالله، ملائكته، كتبه، رسله، اليوم الأخر و القضاء و القدر خيره و شره) وعبادات شعائرية كالصلاة و الصوم، ومعاملات تتضمن القيم و الأحكام و التكاليف الشرعية التي تحكم سلوك الفرد و الجماعة و المجتمع .

يرى أهل العلم في الدين أن العقائد تقوم على الإقناع، والعبارات على الإتباع، والمعاملات على العدل في كل حال حتى مع الأعداء، يقوم الإسلام على مجموعة من الخصائص هي: الوسطية والواقعية، الجمع بين الثبات والمرونة والإنسانية.

الوسطية: تعني الوسطية في الإسلام العدل، والاستقامة على المنهج السليم، وهي دليل الخيرية، ودليل القوة. ومن مظاهر الوسطية في الإسلام: الوسطية في الاعتقاد، وفي الشعائر، وفي الأخلاق، زو في التشريع، والتوازن بين الروحي والمادي والتوازن بين الفردية والجماعية.

الواقعية: معناها في الإسلام مراعاة: واقع الكون، واقع الحياة وواقع الإنسان، ومن دلائل هذه الواقعية: التيسير ورفع الحرج، مراعاة سنة التدرج، النزول من المثل الأعلى إلى الواقع الأدنى.

تشمل واقعية الإسلام المجالات التالية: العقيدة، العبادات، التربية والأخلاق، التحليل والتحريم، تشريعات الزواج والأسرة، والحدود والقصاص...

الجمع بين الثبات والمرونة: تتجلى مظاهر الثبات و المرونة في الإسلام من خلال مصادر الإسلام و شريعته و تاريخه. فيظهر الثبات في المصادر الأصلية القطعية للتشريع من كتاب الله و سنة رسوله (ص) بينما تظهر المرونة في المصادر الاجتهادية التي اختلف فقهاء الأمة في مدى الاحتجاج بها ، وعليه ، فنجد في أحكام الشريعة الثبات في العقائد الأساسية و في الأركان العملية الخمسة ، و في المحرمات اليقينية كالسحر و الزنا ، و في أمهات الفضائل كالصدق و

الأمانة ، و في شرائع الإسلام القطعية في الميراث و الحدود ، و بالمقابل ، نجد المرونة فيما يتعلق بجزئيات الأحكام و فروعها العملية و خصوصا في السياسة الشرعية .

الإنسانية: لقد أعطى الإسلام لمبادئ الإنسان الأساسية –مثل مبدأ الأخوة ومبدأ المساواة الإنسانية –أهمية كبرى، ففيما يتعلق بالإخاء، ينطلق الإسلام من أن البشر جميعا أبناء رجل واحد وامرأة واحدة ضمتهم بنوة واحدة مشتركة، ولقد طبق المسلمون مبدأ الأخوة، وأقاموا على أساسه مجتمعا إنسانيا متميزا، أما المساواة، فأساسها أن الإسلام يخدم الإنسان، ويكرمه من حيث هو إنسان، من غير تفرقة بين عنصر وعنصر وقوم و قوم، لاغيا كل أنواع التفرقة القبلية والعنصرية والقومية واللونية.

كما اعتبر الإسلام أن الاعتداء على نفس أي إنسان هو اعتداء على الإنسانية كلها، كما جعل إنقاذ أي نفس هو بمثابة إنقاذ للجميع. ومن المساواة الفعلية التي أقرها الإسلام ما يتعلق بالمساواة أمام قانون الشرع وأحكام الإسلام.

3/مفهوم الإسلاموفوبيا:

يشير مصطلح الإسلاموفوبيا إلى صورة من الهلع الثقافي قد يحدث إثر شيوع موجات من الحذر العام تجاه دولة أو حركة سياسية أو دعوة دينية أو حضارة موازية أو معاصرة لحضارة من الحضارات، وذلك مثلما حدث إزاء الهلع من النازية قبل وخلال حرب العالمية الثانية، وتخوف العالم الرأسمالي الغربي من الاشتراكية خلال فترة صعود الإتحاد السوفيتي السابق وتمكن النظام الشيوعي في الصين وشرق أوروبا وكوبا، ومنها التخوف من الإسلام.

الرهاب أو الفوبيا مرض نفسي، يعني الخوف الشديد والمتواصل من مواقف ونشاطات صادرة عن الآخرين.

الفوبيا بين الفرد والمجتمع:

يصيب الفوبيا أو الرهاب–كما أشرنا –إلى مرض يصيب الفرد في الأساس، وله أعراض كالشعور بالاختناق وسرعة خفقان القلب وتقلب المعدة والارتعاش الشديد، فهو إذن مرض نفسي له أعراض عضوية مما يدخل في نطاق أمراض " السيكوسوماتيك" أي المرض النفسي العضوي، وإذا كان ذلك المرض يصيب الأفراد، فهل قياسا على ذلك يمكن أن يصيب الجماعات والدول؟ وهل يمكن

لشعب ما أو أمة ما أن تصطنع أسبابا وهمية أو خرافية تشيعها بين عموم الشعوب حتى تبرر لنفسها أية إجراءات عدوانية؟

من الملاحظ أنه قد لا تجوز المقارنة المنهجية على خلفية تباين الخصائص و السمات بالنسبة للفرد والمجتمع، فالمكونات البنائية مختلفة في الشخص عن وحدة المجتمع، رغم اندماج الفرد في جماعته، لكن يمكن التشبيه بين صور الكراهية و الاستعلاء و الهيمنة المرتبطة بالأفراد على الحالة العامة للمجتمع، على اعتبار أن تفاعل الأفراد هو نتيجة لتكوين المجتمع بمعنى الاتجاه العام للمجتمع إما سلبا أو إيجابا، يمكن رصده من خلال سلوكيات أفراده؛ وعلى هذا الأساس، فعلاقة الفرد بالمجتمع هي علاقة الجزء بالكل، و لا يمكن تصور انفصال الكل عن أجزائه، فالرابط نسقي–نظمي، وبإسقاط حالة الخوف من الإسلام على الفرد في الغرب، فإنها تنعكس على الحالة العامة للمجتمع.

تتأسس الفوبيا في المجتمع الغربي من خلال وجود "اتجاه" سلبي داخل الغرب في نظرته للإسلام، وبالتالي تعامله مع المسلمين، و" الاتجاه " في علم النفس هو: "حالة استعداد عقلي وعصبي تنتظم عن طريق الخبرة، وتؤثر بصورة موجهة على استجابة الفرد لكل المواضيع والمواقف المرتبطة بها"[(6)] وقوام ذلك الاتجاه أو(الاستعداد) لدى أهل الغرب في تعاملهم مع المسلمين: العداء/الإسلاموفوبيا /الكراهية.

4/ في العنصرية والهيمنة:

إن القول بادعاء الغرب الحديث للإغريق يفسر اصطناع الغرب "نظرية الطبائع" وهي نظرية عنصرية ومتعصبة، ومؤداها أن للشعوب طبائع تتوارثها، وقد دعمت هذه النظرية مقولاتها بكشوفات علم الأجناس الحيوانية كما ظهر عند "داروين"، ثم عممت النتائج على الأجناس البشرية اعتمادا على فرضية تقول بوجود سلالات بشرية ترث سمات تتجاوز مراحل التطور التاريخي للمجتمع، وأن السمات الوراثية هي المسئولة عن اختلاف التطورات الاجتماعية، وقد لعب علم اللغة الذي كان حديث النشأة دورا هاما في تأكيد هذا الحكم المسبق، وترجع "نظرية الطبائع" في أصولها إلى الفيلسوف أرسطو، الذي وضع للبشر تقسيما تراتبيا يتضمن تقسيم الأفراد إلى "حر بالطبيعة" و"عبد بالطبيعة"[(7)].

وقد انتهى الأمر بالغرب إلى تمجيد التفاوت التراتبي بين المجتمعات، مع وضع أوروبا في أعلى درجة، ومنحها الحق في الامتداد نحو بقية العالم –إما في إطار اكتشافات، أو تبشيرا أو احتلالا– لبناء هوية أوروبا.

في قاموس "تريفو" فقد ورد على سبيل المثال عام 1777 تعريفا للأوروبيين من خلال:" الأوروبيون هم شعوب الأرض الأكثر تهذيبا، والأكثر تمدنا، والأحسن صنعا، وهم يفوقون جميع شعوب الأرض منزلة في العلوم، الفنون، التجارة، الملاحة، الحرب، وفي الفضائل العسكرية والمدنية، إنهم أكثر بسالة، وأكثر كرما، وأكثر نعومة، وأكثر اجتماعية، و أكثر إنسانية [(8)].

لقد صنف" غوستاف لوبون "(1841م –1931 م) الأمم إلى أربع طبقات نفسية، حسب عناصر اعتبرها ثابتة (منها ما هو راجع للأخلاق، ومنها ما هو راجع إلى الذكاء)، واعتبر أن الأمم الراقية –وهي أعلى طبقة–لا يندرج فيها إلا الأمم الهندوسية الأوروبية، فهي وحدها التي أظهرت مقدرة على الاختراعات في الفنون، العلوم والصناعة، سواء كان ذلك في زمن اليونان، الرومان أو في عصرنا هذا، وهي التي أوصلت الحضارة إلى درجة ارتقائها الحالي [(9)].

وفي عام 1991؛ أصدر المؤرخ الفرنسي "كريستوف روفان" كتابا تحت عنوان :"الإمبراطورية والبرابرة الجدد" و اعتبر فيه أن الإمبراطورية هي حضارة الشمال ، وأن البرابرة هم شعوب الجنوب في إشارة إلى الدول النامية .التي يتزايد عدد سكانها بوتيرة تخيف دول الشمال، وأن أشد ما يرعب "روفان " النمو السكاني الحاصل في دول الجنوب، حيث يرى في كتابه أن الطريق الوحيد للحد من هدا النمو هو: " أن تتكفل الحرب، المجاعة، الفيضانات ، الزلازل و الأوبئة ، بإقصاء قسم من فائض السكان[(10)] ويقصد هنا التعداد السكاني الفائض عن مليار السكان أو ما يسمى في الغرب ب"المليار الذهبي " في أوروبا ، أمريكا، استراليا و نيوزلندا .

وأن المتتبع لمسار التاريخ الأوروبي ، يكتشف حالة العنصرية و الهيمنة من خلال ما يذهب إليه "عبد الله إبراهيم " مكرّسة في الأدبيات الغربية من خلال فكرة "السمو الأوروبي "، وفكرة "امتدادية أوروبا" وفكرة "أوروبا مركز العالم" ، حيث أن مظاهر الهيمنة مكرسة منذ القرن 18 م، و تصبح أوروبا –حسب" ميشال ديفيز"– الوسيط للتقدم الكوني"، و"السيد المعطاء" الذي ينبغي على العالم أن يعتمد عليه سياسيا وتكنولوجيا، وستحقق أوروبا –حسب "أرنولد توينبي " –في كتابه "الإسلام و

الغرب والمستقبل –"جمع العالم الإنساني كله في مجتمع كبير واحد، والسيطرة على كل شيء فوق الأرض ، وفي البحار الأجواء التي ستصل إليها الإنسانية، عن طريق التقنية الغربية الحديثة[11].

ثانيا /الإطار التاريخي و السوسيولوجي للإسلاموفوبيا :

بعدما تطرقن إلى شرح أهم المصطلحات التي تخدم الدراسة يقود التحليل التاريخي و الاجتماعي إلى أن الرهاب من الإسلام في الغرب أو ما بعبر عليه بالإسلاموفوبيا ، مرده إلى هبوط الرسالة المحمدية ، حيث يمكن رصد محاولات الأحبار سواء في مكة أو في المدينة تشويه الإسلام و الحنث بالعهود و حربهم للرسول (ص) فضلا عن تسريب تحريفات يهودية في الثقافة الإسلامية.

تدل المحاولات الأولى على رؤية تبسيطية –إقصائية لرسالة الإسلام باعتبارها موجهة للعالمين. كما تمثل الحروب الصليبية المقدمات التجريبية الأولى لكراهية الإسلام والحاملة لبذور الإسلاموفوبيا التي عبر عنها الجنرال الفرنسي " غورو" عندما دخل دمشق و سأل عن قبر "صلاح الدين الأيوبي " ثم ذهب إليه وركله بقدمه و قال: " قم يا صلاح الدين ها قد عاد الصليبيون من جديد.

كما أنتجت المؤسسة الدينية "سلطة الكنيسة " في أوروبا العصر الوسيط، مجموعة من الصفات والأسماء التي أطلقت على المسلمين "شرقيون، هاجريون: نسبة لهاجر، إسماعليون نسبة لإسماعيل، سراقون "، وهم أيضا" أمة اللؤم والخداع"، " شعب هدام و مدمر"، " أناس قبيحي المنظر "، " برابرة "[12].

تعبر هذه التسميات و الصفات عن الصورة الوصفية للإسلام في القرون الوسطى في أوروبا، حيث أظهرت الكنيسة الإسلام و المسلمين بمظهر: " الكارثة الطبيعية المدمرة"[13] حيث أن هذه العبارة موجودة في إحدى الرسائل البابوية.

لقد اتجهت الأغاني الشعبية التي طبعت الثقافة الأوروبية إلى تمجيد المسيحية و المقاتلين المسيحيين وتصور بطولاتهم و انتصاراتهم و هم يردون العدو الإسلامي، و إن كان التاريخ الأوروبي قد أثبت ضعف هذا التصور [14]، إلا أن الإسلام كدين لم يسلم من التشويه و التحقير، فقد صور على أنه "دين ضلال" مبني على ثلاثية: " محمد"، " أبولان " و" ترفجون " بمعنى الشر. كما وصف الإسلام بأنه: " بدعة اختلقها محمد لضرب المسيحية و تحطيمها ".



لم يسلم الرسول (ص) من الذم و القدح و ألصقت به كل أنواع الصفات التي لا يمنكن أن نجد لها تبريرا إلا في طبيعة العصور نفسها و طرائق تفكيرها و نظرتها إلى الآخر المختلف. فقد قدم على أنه "الدجال" و اعتبر صورة عكسية للمسيح ، كما صورته بعض الكتابات على أنه راهب مغضوب عليه " إيروس الجديد " و لكي ينتقم من المسيحية ، فقد اختلق دينا جديدا ،و قيل عنه أنه "عالم بفنون السحر " و تم التركيز خاصة على تعدد زوجاته(و هو موضوع عادة ما يختصر فيه الإسلام).

تعد" فلسفة الأنوار " ركن أساسي للفكر الغربي، وعلى الرغم من أسبقيتها و فضلها في إخراج الغرب من قبضة اللاهوت و تحجره، لم تستطع التخلص من عقلية قرون الوسطى اللاهوتية و الإقصائية لكل ما يرمز للإسلام و المسلمين، لقد أنتجت فلسفة الأنوار نوع من الثنائية و التذبذب في الخطاب: إعجاب و استهجان، انبهار و سخرية...

فمثلا، يعد " فولتير" رمزا من رموز فلسفة عصر الأنوار، إلا أنه يمثل قمة التناقض، ففي كتابه عام 1763 يرى: " أن الإسلام، أروع دين جاء من الإله " [15]. و يؤكد في كتاب آخر على أن النبوغ العربي وانجازاته الثقافية قد تمت تحت راية الإسلام، ويدحض أن يكون الإسلام قد انتشر بالسيف [16].

لقد أهدى " فولتير " في نفس الوقت كتابا إلى "البابا " يحمل عنوان:" محمد أو المتعصب"، والذي حول إلى مسرحية لاقت نجاحا كبيرا، حيث أعتبر محمد (ص) " متمردا، "خائنا"، مجرما" و"دجالا"، ولم يكون أمة إلا من أجل الصلاة و التكاثر و القتال [17].

كما وصف "مونتسكيو" ميلاد الرسول "ص" بلهجة كلها سخرية و ازدراء، ومن الأفكار التي ذهبت في هذا الاتجاه كتاب " كوندورسي" الذي وصف الإسلام بقوله:" بالنظر إلى كل الأنظمة السياسية و الدينية التي يرزح تحتها الجنس البشري، فإن النظام الإسلامي هو أكثر هذه النظم التي لا تترك مجالا للحرية "[18].

يمكن تفسير التناقض الذي غلب على كتابات فلاسفة الأنوار من خلال برجماتية هؤلاء و توظيفهم للإسلام لخدمة أفكارهم في مرحلة كانت تحت قبضة الفكر الكنسي التسلطي، بمعنى أن فلاسفة عصر الأنوار استخدموا الإسلام و الشرق في حربهم ضد التعصب و ظلامية الكنيسة، فكلما توافق

الإسلام مع أفكارهم و تعارض مع أفكار الكنيسة مدحوه، أما إذا تعارض مع رؤاهم، هاجموه بأكثر حدة و ألصقوا به كل التهم و الشوائب.

توضح فلسفة عصر الأنوار في أوروبا تجاه الإسلام و المسلمين، توضح تحكم سلطة الكنيسة في رسم التصور العام للإنتاج الفكري في ذلك العصر، حتى و إن كانت بعض تصورات فلاسفة عصر الأنوار و خاصة في فرنسا موضوعية، إلا أنها في الواقع لم تكن حصيلة اقتناع و دراسة وافيين، و يغلب عليها التناقض في المحتوى أكثر من الموضوعية و المصداقية العلمية لحقيقة الإسلام.

أما الاستشراق كرؤية أكاديمية علمية للإسلام، فقد خضعت العديد من كتابات الاستشراق للدراسة والنقد من بعض المفكرين العرب و المسلمين و بعض الغربيين أنفسهم، و يعد كتاب " الاستشراق " لمؤلفه "إدوارد سعيد" المرجعية التاريخية لتفكيك الرؤية الاستشراقية، إذ ينفي "سعيد" عن المشروع الاستشراقي أية علمية، و يعتبره مؤسسا لنظام " رؤياتي " إيديولوجي" "عنصري " و "متعالي" في مقاربته للإسلام [19].

يعتبر "حسن حنفي " أن الاستشراق هو:" نتاج ثقافة غربية استعمارية ذات صبغة إيديولوجية بحتة، وهو تعبير عن الإثنية الأوروبية حيث تسود التسلطية و حب الهيمنة [20]، في حين يقسم "الطيب تيزيني " المستشرقين إلى: استعماريين و متعالين، و إنسانيون منفتحون على الثقافة الإسلامية [21].

لم يسلم الاستشراق من النقد، حتى من الدائرة الغربية، فـ" ماكسيم روندسون" يرى أن الاستشراق لم يعط إلا نتائج معرفية هزيلة في دراسته للإسلام، و السبب في ذلك هو عجزه عن التخلص من المعايير الإثنية الغربية عند تناوله للإسلام [22] و يعتبر " خوان غويتسلو" أن الاستشراق ظهر لخدمة المصالح الاستعمارية الغربية، و تسهيل عملية السيطرة على الشعوب الإسلامية [23].

والواقع، أن المشروع الاستشراقي في مجمل أفكاره، لم يكن مهيأ–في نشأته–لمقاربة الإسلام كعقيدة و حضارة مقاربة تبتعد عن الاستعلاء، وذلك لعدة عوامل منها:

لقد تأسس الاستشراق كعلم لدراسة الشرق مع بداية التوسع الاستعماري الغربي، مما جعله وسيلة في يد السياسيين الغربيين من أجل تحكم أكبر في الشعوب الإسلامية المستعمرة. أو من كان الاستعمار يطلق عليهم مصطلح " الأهالي".

وعليه، فالدراسات التي قام بها المستشرقون حول ثقافة تلك الشعوب الإسلامية و أنماط حياتها في جميع الميادين، وظفت في قمع ذات الشعوب و السيطرة عليها ن باستثناء القليل من المستشرقين، كان جلهم مطبوعين بالإثنية الغربية المتعالية التي لم تر في الشعوب الإسلامية إلا تجمعات تحتاج إلى التحضر والخروج من البربرية.

تمثل هذه العوائق السياسية و السيكولوجية الموروثة عن حقب التاريخ السابقة، عقبات تحول دون مقاربة الإسلام كواقع ثقافي يمكن دراسته دون تدخل اعتبارات الانتماء، حيث تبين العديد من كتابات المستشرقين المعاصرين اعتمادها على عنصرين هما:

- يكمن العنصر الأول في العاهات الفطرية و حتى الأنطولوجية للشعوب التي تدين بالإسلام
- تميز الإسلام كدين –بحسب المستشرقين –بأنه "دين مطبوع بطابع التخلف" و "عدم الحركية" و الثنائية المعروفة ب"التعصب–التوكل".

لقد ذهب " إرنست رينان" لذي تخلى عن أبسط القيم الأكاديمية، إلى اعتبار الإسلام بمثابة: " السلسلة الأكثر ثقلا و التي لم تحمل البشرية مثلها من قبل"، كما أوضح في محاضرة له بعنوان: " دور الشعوب السامية في الحضارة "أن الإسلام هو " التعصب" هو " احتقار العلم" "إلغاء للمجتمع المدني ".

كما وصف "لويس ما سينيو" الرسول "ص" بأنه صاحب أفكار ضحلة، يرجع في التدبير إلى قلبه وليس عقله [24].

في حين اتخذ "جاك بيرك" موقفا متعاطفا من الإسلام، عندما صرح في إحدى المقابلات أنه : " كاثوليكي روماني و لكنه يحب الإسلام".

أما في العصر الحديث، فإننا نلاحظ تعدد الكتابات و تنوعها بحسب تعدد المرجعيات الفكرية لأصحابها، خاصة المدرسة الأمريكية التي تهتم بدراسة المجتمع الإنساني انطلاقا من حركيته و تفاعله.

لقد ركز الجيل الجديد من المستشرقين في دراسته للظاهرة الإسلامية معتمدا منهجيات العلوم الإنسانية و الاجتماعية، مما قد يخلص الدراسات التي تتناول الإسلام من التصورات القديمة و يخلق "قطيعة إبستمولوجية" مع عقلية الإقصاء.

يغلب على هذه الدراسات أنها تلغي الممارسات الحضارية المتعددة داخل الفضاء الإسلامي ، وذلك باعتماد " إستراتيجية التحاشي " واقتصر الاهتمام فقط بالحركات ذات الماهية السياسية أو ما يعرف حاليا بالإسلام السياسي، غير أن تلك المعرفة المتعلقة بالإسلام السياسي ، تمت مقاربتها بطريقة استخداميه براغماتية تبتعد كل البعد عن المعايير العلمية من أجا إعادة إنتاج الصورة الكنسية التي كانت مكرسة في القرون الوسطى، فمعظم ما تم تناوله ، تعلق ب" الإسلام الراديكالي"، " الإسلام المتعصب"، " الإسلام المتطرف" و"الإسلام الظلامي"،" إسلام تعدد الزوجات " و"إسلام الحرب المقدسة".

تمتلك الكتابات الاستشراقية الجديدة، وسيلة جديدة، لم تكن لدى الجيل القديم، وتتمثل في وسائل الإعلام التي لعبت دورا هاما في "شيطنة "الإسلام وز المسلمين.

فبدل أن تكون الدراسات الإستشراقية عنصر توازن و مصدر معرفة متوازنة ووسيلة للتواصل الحضاري بين الإسلام، والغرب، تستعين هذه الكتابات بالإعلام و يتم ترويجها على أساس أنها دراسات "أكاديمية و علمية ".

وما يمكن ملاحظته عند قراءة الإنتاج الإستشراقي الجديد، هو استعمال لغة إعلامية درامية أكثر منها أكاديمية عقلانية، و تمثل كتابات "جيل كيبل " نموذج للتحليل الذي لم يستطع التخلص من ذاتية الانتماء و تحويل القطيعة المعرفية المنشودة إلى ممارسة .

ويمكن إضافة تناول الفكر الاستشرافي لمقاربة "إسلام الهجرة " ، فإذا سلمنا جوازا أن الدراسة الاستشراقية للمجتمعات الإسلامية كانت ناتجة عن قوالب ذهنية جاهزة و مشوهة ، وقبلنا في نفس الوقت الصفة المتعالية للمجتمع الغربي على باقي المجتمعات ، فكيف نفسر تحامل الغرب على المسلمين في دار المهجر ؟ فعلى الرغم –إذن–من تواجد الإسلام داخل الفضاء الثقافي و الجغرافي الغربي ، إلا أن ذلك لم يشفع له من أن يدرس بطريقة موضوعية ، ف"خبراء الإسلام" و هم يكتبون عن الضواحي الفرنسية (باريس و ليون و مرسيليا تحديدا)التي تقطنها جالية عربية و مسلمة كبيرة، لم يهتموا بتشريح أسباب الواقع الاجتماعي و الثقافي البائس لهذه الجالية حيث الإقصاء و العنصرية ، على الرغم من استخدام خطاب سياسي قائم على العدالة و حقوق المواطنة ،في حين الممارسات تحيل إلى واقع آخر ، بل تؤدي هذه السلوكيات إلى توسيع فجوة اللاتفاهم بين المجتمع



الفرنسي و الجالية العربية الإسلامية (محاولات الأحزاب اليمينية خاصة في فرنسا الهادفة لطرد كل المهاجرين من أصل عربي –إسلامي .

تؤدي هذه السياسات إلى إحياء القوالب الذهنية السابقة، و التي سادت منذ البدايات الأولى للتفاعل الاجتماعي –الحضاري بين العالم الغربي و العالم الإسلامي، فالاستشراق الجديد لا يخرج عن المسار الإختصاري –التبسيطي و التحيزي الذي ينبئنا به تاريخ العلاقات بين العالمين، بل أن عصرنا يتميز في استعمال وسائل البث و التكنولوجيا الرقمية بهدف تمرير أفكار أو صور بهدف تشويه الرسالة الحضارية للعالم الإسلامي.

ثالثا /الإطار النظري و الفكري المحدد لأسباب الخوف الغربي من الإسلام:

ينم المسار التاريخي و السوسيولوجي و الحضاري– الذي يربط العالم الغربي بالعالم الإسلامي – على وجود مقاربة نظرية و فكرية شارحة لأسباب العداء بين المنظومتين، ومختلف الآليات الغربية المستخدمة لتكريس الصورة السلبية للإسلام و المسلمين.

يتناول الإطار الفكري و النظري نظرية المؤامرة و محاولة إثبات استعمالها في التعامل الدولي مع العالم الإسلامي، على الرغم من ذهاب بعض مفكري العالم الإسلامي من أمثال "أحمد زويل " الذي ينفي نظرية المؤامرة و يعتبرها "كلام فارغ"[25]، ثم يتم استعراض الأسباب المؤدية لنشء الكراهية بين العالمين و إنتهاءا بذكر آليات تنفيذ إستراتجية الكراهية و المواجهة.

1–مفهوم نظرية المؤامرة :

يرى "حسن حنفي " أن:"التآمر موجود في كل مكان...القوى الكبرى تتآمر فيما بينها، وتتآمر على القوى الصغرى، وهو شيء وارد و جزء من اللعبة السياسية[26].

يقرر "إبراهيم أبراش " أن:" كل مطلع و ملم بعلم السياسة، يعرف أن السياسة هي سعي لتحقيق المصالح. فالمصلحة هي الهدف الأول الذي تسعى إليه الدول و الأنظمة في سلوكها الداخلي و الخارجي، وأن تحقيق المصلحة الوطنية لدولة ما يتم بإحدى الطريقتين: إما بالسلم حسب قواعد القانون و الأعراف الدولية، أو بالحرب و الصراع و ما يصاحبهما من خداع و مناورة و تآمر. و القول أن السياسة لا تعرف الصراع والتآمر هو قول لا يستقيم مع فهم السياسة على حقيقتها.

ففي كتابه "حرب الخليج دفعتني إلى الاستقالة " يرى "جان بيير شوفنمان" الذي استقال احتجاجا على الحرب ضد العراق عام 1991، أنه :"في كل مرة أراد العرب استدراك تخلفهم و لأسباب



وجيهة أن يصنعوا وحدتهم ، كانوا يجدون الغرب على طريقهم يمنعهم من تحقيق أهدافهم ، كما حصل غداة الحرب العالمية الأولى (مؤامرة سايكس –بيكو) ، وأن يبقوهم داخل حدودهم المصطنعة، أو ليردوهم نحو الماضي ، بما في ذلك استخدام قوة السلاح . و في كل مرة أراد نظام عربي أو مسلم الانفتاح على الحداثة، كان الغرب يسد الطريق عليه. فبالأمس كان ذلك مع محمد علي باشا و خديوية مصر، و بعد ذلك مع جمال عبد الناصر، و محمد مصدق في إيران. و كان من بين النتائج المباشرة لحرب الخليج الثانية (1991) "بطح "بلد عربي واحد هو العراق، وهو الوحيد في المنطقة الذي بدأ ينزع عن نفسه رداء التخلف [27].

يمكن ذكر من الأمثلة التآمرية، عبر استطلاع التاريخ، من خلال تآمر بريطانيا، فرنسا و إسرائيل في مدينة "سيفر" الفرنسية لشن العدوان الثلاثي على مصر عام 1956، وتآمر أمريكا مع إسرائيل على الأمة العربية في جوان 1967.

وبالنتيجة، يمكن القول أن نظرية المؤامرة على الإسلام موجودة، وليست مرتبطة بأحداث 11/09، كما يذهب البعض، بل مردها إلى البدايات الأولى لعلاقة العالم الغربي بالعالم الإسلامي .

2-أسباب العداء و الخوف من الإسلام :

لاحظ المؤرخ الفرنسي "كلود كاهين " في رده عن تساؤل عن أسباب الخوف من الإسلام ، أن:"أحد عوامل الإقبال الكبير على كتابة تاريخ الحروب الصليبية ، يرجع إلى أن ثمة رغبة متواصلة لدى الغرب في تأكيد ذاته في مواجهة الشرق و العرب و المسلمين ، و أن عودة الغرب إلى هوية العصور الوسطى و منطقها أقوى مما هو الحال في بعض بلدان الشرق الإسلامي ، وقد تزايدت هذه العودة بعد زوال المعسكر الاشتراكي ، وبروز حاجة دول الحضارة الغربية إلى خصم جديد تتهرب من خلاله من حل مشاكلها المزمنة ، وهذا الخصم الجديد هو العرب و المسلمون عامة [28].

يقول "غراهم فولر" و أيان ليسر " في كتابهما "الإسلام و الغرب ..بين الشرق و الغرب "، وفي مجال عرضهما لأصل المشكلة بين الغرب و الإسلام :" أنه بعد انتهاء الحرب الباردة بين الشرق والغرب، شاع بين الناس اعتقاد بأن الصراع الإيديولوجي العالمي القادم قد يكون بين الإسلام و الغرب ، وذلك تأسيسا على محاولة الغرب (بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية) فرض هيمنته المطلقة على العالم ثقافيا، سياسيا، اقتصاديا و عسكريا، وبكل وسيلة أخرى ممكنة، وأن هذه

المحاولة لابد و أن تولد رد فعل –على هيئة ما –تتخذ موقف التحدي من الحضارة الغربية ، والمرشح الأرجح للقيام بذلك الدور المتحدي هو الإسلام ، لأنه يشكل المنافس السياسي و الفكري (الإيديولوجي) الرئيسي للغرب [29].

ويرصد "إبراهيم نافع " التهم التي ترتكز عليها ألة الدعاية في الغرب لتشويه الإسلام (ضمن نطاق الحرب ضد الخطر الأخضر الذي هو الإسلام) و يبرز منها التهم التالية :

- ✓ إنه يقوم على القهر و الغلبة، و يريد أن يفرض نفسه غصبا على جميع الأجناس و الأديان، وأنه توسع بحد السيف، وغزا البلاد الأخرى.
- ✓ إنه يحرم حرية الرأي و العقيدة، ويحجر على أبناء الديانات الأخرى في ممارسة عقائدهم، و المقارنة بين ما يحدث في البلاد الإسلامية و البلاد الغربية في هذا الصدد ليست في مصلحة الأخيرة.
- ✓ إن الإسلام في سبيل نشر دعوته، أعلن الحرب ضد جميع الشعوب و مختلف الأديان، بل و يذهبون إلى أن الحرب من أسس العقيدة الإسلامية.
- ✓ إن الحرب هي وسيلة تعامل المسلمين مع الغير، و أنهم لا يجنحون إلى السلم أبدا، إلا إذا تم قهرهم.
- ✓ إن الإسلام لا يرعى العهد و لا يحترم المواثيق و المعاهدات، وفي هذا الصدد، يكثر حديثهم عن الجهاد باعتباره إعلانا للحرب كسياسة ثابتة للمسلمين تجاه الغير [30].

يمكن تحديد مجموعة من الأسباب المؤدية لنشوء الكراهية زو المواجهة بين الغرب و المسلمين، حيث يمكن ذكر:

تناقض القيم السائدة بين المنظومة الغربية و المنظومة الإسلامية :

يمكن القول أن هناك تناقضا بين القيم التي تشكل ثقافة الإسلام و القيم التي تشكل ثقافة الغرب، فمثلا، تسود في الإسلام قيمة "الإنسانية " و من ثمارها الإخاء و المساواة ، بينما تسود في الغرب "العنصرية" وجوهرها النزعة المركزية الغربية، وتسود في الإسلام "الجماعية" و جوهرها العمل الصالح لمنفعة أكبر عدد ممكن من البشر، بينما تسود في الغرب "الفردانية " و جوهرها طلب النجاح الفردي و لو على حساب الآخرين، و تسود في الإسلام "العدالة " في كل مجال حتى مع الأعداء، بينما يسود في الغرب الجري وراء" الربح "بأي ثمن، و عليه، تتميز ثقافة الإسلام

"بالتعاونية " أما ثقافة الغرب فهي ثقافة "العداء"، و نستدل على ذلك من خلال مقولة "برنارد لويس" :"إننا نواجه مزاجا و تحكا سيرفعان إلى حد كبير من وتيرة القضايا و السياسات التي تنتهجها الحكومات ، وهذا ليس صدام حضارات، قد يكون ذلك هو رد فعل اللاعقلاني بل التاريخي لخصم قديم، على تراثنا اليهودي –المسيحي، وحاضرنا العلماني، و انتشارهما على نطاق عالمي [31].

الإسلام عامل توحيد:

يمثل الإحساس بالأمة الإسلامية الواحدة جزءا من التكوين النفسي للمسلم، بينما اختفى هذا الإحساس عند المسيحيين إلا في حالة لجوء دولة غربية إليه، كما حدث مع كل من أرثوذكس الصرب وكاثوليك الكروات في حروب البلقان الأخيرة.

يدرك المسلمون، أن الغرب تآمر و يتآمر للحيلولة دون توحد الدولة الإسلامية في كيان واحد يناظر التكتلات الغربية، و يرى الغرب أنه في الوقت الذي حلت فيه القومية محل الدين، فإن الإسلام لايزال يؤدي دوره كقوة دينية و سياسية عاطفية تجمع أمة الإسلام –على تباين أعراقها–في نسيج واحد يسمو على كل صور الخلافات العرقية و القبلية و الإقليمية.

يقرر كل من " فولرو ليسر" إن إحساس المسلمين بانتمائهم إلى أمة واحدة لا يزال يمثل إلى يومنا هذا صورة مميزة للتكوين النفسي عند غالبية المسلمين، وأن هذا الإحساس بالانتماء إلى الأمة الإسلامية الواحدة يشكل أعظم مخاوف الغرب من الإسلام، و لذلك يعمل الغربيون باستمرار على تفتيت الأمة الإسلامية، وعلى الحيلولة دون توحدها، وهذه واحدة من أخطر القضايا بين الغرب رو المسلمين، وخاصة في هذه الأيام التي يحاول فيها الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية تحقيق المزيد من التوحد بين مختلف كياناته، مع تحقيق المزيد من التفتت في العالم الإسلامي[32].

الإسلام عامل مقاومة:

يرى "مارسيل بوازار": " لقد ثبت أن الإسلام روح كل مقاومة يبديها شعب مغلوب سياسيا، ومحك كل مقاومة" ففي إفريقيا، ساهم الدين في إقامة مجتمع جديد خارج النطاق القبلي أكثر جدارة بمقاومة التأثير الأجنبي.

وفي آسيا تماسك الإسلام المرن، ونما في وجه النفوذ الاستعماري، وقد حمل الإسلام في أكثر الأحيان راية الصراع مع الإستعمار.

ويضيف " بوازار " أيضا:" لقد تأكد أن جميع الانتفاضات التي سادت البلاد الإسلامية في عشرات السنين الأخيرة كانت إسلامية بصورة حقيقية، مهما كانت صبغة الأزياء التي ألبستها"[33].

يرجع المستشار "طارق البشري" : " المقصود من الهجوم على الإسلام و الشريعة الإسلامية، هو تفكيك قوى التماسك في هذه الأمة، فالقوى المعادية الإسلام في الخارج تعلم أن أفضل العناصر التي تستحث المقاومة ضد الغزو الأجنبي و السيطرة الأجنبية ،وأنه أفضل العناصر التي تمكن من الاستقلال لذلك ، فهم يهاجمون الإسلام و المسلمين لهذا السبب [34].

3- آليات عداء الغرب للإسلام :

يستخدم الغرب في عدائه للإسلام عدة آليات، و أبرزها: التفتيت، التغريب، الاستيطان، مكافحة الإرهاب و الدعوة إلى التجديد الديني...

التفتيت: يرى المستشرق "برنارد لويس" : " أن الإمبراطورية العثمانية كانت منذ تأسيسها، وحتى زمن سقوطها تكرس قواها في سبيل تقدم شوكة الإسلام و حمايته ضد أي اعتداء خارجي، وقد ظل العثمانيون طوال أربعة قرون تقريبا في حرب مستمرة ضد الغرب المسيحي، أولا لمحاولة فرض حكم إسلامي على جزء كبير من أوروبا و هي محاولة رافقها النجاح، وثانيا لشن حرب دفاعية تأخيرية مديدة في وجه الهجوم المعاكس [35].

لذلك كله، فقد كان هدف الغرب "دحر الإمبراطورية العثمانية و تدميرها [36]، ولم يكن القضاء على الدولة العثمانية، إلا مظهرا من مظاهر الهجوم العام الذي يشنه الأوروبيون على الإسلام [37]، وقد أحصى أحد الباحثين "مئة مشروع لتقسيم الدولة العثمانية" خلال فترة : 1281-1914 ، تقدم بها سياسيون، مفكرون، قساوسة، يقترحون فيها طرائق لتفتيت بلاد الشام، لأن الجميع في الغرب كانوا على اتفاق على إضعاف الدولة العثمانية ذات التوجه الإسلامي و تفكيكها و بالتالي إزالتها من الوجود.

التغريب: لقد عملت حملة الغرب ضد الإسلام على تصفية و قتل عوامل نهضة الأمة الإسلامية من الداخل، بمعنى من داخل الإنسان والمجتمع و ضرب عوامل المناعة و المقاومة في النفس الإسلامية

تقوم الحملة التغريبية المعاصرة على القضاء – و بصورة نهائية – على الهوية الذاتية التاريخية للأمة من خلال عملية تغريب شاملة للأمة ثقافيا، اقتصاديا، سياسيا و اجتماعيا، و إلحاقها نهائيا



بالمركز الغربي الإمبريالي تحت شعار :"إلغاء الذات و الهوية الخاصة لحساب هوية الغرب و تماهي المغلوب على الغالب ، حتى تصبح جزءا هامشيا متطفلا لا يملك حتى شرف المشاركة في إعادة إنتاجه، فليس أمامنا إلا استهلاكا دائما و أبدا من جهة، وتسخيرنا و استخدامنا و استعبادنا لحسابه دائما و أبدا من جهة أخرى، و كأن بالغرب يحدث نفسه بأن حملته المعاصرة هي الرد المضاد و التصفية الشاملة لكل المكاسب التاريخية للفتح الإسلامي منذ 1500 عام [38].

يحفل التاريخ العربي و الإسلامي بأبجديات لأفراد من صلب الحضارة الإسلامية، لكنهم يؤازرون الغرب في حملته ضد الإسلام، فينعتهم "جلال أمين " ب"المفتونين بالحضارة الغربية "[39] و يسميهم "أنور عبد الملك ""بالعملاء الحضاريين" [40] و قد سماهم "جمال الدين الأفغاني " قديما ب" طلائع جيوش الغالبين "[41]، في حين عرفهم "روجيه غارودي" حديثا ب " جيوش الاستعمار الجديد [42].

الاستيطان: لقد أوصى مؤتمر "كامبل بنرمان" (المنعقد سرا في لندن عام 1905-1907) و من أجل ضمان مصالح الغرب في منطقتنا بعد إسقاط الدولة العثمانية الإسلامية ب:

- ✓ على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزئة هذه المنطقة و تأخرها، وإبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك و جهل و تأخر.
- ✓ ضرورة العمل على فصل الجزء الإفريقي في هذه المنطقة على الجزء الأسيوي، ويقترح المؤتمر لذلك إقامة حاجز بشري، قوي و غريب، يحتل الجسر البري الذي يربط أوروبا بالعالم القديم و يربطهما معا بالبحر الأبيض المتوسط، بحيث، يشكل في هذه المنطقة و على مقربة من قناة السويس، قوة صديقة للاستعمار، و عدوة لسكان المنطقة [43].

مكافحة الإرهاب: يرى المستشرق الأمريكي "برنارد لويس" في دراسة له حديثة "أن الإرهاب يكمن في صميم العقيدة الإسلامية "[44] ويلاحظ "محمد عابد الجابري " أن :"المقصود بالإرهاب في الخطاب الأمريكي، وبالدرجة الأولى ، هو ما تقوم به جماعات ترفع شعار الإسلام بهدف التشويش على الوجود الأمريكي في الشرق الأوسط " [45].

كما أكد "عبد الله أحمد بدوي" : " أن العديد من المسلمين في العالم يشعرون أن الحرب ضد الإرهاب هي حرب ضد الإسلام، فيما لا يقدم الغرب أية ضمانات تقنعهم بعكس ذلك"[46].



و لقد تم استغلال هجمات 09/11، لتعميق الهوة الفكرية و تكريس الصراع بين العالم الإسلامي و العالم الغربي، إذ حذر رئيس باكستان السابق في عام 2004 من :"احتمال ظهور "ستار حديدي بين العالم الإسلامي و الغربي ، إدا لم يتحقق العدل للمسلمين في النزاعات الدولية ، وخاصة في الشرق الأوسط "[47].

الدعوة إلى تجديد الخطاب الديني: يعرف التجديد على إعادة الشيء لما كان عليه في الأصل، فتجديد" الفكرة " معناه إزالة ما لحق بها من انحرافات و شوائب لتكشف عن جوهرها أو أصلها الذي هو الحق.

يرى "عبد الله الدائم " إن هذه القيم، أصابها بعض الركود و الجمود، حتى في النفوس، في عصور التخلف فقدت بريقها و إشعاعها، وتراكمت فوقه قيم دنيا –إن صح أن نسميها قيما –كادت تطفئها و تقضي عليها بثقلها (طغيان القيم الزائفة على القيم الأصلية).

ينسى الناس –في عصور التخلف–المعنى و الجوهر، ويستمسكون بالمظهر و الشكل و الطقوس[48]، فحالة المجتمعات العربية و الإسلامية بحاجة إلى تجديد أصيل يقوم على إعادة إحياء القيم النوعية، مثلما يرى "جاك بيرك" : أعتقد أنه من المستحيل أن يصل شعب من الشعوب إلى مستقبل سليم ، بدون احترام و إحياء القيم ، سواء سميتها خالدة أو طبيعية ، فلا مجتمع بدون قيم ، و إننا نشاهد كل يوم الكوارث المخيفة الناتجة تهافت القيم في المجتمعات "[49].

تتطلب عملية بناء المجتمعات من الناحية العملية ن إصدار أحكام فقهية تلاءم التغيرات في الزمان والمكان والعادات، باتجاه العصرنة و التيسير في الدين، مع الالتزام بالكتاب والسنة، ونقصد الالتزام بالثوابت والقطعيان الدينية و ماهو معلوم من الدين بالضرورة.

ولعل من أخطر التحديات التي تواجه العالم الإسلامي، تلك المتعلقة بتجديد الخطاب الديني، فقد صدر كتابا حديثا في الولايات المتحدة الأمريكية، ووزع في فلسطين، يحمل عنوان: " الفرقان الحق" هدفه التشكيك في القرآن الكريم، ويحوز على مفاهيم مغلوطة لتشويه العقيدة الإسلامية.

يمكن القول عن "الدعوة إلى تجديد الخطاب الديني " أن هناك أهدافا رئيسية لتلك الدعوات :

- إلغاء كل نص ديني يرى فيه اليهود إساءة إليهم، أو تحريضا على مقاومة عدوانهم.



- الفصل الكامل بين الدين و الدنيا، أو بين الدين و الدولة، أو بينة الدين و السياسة، أو بين الدين و الحياة العامة، وذلك عن سياسة الدنيا بقوانين وضعية دون التقيد بما جاء في الوحي الإلهي .

رابعا : نحو آليات تجديد الخطاب النظري و الفكري:

يوضح التطور التاريخي للعلاقات بين منظومة الأفكار الغربية و منظومة الأفكار الإسلامية، أن إشكالية الصراع و المواجهة هي العنصر المتحكم و الضابط لطبيعة التفاعلات بين المنظومتين، وذلك منذ البدايات الأولى لتشكل العالمين، و أمام ذلك ،يكون من الضروري البحث عن آليات التجاوز المعرفي و الفكري و النظري، بمعنى تفعيل مقاربة سلمية توافقية تكافئية، أي تأخذ في الحسبان منزلة الندية و المساواة بين العوالم المختلفة على خلفية أن كل من القيم الإنسانية الغربية الناتجة عن مختلف ثورات هذا العالم عبر سيرورته التاريخية (الثورة الفرنسية، الثورة الأمريكية ...) و التي زودت الإنسانية بقيم الحرية، المساواة، و الأخوة و غيرها من القيم التي لا ينكرها عقل أي فرد في الوجود من جهة، و القيم الإسلامية ذات المصدر الإلهي و الهادفة إلى الرقي بالإنسان إلى أعلى المراتب، وحل الإشكاليات الكبرى لمجتمعه استنادا إليها.

لتحقيق أهداف البشرية، يستوجب توفر آليات تشاركية من ابتكار الإنسانية ذاته و تتمثل في:

الحوار العالمي الشامل: يقوم الحوار العالمي و الشامل على استدعاء كل الأطراف المشكلة لجغرافية العالم، بدون إقصاء أو تهميش أو تحت أي صفة كانت، فمجموع القيم الإنسانية من حرية، مساواة، عدل هي قيم تأسيسية بمعنى تنتظم بها العلاقات الدولية و تشاركية أي صفة كلية و ليست محلية أو إقليمية، بل هي ملك للكل .فلا يحق لأي إقليم احتكار أية قيمة إنسانية، أو العمل على ضمها لحضارته أو منظومته الاجتماعية و الإدعاء بالتفوق على باقي الأجناس مما يكرس مرة النظرة الدونية –الإحتقارية لطرف على بقية الأطراف، وفي ذلك تأخر للإنسانية و ليس لإقليم بعينه.

وعليه فاستدعاء كل الأطراف المشكلة للمجتمع الدولي و بدون تمييز، معنى ذلك الإقرار بوجود ذات و آخر متمايزين و لكن يشتركون في مجموع القيم الإنسانية باعتبارهم كذلك.



يتطلب حضور كل الفواعل الدولية وضع أجندة موضوعات التي تهم الإنسانية، وفي ذلك أمثلة "السلاح النووي الإيراني " مشكلة الهجرة غير السرية "، " إشكالية حقوق الإنسان "، "مشكلة التلوث ، " مشكل الاحتباس الحراري "،" مشكلة الأمن السلم في العالم" و "مشكلة الإرهاب " وغيرها.

إن طلب الحلول لهذه المشاكل- التي لا تقتصر على جماعة دون أخرى- يستوجب إشراك كل الأطراف في عملية تقديم تصورات و حلول، و بالموازنة بين مختلف التصورات و الحلول نتوصل إلى إيجاد حلول نهائية لطبيعة هذه المشاكل.

وعليه، فعملية الدعوة إلى الحوار، ليست من أجل الحوار، بل يتعلق الأمر بإرفاق الحوار كشرط لتسوية المشاكل و إقرار الأمان في مدركات كل فرد مكون للإنسانية، بالندية، أي إشراك كل البشر فيه، إضافة إلى تقديم كل واحد منهم لتصوراته للحلول والمخارج.

تفعيل هيئات و عمل الهيئة الأممية: بالنظر إلى ديباجة الهيئة الأممية، فإننا نكتشف نية الأطراف المؤسسة عقب نهاية الحرب العالمية الثانية، في تجنيب الإنسانية لويلات الحروب و الصراعات التي يصنعها الإنسان، وبالتالي العمل في إطار قانوني مشروع لحماية الأمن و السلم الدوليين، وحق الشعوب في تقرير مصيرها ، وقد عملت الهيئة على تكريس هذا المسار، إلا أنه أمام عمل النظام الدولي بعد تراجع الإتحاد السوفيتي، كان توظيف أجهزة الهيئة للقيام باحتلال دول (العراق نموذجا) تحت شرعية قوانين هذه الهيئة، مما لا يتوافق مع روح و عمل هذه المنظمة .

لذلك، يكون ضروريا أمام الجماعة الدولية اليوم، إعادة النظر في طبيعة عمل الهيئة عن طريق تكييف نمط عملها بما يتوافق مع المتغيرات السياسية و الإستراتجية التي يفرضها الواقع الدولي، بمعنى تفعيل المقاربة القانونية الإصلاحية بما يتناسب مع تطور السياسة الدولية ذات الرأس الأوحد.

خلاصة و استنتاجات:

يمكن القول –في المقام الأخير- أن تآمر الغرب على الإسلام حقيقة و واقعة باعتراف الكثيرين (حتى في الغرب نفسه) من العلماء و المفكرين، و هو قديم مرتبط بالبدايات الأولى لنزول الدين الإسلامي، ثم تكرس مع الحروب الصليبية و تجدد مع أحداث 09/11.

يتجسد التآمر ، من الناحية العملية من خلال التفتيت أو تجزئة الأمة الإسلامية و منعها من الوحدة و التقدم، والاستيطان في فلسطين لإجهاض الوحدة، في نفس الوقت، جعل الغرب نفسه نموذجا



للتقدم و التركيز الحضاريين، كما حاول إرغام دول العالم الإسلامي على مكافحة الإرهاب الذي يرمز إلى الإسلام –في نظر الغرب–و دعا على التجديد الديني تجديدا شعاره الفتوى التي أصدرها مفتي عموم العالم الذي هو الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش ، ومفادها أن فدائيي حركتي حماس و الجهاد و غيرهما ممن يقاومون الاحتلال الصهيوني المدعوم أمريكيا و أوروبيا "قتلة و ليسوا استشهاديين " ثم أصدر الإتحاد الأوروبي، بعد ذلك فتوى مماثلة ضد حركة حماس حيث اعتبرها إرهابية .

من أسباب ذلك التآمر على الإسلام : التناقض بين القيم الغربية (القائمة على العداء) و قيم الإسلام (القائمة على التعاون، وكون الإسلام عامل توحيد للأمة، وعامل مقاومة للسيطرة و الهيمنة، وعامل ممانعة ضد العولمة، و لا يعقل أن يكون سبب ذلك التآمر هو جهل الغرب بالإسلام كما يزعم البعض، فنحن مع الأمير "تشارلز" ولي عهد بريطانيا، عندما يقرر في إحدى محاضراته أنه " لا يمكن أن يكون سوء الفهم (حسب توصيف الأمير لحالة العداء ضد الإسلام) بيم العالمين الغربي و الإسلامي ناشئا عن الجهل في العالم الغربي، و يتساءل "سمير كرم " :"كيف نجرؤ على أن نتحدث عن جهل الغرب بالإسلام و المسلمين، ونحن نعرف إلى أي حد تنتشر في الغرب مراكز الدراسات و البحوث الجامعية التي تتخصص بالإسلام دينا وحضارة، تشريعا و فلسفة، تاريخا و علما و ثقافة .

يكون المخرج عن طريق تفعيل الحوار الشمل و العالمي بين أفراد الجماعة الدولية بدون إقصاء وكما لدور الهيئة الأممية باعتبارها أحسن تعبير عن الإرادة الدولية لتفعيل إرادة التعاون بين شعوب العالم.

<u>التهميش :</u>

(1)محمد ، عابد الجابري ، الغرب و الإسلام ...بأي معنى ، **جريدة الإتحاد** ،أبو ظبي ، 24-12-2004 .

(2)السيد ، ياسين ، المركزية الغربية و تجلياتها المعاصرة ، **جريدة الأهرام**،القاهرة، 16 -08-2001 .

(3) عبد الله ، إبراهيم ، المركزية الغربية (إشكالية التكون و التمركز حول الذات) ، (بيروت : المركز الثقافي العربي ، 1997) ص 22 .

(4)علي بن محمد السيد الشريف ، الجرجاني ،<u>التعريفات</u> ،(القاهرة :دار الرشاد ،1991)ص 33 .

(5) الملا علي ، القاري ، <u>شرح الفقه الأكبر لأبي حنيفة النعمان</u> ، تحقيق الشيخ مروان الشعار (بيروت :دار النفائس ، 1997)ص 19 .



(6) لويس كامل ، مليكه ، سيكولوجية الجماعات و القيادة ، ج2 ، (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، 1963) ص 408 .

(7)عبد الله، إبراهيم، المركزية الغربية، مرجع سابق ، ص ص 25-26 .

(8)عبد الله، إبراهيم ، مرجع سابق ، ص 18 .

(9)غوستاف ، لوبون ، سر تطورالأمم ، تر : أحمد فتحي ، زغلول (القاهرة : دار الفر جاني ، دون سنة نشر) ص 30 .

(10)عبد الإله ، بلقزيز ، بعد انهيار الإتحاد السوفيتي ..ماالعمل ؟ **مجلة المستقبل العربي** ، بيروت ، السنة 13 ، العدد 154 ديسمبر ، 1991 ، ص 15 .

(11)عبد الله ، إبراهيم ، مرجع سابق ، ص 18 .

(12)Dagron, chantal,Kacimi, mohamed, Arabe, vous avez dit arabe, siecles de regards occidentaux sur les arabes (paris : ed Ballard, 1990) p 15.

(13)Sénac, phillipe, l'image de l'autre :histoire de l'occident medieval face a l'islam (paris :ed Flammarion, 1983) p 17 .

(14) Jonin, pierre, la chanson de Roland (paris :ed, Gallimard, 1979).

(15) Hadidi, djavad, Voltaire et l'islam, langages et civilizations (paris :ed, Flammarion, 1974)p 156 .

(16)--------------------, Voltaire, essai sur les mœurs, t1 ; (paris :ed Garnier frere, 1963)p 275.

(17)op, cit , p 274 .

(18) Condorcet, un tableau historique des progress d'esprit humain ; (paris : J vrin, librairie philosophique , 1970) pp 100-101.

(19) Edward, said, orientalisme:orient cree par occident (paris:ed , du Seuil , 1980) .

(20) Hassan; hanafi, Orientalisme a occidentalisme, **peuples méditerranéens**, no 50, jan-mar, 1990.

(21)Kerro, Mohamed, Etre sociologue dans le monde arabe, ou comment le savant épouse la politique ; **peuples méditerranéens**, n 249 ; jan ,1991 ; pp 54-55.

(22) Maxime, rodinson; fontomes et realites d'orientalisme**, quantara** , no 13, oct-nov-dec, 1994 .

(23) Goytisolo ;juan; chroniques sarrasines (paris:ed, Fayard, 1985).

(24) ورغم ذلك ، نذكر للتاريخ ، أنه لم يمنعه ذلك من مساعدة المهاجرين المسلمين في فرنسا ، وإعانتهم في الأوقات الصعبة .

(25) جريدة **السفير اللبنانية**، بيروت في 27-07-2002 .

(26) حوار مع حسن ، حنفي ، **جريدة الحياة اللندنية** ، في 10-05-2002 .

(27) جون بيير ، شوفنمان ، حرب الخليج دفعتني إلي الإستقالة ، تر : أحمد عبد الكريم (دمشق : دار الأهالي ، 1992) ص 38-121 .

(28) صالح ، الحمارنة ، النهضة العربية الثانية (تحديات و آفاق) تحرير : غسان عبد الخالق (عمان : مؤسسة عبد الحميد شومان ، 2000)ص ص 119-123 .

(29)زغلول ، النجار ، الإسلام و الغرب في كتابات الغربيين (القاهرة : نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع،2003) ص 33 .



(30) إبراهيم ، نافع ، جنون الخطر الأخضر و حملة تشويه الإسلام ، **جريدة الأهرام** ، القاهرة في 02-09-2004.

(31)محمد عابد ، الجابري ، الإسلام هو العدو الأول للإمبراطورية الأمريكية ، **جريدة الإتحاد** ، أبو ظبي في 09-09-2003 .

(32) زغلول ، النجار ن الإسلام و الغرب في كتابات الغربيين ، مرجع سابق ، ص 74 .

(33) عماد الدين ، خليل ، نظرة الغرب إلى حاضر الإسلام و مستقبله (بيروت : دار النفائس، 1999) ص 21.

(34)حوار مع المستشار طارق البشري ، من إعداد محمد عشب ، في **جريدة الأهرام** ، القاهرة في 31-10-2003.

(35)موفق ، زريق ، نهضة أم تغريب (بيروت :دار المنارة ، 1996) ص 47 .

(36)موفق ، زريق ، مرجع سابق ، ص 50.

(37)موفق ، زريق، مرجع سابق، ص 49 .

(38)موفق ، زريق، مرجع سابق ،ص ص 44-45 .

(39)جلال ، أمين ، العولمة ، **مجلة المستقبل العربي** ، بيروت ، اوت 1998 ، ص 60 .

(40)أنور عبد الملك ، مصر المحروسة ، **جريدة العربي** ، القاهرة في 27-02-1994 .

(41)محمد عابد ، الجابري، إصلاحيون ،محققون و مخطئون ، **جريدة الإتحاد** ، أبو ظبي في 10-08-2004 .

(42)سلمان ، قطاية ، جيوش الإستعمار الجديد ، **جريدة الأسبوع الأدبي** ، دمشق في 25-06-1992 .

(43)ياسين ، سويد ، مؤامرة الغرب على العرب (بيروت : المركز العربي للأبحاث و التوثيق ،1992)ص 25 .

(44)محمد عابد ، الجابري ، في نقد الحاجة إلى الإصلاح ، **جريدة الإتحاد** ، أبو ظبي في 20-07-2004 .

(45)**جريدة المستقبل** اللبنانية في 04-08-2004 .

(46)**جريدة الشرق الأوسط** اللندنية في 24-09-2004 .

(47)عبد الله ، عبد الدائم ، في سبيل ثقافة عربية ذاتية (بيروت : دار الأدب ، 1983) ص ص 125-126 .

(48) جاك ، بيرك ، **مجلة الكويت** ، العدد 63 ن نوفمبر 1987 ، ص 41 .

(49) **جريدة الأسبوع** ، القاهرة في 28-06-2004 .

الاسلاموفوبيا: بين الصور النمطية والسياقات المنتجة

د: إسماعيل بوقنور أ: سليم قسوم
جامعة 8 ماي 1945 قالمة- الجزائر

مقدمة:

حاول الغرب منذ القديم خلق صورة نمطية محددة للإنسان العربي المسلم، فمنذ سنوات والميديا الغربية بثقلها وما تمتلكه من تأثير رهيب على النفس والعقول، تمكنت من نحت صورة سلبية إلى حد بعيد عن الإسلام الذي اعتبر كدين يمثل الرجعية والتطرف والإرهاب، وهذا ماساهم في خلق بؤر العداء والخوف من الإسلام او "**الاسلاموفوبيا** " كما أصبح يشاع.

ولعلّ منعطف الحادي عشر من سبتمبر 2001 قد حمل معه تحدِّياتٍ شائكة وتعقيدات جمّة إلى واقع مسلمي أوروبا وأمريكا، ونلاحظ هذا في كيفية تعامل خطاب مسلمي الغرب مع هذا المنعطف. لقد أدّت التطوّرات الداهمة التي تم معها في عديد الحالات تحميل الإسلام والمسلمين والثقافة الإسلامية، وبشكل تعسفيّ، اتهاماتٍ بالتطرّف والتشدّد والإرهاب؛ إلى بروز خطاب ركّز لبعض الوقت على موقف التبرُّؤ مما يجري من ممارسات شائنة يحمل القائمون عليها لافتات تدّعي أنها "**إسلامية**"، وهو الأمر الذي رسم الصورة القاتمة عن العرب والمسلمين عند الغرب وسيطرة على عقولهم.

فالاسلاموفوبيا هذا المصطلح القديم المتجدد بدأ يضج به المسلمون من كتابات الغرب وتصنيفاتهم، وتشريعاتهم لدرجة التضييق على المسلمين في إقامة شعائرهم الدينية، وهي السمة الواضحة في أمريكا وأوروبا حاليا، وتجسد هذا في الكثير من الإسقاطات والوقائع الميدانية سواء في صورة اعتداءات جسدية أو فكرية، أو جرائم عنف ضد المسلمين.

فما المقصود إذن بالإسلاموفوبيا كمفهوم؟ وما هي مختلف السياقات التي أدت إلى إنتاجه؟ وما هي المسارات التي يختطها هذا المفهوم لنفسه في مختلف التقارير والدراسات الغربية التي اهتمت بمقاربته وتحليله؟

من هذا المنطلق سنعمل على مقاربة المفهوم مسترشدين بالكم الهائل من المحاولات التي سارت في نفس الاتجاه ما بين محاولة تعريفه وتحليل مختلف الاتجاهات المتدخلة في إنتاج

سياقاته، إضافة إلى محاولة تقديم صورة عن بعض المظاهر التي تدل على وجود الظاهرة واستشرائها وذلك استنادا إلى تقارير ودراسات موثقة عملت على إعدادها تنظيمات مختصة في الظاهرة.

1- الاسلاموفوبيا، المقاربات المعرفية:

اشتقاقا فإن اللفظ اليوناني **phobos** يحيل على الخوف اللاشعوري واللامبرر، واستنادا لهذا يمكن القول بأن الإسلاموفوبيا خوف لاشعوري ولامبرر ورفض عشوائي للإسلام، غير أن هذا التعريف لا يعكس قطعا طبيعة التشعب المحيط بالمفهوم باعتباره يشكل محور نقاشات عميقة يتداخل فيها الديني بالثقافي والسياسي بالتاريخي، مما يتطلب تتبع مسيرة المفهوم عبر مختلف أشكال حضوره في التقارير والدراسات والأبحاث التي تعاملت معه كما في اشتغال جهات مختصة من قبيل جمعيات ومنظمات ومراصد حقوق الإنسان ومناهضة التمييز والعنصرية.

الإسلاموفوبيا كظاهرة أفرزتها جملة الأحداث الإقليمية والدولية التي شهدها العالم، ويستمد هذا المفهوم "**الفوبيا** " من قاموس الأمراض النفسية عند التعبير عن حالة من حالات الوسواس القهري حين لا يستطيع المريض التحكم في ردود أفعاله عند تعرضه للمثير الذي يسبب خوفه وإرهابه.

غير أن هذا المفهوم، **(الإسلاموفوبيا)** في حالته التاريخية والثقافية والسياسية، له جذور عميقة تعكس تاريخا مضطربا في أحيان كثيرة بين الغرب والشرق.

وفي خضم الأزمات التي تعصف من وقت لآخر بعلاقات المسلمين، تساهم بعض وسائل الميديا الغربية في إذكاء مشاعر الخوف من الإسلام والمسلمين وتصور وجود ما يقرب من **16** مليون مسلم في أوروبا بوصفه خطرا داهما على مسيرة أوروبا التاريخية.[1]

إذن هذا القديم المتجدد نحت مؤخرا تحت هذا التركيب، **الإسلام- فوبيا**، بمعنى **الرهاب**، على وزن فعال، وهو مصطلح قديم كمضمون خرج منذ أن واجه الإسلام الأخر، وبدأ يظهر في ثنايا كتابات العديد من المفكرين الغربيين، **والفوبيا** تعني الخوف، قبل أن يشيع هذا المصطلح كان هناك "**زينوفوبيا**" أي الخوف من الغريب، هناك أيضا "**أكروفوبيا**" أي الخوف من الأماكن العالية، وهاته أنواع من الأمراض النفسية، فيمكن أن يخاف الإنسان من كل شيء حتى مما لا يعلم، وهي محاولة تصوير الإسلام على انه ذلك البعبع الذي يجب أن يأخذ كل إنسان منه حذره[2].

يستخدم علماء الاجتماع **كفيلهام هايتماير** مصطلح الإسلاموفوبيا جنبا إلى جنب مع ظواهر مثل العنصرية وكراهية الأجانب ومعاداة السامية أو حتى "**ظاهرة**" كراهية مجموعات من الناس، كما هو الحال أن تكون في موقف سلبي من عامة الشعب المسلم ومن جميع الأديان والرموز الدينية، وممارسات الشعائر الإسلامية.

غير أن الأبعاد السياسية لمفهوم "**الاسلاموفوبيا**" بدأت تتبلور منذ أواخر السبعينيات وبداية الثمانينيات من القرن الماضي إثر بروز ظاهرة ما يسمى "**الصحوة الإسلامية**" أو "**صعود الإسلام السياسي**" في العالم العربي والإسلامي، وخاصة بعد الثورة الإيرانية بزعامة **الإمام الخميني** عام **1979**، وتزايد الاهتمام الغربي بدراسة ظاهرة تنامي الصعود السياسي للتيارات الإسلامية والأصولية وتأثيرات ذلك على الغرب(3).

وارتبط مفهوم "**الاسلاموفوبيا**" في الكتابات الغربية بمجموعة من المسلمات المسبقة والسلبية عن الإسلام والمسلمين، وبخاصة بالصورة النمطية الهوامية التي بدأتها المخابرات البريطانية عبر **لورنس العرب** وملاحظاته. وأكملتها المخابرات الأميركية في سياق عملها على رسم قوالب نمطية للأمم والشعوب، بهدف وضع قوالب سلوكية للتعامل معهم، وتجدر الإشارة هنا إلى أن معظم علماء النفس والانثروبولوجيا الذين رسموا هذه القوالب كانوا من العلماء اليهود المهاجرين من ألمانيا هرباً من النازية.

وطرح هذا التخويف من الإسلام في العديد من الكتابات، أبرزها الأفكار التي جاء بها **صامويل هانتينغتون** حول تطور المد الأخضر والصراع بين **الإسلام والغرب** في مأسماه **صدام الحضارات**، الذي لقي رواجا من حيث الأفكار والطرح عند السياسيين الأمريكيين، وينظر إلى التفاعل بين الإسلام والغرب على أنه أكثر من صراع بين الحضارات، ويشير الكاتب الإسلامي الهندي " **أم جي أكبر**" أن الموجة القادمة، " **تتجه بلا ريب لتأتي من العالم الإسلامي، فمن حركة المد الإسلامي حتى باكستان سيبدأ الصراع من أجل نظام عالمي جديد**"(4)

ويحاول الغرب في غمرة **اللانظام العالمي** خلق عدو جديد، ووجد ضالته في الإسلام وفي الحضارة الإسلامية، وبات الإسلام في عيونهم خطر أخضر يهدد الكون، على أن دعوى الصدام الحضاري التي يروج لها لا تعدو أن تكون ذريعة أو غطاء فكري لتبرير تسيده وهيمنته على

الباقين، والغرب بهذه الفكرة يكرس وحدة القطبية في النظام العالمي الجديد، ويؤكد إزدواجية معاييره نحو اللأخرين وتدفعه نحو نفي الآخر.

2- الإسلاموفوبيا بين الدعاية ومرجعية المصطلح:

أضاف **علم اللسانيات** سلاحاً جديداً في خدمة الإعلام الغربي وبخاصة لجهة إبتكار المصطلحات ومرونة استبدالها بمصطلحات بديلة عند الحاجة، بما يتيح للإعلام الغربي اللعب على المصطلحات وترويجها معتمداً على بنيتها اللسانية المدرعة، إذ تأخذ حبكة المصطلح في دراساتها المعطيات السياسية والاجتماعية إلى جانب المعطيات اللغوية، وهو ما يسهل فرض الإعلام الغربي لهذه المصطلحات، وهكذا رأينا تعاقب مصطلحات "**النظام العالمي الجديد**" وبعده "**العولمة**" ومن ثم "**النظام الاقتصادي الجديد**"، " **مشروع الشرق الأوسط الكبير** "، إلى غيرها..... حيث كان كل منها يطرح وكأنه نظرية عقائدية متكاملة ومدعومة بقوة الغرب، بحيث يصبح الاعتراض على المصطلح موازياً لمعاداة الغرب بأكمله، ثم يسقط المصطلح ليحل مكانه مصطلح بديل للنظرية العقائدية مقروناً بذات الحماية الغربية والخضوع في الدول النامية والإسلامية خصوصاً.

وهكذا فان استعراضنا لمرجعية المصطلح يقودنا إلى مجموعة مقالات يغلب عليها التبرير والدفاع وفصل الجزء عن الكل. كما أنها ركزت على البحث عن أصول هذا الخوف الغربي من الإسلام. حيث نميز ثلاث قراءات وهي:

أ- القراءة الثقافية الحضارية:

وهي تعتبر الخوف من الإسلام والمصطلح المشتق عنه، انعكاساً لمشاعر سلبية عميقة مدفونة في وعي المواطن الغربي ضد الإسلام والمسلمين، وتعبير عن تحيز تاريخي وثقافي ضد الإسلام كدين وضد المسلمين وحضارتهم الإسلامية، وهي قراءة منقوصة[5]، يقول **جاك شهين** أن هذه الصور النمطية كانت موجودة في السابق، فمثلا كان ينظر "**لليهودي**" على أنه يتميز بالخبث والعدوانية والميل للخيانة والتآمر، و"**الأسيوي**" على أنه واشٍ، "**الايطالي**" على أنه مافية، "**الهندي**" على أنه أحمق ومتوحش، "**الاسباني**" لزج، هذه الصور كانت موجودة واختفت تماما فلا تجد لها أثر لا في الكتابات ولا في المقالات الغربية، لكنها باقية في اللاشعور الغربي، واستبدلت بصورة الإنسان العربي المسلم، أطلقوا عليه تسمية غريبة جداً، وهي:

"**three B– Characters**"، أي الباءات الثلاث:

- **Billionner** أي أنه منتفخ يحمل على ظهره أكياس من المال لا يعرف كيف يتصرف بها.
- **Bomber** أي المفخخ الذي يتفجر في أي لحظة.
- **Billy Dancer**الراقص [6].

ب–القراءة الحدثية الصدمية:

وهي تربط الاسلاموفوبيا ببعض الأحداث الدولية التي أثرت بقوة على العلاقات بين العالم الإسلامي والمجتمعات الغربية خلال السنوات الأخيرة، وعلى رأس هذه الأحداث هجمات **الحادي عشر من سبتمبر 2001** الإرهابية، وما تبعها من هجمات إرهابية – **رفع مرتكبوها شعارات إسلامية** – ضربت مجتمعات غربية مختلفة مثل إسبانيا وبريطانيا، مضافاً إليها الصدامات الثقافية الحضارية بين الجانبين، وهذه القراءة هي في رأينا قراءة ظواهرية تبريرية إذ قَبِل الجمهور الأميركي والغربي معه، إتهام المسلمين تحت مسمى الشرق الأوسط، بتفجير مبنى **أف بي آي** في أوكلاهوما الذي نفذته عام **1995** الميليشيات الأميركية الآرية.

ج– القراءة السياسية الإقتصادية

وهي تربط صعود **الإسلاموفوبيا** خلال السنوات الأخيرة ببعض التغيرات المجتمعية الكبرى التي لحقت بالمجتمعات الإنسانية خلال العقود الأخيرة، وعلى رأس هذه التحولات تراجع قوى اليسار الغربي التقليدية التي سادت خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وصعود قوى اليمين الثقافي ومعه الأصوليات الدينية في الغرب والعالم الإسلامي خلال هذه الفترة، وهنا نسجل ضرورة التفريق بين الأصولية الإسلامية المعاشة في مختلف الفترات والحقبات التاريخية، وباقي الأصوليات الدينية الأخرى [7].

3– **المدركات الواقعية والصور النمطية:**

تهيمن جملة من الصور النمطية السلبية على وعي الغرب والعالم العربي والإسلامي. وقد أثرت هذه الصور وما تزال في العلاقات المتوترة بين الطرفين، فهذا التتابع السريع لرفض كل ماهو إسلامي حتى في الشكليات، سببه نوع من القلق الشديد نتيجة لتقديم الإسلام نموذجا جديدا للحضارة الغربية، **فالصين** مثلا تنافس في الاقتصاد، **اليابان** التكنولوجيا، **روسيا** السلاح، لكن

الإسلام يجيب على الأسئلة الكبرى للحياة بشكل مختلف، فهو يخاطب الروح والعقل والمنطق، يهتم بالجوانب الدينية بالمعاملات والمعتقدات، لهذا نتج عنه خوف شديد لأنه أصبح يهدد المعتقدات والقيم الغربية، بالإضافة إلى أن الغرب كان يعتقد أن امتصاص الإسلاميين داخل بوثقة أوروبا سوف يصنع منهم أوروبيين، لكن اكتشفوا بعد أجيال أن **الحرية** تقوي من الإسلام، **والعلمانية** الشديدة تزيد من اعتناق الغرب للإسلام لهذا حاولوا التضييق على هذا الدين ورفض كل ماهو مسلم أو عربي.

ونتيجة لمؤثرات موجودة في وعي ومدركات العالم الغربي، تشكلت مجموعة من الصور النمطية السالبة، فصورة الإسلام والمجتمعات العربية والإسلامية في الغرب تكاد تتلخص في أنه:

– إسلام دموي يشجع على الإرهاب وسفك الدماء، ويشكل مصدر تهديد للحضارة الغربية.

– إسلام متطرف لا يملك فقها للتعايش مع الآخر أو القبول به.

– مجتمعات إسلامية متخلفة سياسياً واقتصادياً، تسيطر عليها حكومات مستبدة، وتغيب عنها الحرية والديمقراطية، ولا تحترم فيها حقوق الإنسان، وتضطهد المرأة، وتصادر حقوق الأقليات.

– عالم عربي وإسلامي عاجز عن اللحاق بركب الحضارة الغربية ومنافستها، وتسيطر عليه مشاعر الحقد والغيرة والحسد والكراهية[8].

وقد أسهمت دراسة أصدرتها مؤسسة **the Runnymede Trust** "راينميدتراست" سميت: « **Islamophobia: a challenge for us all** » أو الاسلاموفوبيا تحد لنا جميعا، وهي مؤسسة بريطانية غير حكومية أصدرت تقريرها في عام 1997، وقد ساهم في بلورة محددات الرؤية الغربية للإسلام وقد استندت في ذلك إلى معايير ثمانية هي:

1.اعتبار الإسلام جسما أحاديا جامدا لا يتأثر بالتغيير.

2. النظر إلى الإسلام باعتباره يتسم بالتميز عن "**الآخر**"، وانه ليس له أي قيم مشتركة مع الثقافات الاخرى، وهو لا يتأثر بها أو يؤثر فيها.

3. اعتبار الإسلام عنيفا وعدوانيا ومصدر خطر، مفطورا على الإرهاب والصدام مع الحضارات.

4. النظر إلى الإسلام باعتباره يحتل مرتبة دونية بالنسبة إلى الغرب، وذا نزعة بربرية وغير عقلانية، وبدائيا.

5. الرفض التام لأي نقد يمكن أن يقدمه طرف إسلامي حيال الغرب.



6. اعتبار مشاعر العداء تجاه المسلمين هي أمر عادي وطبيعي.

7. استعمال العداء تجاه الإسلام لتبرير أي ممارسات تمييزية تجاه المسلمين وإبعادهم عن المجتمع وعزلهم أو تهميشهم.

8. اعتبار الإسلام مجرد أيديولوجية سياسية لتحقيق مصالح عسكرية وسياسية(9).

إن صورة المسلمين في الغرب متداخلة قليلا وغير واضحة إذ في جانب معين يتم الحديث عنهم كونهم أوربيين وعن بداية "**اندماجهم**"، أما عندما يظهر المسلمون تمسكا بديانة بلدانهم الأصلية على مستوى التطبيق الديني فإن المسألة تتعقد بالنسبة للرأي العام كما بالنسبة للنخبة الغربية، مما يضعنا أمام مفارقة عجيبة تقبل وتقر في جزء منها بأن جزءا من المواطنين الغربيين هم مسلمون، ولكن عندما تتجسد هذه المواطنة في الصلاة أو المطالبة بالمساجد وبالنسبة للفتيات في ارتداء الحجاب فإنهم سرعان ما يوصفون بالأصولية، لقد أصبح على المسلمين الموجودين في الغرب إذن أن يثبتوا أنهم ليسوا "**مسلمين كثيرا**" لأن المجال السياسي الغربي وإن كان لا يعترض على وجود مسلمين، فإن هؤلاء لا يجب أن يكونوا "**مسلمين كثيرا**" لأنهم إذا ما أصبحوا "**مسلمين بشكل زائد عن اللزوم**" فإننا نبدأ في الخوف منهم لنصل إلى ممارسة التمييز ضدهم في أحيان كثيرة(10).

كما نجد أيضا احد أهم المشكلات المطروحة في الغرب وهي إشكاليات **التهميش والاندماج** التي يواجهها مهاجرو **الجيل الثاني** من مسلمي أوروبا وأمريكا، لأن قضية الاندماج صارت تشغل مساحة كبيرة في أجندة اهتمامات رجال السياسة والاجتماع، خاصة بعدما تبين أن هناك شعورا سائدا بين الأوروبيين" بأن جوهر هويتهم وثقافتهم وتقاليدهم يواجه تهديدا من قبل المهاجرين المسلمين وثقافتهم المغايرة ". بينما **الجيل الأول** من المهاجرين المسلمين لم يواجه هذه المشكلة بسبب حنينهم وارتباطهم بأوطانهم الأصلية، إضافة إلى عدم اكتسابهم اللغة والخبرات الحياتية الجديدة في أرض المهجر، لكن المشكلة الحقيقية تواجه الجيلين **الثاني والثالث** من المهاجرين ممن ولدوا في أوروبا، وحملوا الجنسية، ونشئوا على سلم قيمي ومعرفي مغاير لذلك الذي يملأ عقول وقلوب الآباء(11).

ويرى بعض الباحثين ورجال القانون وحقوق الإنسان، على أن ظاهرة العداء والخوف من الإسلام، ضمن تكوين نمطي مسبق ينطلق من "**مسلمات**" تم تأصيلها في الثقافة الأوربية السائدة وجعلها أكثر قدسية من الأديان نفسها:

أولى هذه المسلمات، الصلة العضوية بين الإسلام والعنف.

ثانيها التعارض المبدئي بين الإسلام والديمقراطية.

وثالثها، العداء المطلق بين الإسلام والعلمانية.

ولم يكن بإمكان هذا النمط أن يصعد إلى السطح دون تعزيز فكرة الخطر الإسلامي منذ نهاية الحرب الباردة بشكل عام، ومنذ انطلاقة الحرب على الإرهاب بشكل واضح.

والسؤال المطروح هو كيف رسمت هذه الصورة النمطية عن العربي المسلم؟

إنه وفي كثير من الأحيان، يتم الخلط بين الأفكار ومعتنقيها، فيتم عزو ما يقترفه هؤلاء من أخطاء وتجاوزات إلى الأفكار التي يزعمون تبنيها. وهذا يظهر واضحاً تماماً في حالة الإسلام والمسلمين، إذ يتم تحميل الإسلام مسؤولية السلوك غير السوي الذي يصدر عن بعض المسلمين[12]، فهناك بعض الجاليات التي توجهت إلى الغرب وبقية بنفس التشدد الذي كانت عليه في بلدانها الأصلية، بالإضافة إلى الصراعات الموجودة بين بعض الفرق الإسلامية التي تم نقلها إلى الخارج، وهذا ما يرسم صورة سيئة لدى الغرب وهذا بطبيعة الحال مصدره الجهل بحقيقة الإسلام، وكذلك فإن من مصلحة الكثيرين من أنصار التوجهات الاستعمارية والصهيونية استغلال السلوك السيئ للمسلمين للنيل منهم ومن دينهم، وإثبات صحة **الصور النمطية** المرتسمة في أذهان الكثيرين من أبناء الغرب عنهم، وبتسليط الضوء على تلك الصور النمطية الماثلة في الذهنية الغربية عن المسلمين، التي تطورت عبر قرون طويلة ظللتها أجواء التصارع والتفاعل المتوتر غير المتوازن بين الجانبين، فإنها تسقط على الشخصية المسلمة كماً هائلاً من الافتراءات والخيالات المريضة، فتصورها بالجشع والنهم والغباء والسفه والمكر واحتقار المرأة والتكالب على الشهوات.

ويجمل أحد المفكرين الأسباب التي تقف خلف جهل الغربيين عموماً، بالإسلام وتبنيهم صوراً نمطية مضللة عنه فيما يلي من أسباب:

1. دور اللوبي اليهودي في تقديم صورة سيئة عن المسلمين، وتصوير (إسرائيل) على أنها دولة ضعيفة يهدد العرب والمسلمون أمنها ووجودها.

2. الاقتصار على الحديث عن الأخلاق اليهودية والمسيحية في المجتمع الغربي، بوصفها الأخلاق العالية المقبولة الجديرة بالإتباع، مع تجنب الإشارة إلى الأخلاق الإسلامية، وتصويرها بشكل سلبي منفر في حال الحديث عنها. بحيث غدت اليهودية والمسيحية في نظر الغرب أنموذجاً للتقدم والحضارة والأخلاق، وأصبح الإسلام تعبيراً عن القوة المتخلفة والخطرة.

3. وسم الإسلام بالإرهاب والتعصب، واحتقار المرأة، والافتقار إلى التسامح مع غير المسلمين، ورفض الديمقراطية، وعبادة إله غريب وانتقامي.

4. تخوف الغربيين من خطر إسلامي متصاعد، وخشيتهم من الحرب الإسلامية . الغربية القادمة، وتغذية الهيئات الصهيونية لتلك المخاوف، حتى لا يتراجع الدعم الغربي للكيان الصهيوني في فلسطين.

5. تركيز وسائل الإعلام الغربية على تصوير الحركات الإسلامية، وبخاصة حركات المقاومة، على أنها حركات إرهابية لا تحترم الديمقراطية وحقوق الإنسان، وعمل تلك الوسائل في بعض الأحيان على فبركة برامج يتم عن طريقها تضخيم دعوات بعض المسلمين إلى محاربة أمريكا و (إسرائيل) والغرب، وإخراج تلك الدعوات عن سياقها الأصلي[13] .

4- الاسلاموفوبيا بين نظريتي المؤامرة ومصدر الخطر:

هناك ميل واضح لدى الغربيين لتعميم صورة سلبية لجميع المسلمين ووضعهم في سلة واحدة، وهناك ميل مماثل لدى البعض في العالم الإسلامي لأتباع ذات السياسة التي تنطلق في الغالب من نفسية مشحونة، أو من تقدير بجدوى وفائدة هذه السياسة في عملية التحريض والتعبئة والحشد ضد الآخر، غير أن الإنصاف يقتضي القول بأن ثمة نزعة غربية طاغية لتعميم بعض الصور السلبية لتشمل جميع المسلمين، ويتم الأمر في غالب الأحيان بصورة مقصودة وغير عفوية، ومع أن هذا التعامل غير المنصف يبرّر من الناحية النظرية ردود فعل واسعة في العالم الإسلامي ومعاملة بالمثل، فإن الانسياق وراء شهوة الانتقام ما يزال محدوداً في العالم الإسلامي، ويكاد يقتصر على مجموعات معزولة، ومن الملاحظ أن " **نظرية المؤامرة** " تسيطر على قراءة كل طرف للآخر، وعلى تفسيره لسياساته ومواقفه[14]، ولكن النظرية تظهر بشكل واضح في السياسات الغربية سواء في المعاملات اليومية أو الخطاب الإعلامي أو السياسي للدول، هذا من جهة.



من جهة أخرى فإن مشكلة الخوف من الإسلام **(الإسلاموفوبيا)**، باتت تترجم تلقائياً إلى سياسات وممارسات عدائية وحروب استباقية يشنّها الغرب ضد العالم الإسلامي بمبرر التصدي للخطر الإسلامي المزعوم قبل وقوعه.

فالإسلاموفوبيا كظاهرة لم تحدث بعفوية في المجتمعات الغربية، فثمة أطراف غربية عديدة تجد أنها مستفيدة من تسويق " **نظرية مصدر الخطر الإسلامي** "، وقد تورط زعماء وسياسيون ومفكرون غربيون منذ نحو عقدين من الزمن في التنظير للبحث عن عدو جديد، وفي الترويج لخطر إسلامي أخضر يهدد الحضارة الغربية بعد سقوط الخطر الشيوعي الأحمر، وقد جاءت "**نظرية صدام الحضارات لصمويل هنتنغتون**" التي بشرت بصدام حتمي قادم بين الحضارة الغربية الأنجلوسكسونية وبين الحضارة الإسلامية، في هذا السياق[15].

الخوف من تهديد الإسلام لأوروبا بات حاضراً بقوة في اهتمام حكومات وأحزاب وقيادات سياسية وفكرية ودينية غربية والمثير في الأمر، أن تصاعد حملات التخويف من الإسلام يأتي في ظل حالة ضعف شديد تنتاب العالم الإسلامي وتجعله في موقع دفاع لا هجوم!.

5- السياقات المنتجة للإسلاموفوبيا:

يمكن تقسيم الفئات المروجة للإسلاموفوبيا إلى مجموعتين:

- مروجو الاسلاموفوبيا. - المساهمون في الاسلاموفوبيا.

1- **المروجون للاسلاموفوبيا:** وهي عبارة عن مجموعة من الأفراد تساهم في نشر الأفكار المعادية للإسلام، وخلق منهجيات جديدة للتخويف من الإسلام والمسلمين، ولاسيما في الغرب، وتنقسم هذه المجموعات إلى:

- جماعة الأصولية العلمانية.
- جماعة الأصولية الصهيونية.
- جماعة الأصولية المسيحية والمعروفة بإسم الحركات الإنجيلية.
- جماعة الأصولية الهندوسية.
- جماعة السلف.

ولكل من هذه المجموعات أجندتها الخاصة ضد الإسلام، وقد قدمت بعض التفاصيل عن هذه المجموعات المروجة للاسلاموفوبيا في **المؤتمر الأول حول الإسلام في أميركا في عام 1997**



تحت عنوان "**الإسلام في أميركا** ": **الطرق الوعرة المقبلة، دراسة استقصائية للأنشطة المعادية للإسلام**[16].

- بالإضافة إلى **المؤسسة الكنيسية (اللاهوت الكنيسي)**، التي سقطت في أول مواجهة عقلية مع الإسلام، لذلك حاولت بشتى الطرق لوضع جدار الحماية ونشر القيم والأفكار المعادية للإسلام.
- **المؤسسة الاستشراقية**: وهي مؤسسة عريقة تساهم الى حد الان في صناعة هذه الصورة النمطية عن الإسلام والمسلمين، كما أنها تساوي بين الشرق كمصطلح جغرافي والشرق الذي يساوي الإسلام.

2- **المساهمون في الإسلاموفوبيا.**

بالإضافة إلى المجموعات الفرعية التي تعمل على ترويج الاسلاموفوبيا، هناك أيضا تصنيف لمجموعتين تساهم في الاسلاموفوبيا وتضر بالمسلمين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، هذه المجموعتين هي **(أ) الطوائف الإسلامية التضليلية**، و (ب) **المسلمين المهمشين**، هذه الفئة ليست مسئولة عن توليد الخوف من الإسلام، كما أنها لا تسعى إلى الترويج للاسلاموفوبيا، إلا أنها تساهم في الخوف من الإسلام إما بشكل سلبي بمعتقداتهم أو أنها تسهم من خلال ممارساتها وسلوكاتها الغير إسلامية.

أ- **الطوائف الإسلامية الزائفة:**

هناك العديد من الطوائف التي تدعي انتمائها للإسلام، إلا أنها لا تمثل المسلين ولا تطبق شعائرهم الدينية إلا من خلال بعض المصطلحات العربية والإسلامية التي يستخدمونها فقط، بالإضافة إلى أشكالهم التي تعطي صورة كاذبة لأتباعهم وغيرهم بأنهم ينتمون إلى الأمة الإسلامية .هذه المجموعات تقف حاجزا في انتشار الإسلام وفي تفسيره في الغرب بسبب شعاراتهم العنصرية والأفكار السلبية عن نظم تعاليم الدين الإسلامي. الحنيف، بالإضافة إلى حصولهم على الموافقة الضمنية بالنشاط في الغرب لأنهم يساهمون في الحد من انتشار الإسلام ويدعمون سياسات التخويف من الإسلام والمسلمين في الغرب، وهناك شائعات بأن العديد من هذه المجموعات تتلقى مساعدة مالية سرية وتوجيه من القوات المعادية للإسلام[17].



ب-**المسلمون في الهامش:**

وهي عبارة عن مجموعات تدعي انتمائها للإسلام، بينما هي تشترك في نفس الصفات التي تحملها الفئات المعادية للإسلام والتي تروج للاسلاموفوبيا، فنجدها تمارس عمليات النفاق يوميا في الغرب سواء في أفعالها أو في أقوالها، وهذا ما يخلق جوا من الاسلاموفوبيا[18].

كما لعبت الميديا والسينما دورا كبيرا في الترويج للاسلاموفوبيا، وساهمت في إعطاء صورة نمطية عن العربي المسلم، وهذا ما اكده جاك شهين وهو أمريكي من أصول لبنانية في كتاب اشتغل فيه قرابة عشرين سنة اسماه كيف " أفسدت هوليوود صورة العربي المسلم "، حيث استقصى فيه نحو 1000 فيلم سينمائي وشريط وثائقي وشريط اطفال تروج للاسلاموفوبيا وترسم نمودجا نمطيا للعربي والمسلم.

كما ان هناك بعض الكتب الغربية التي تحرض على العداء الإسلامي والخوف منه:

- كتاب: **Militant islam reaches america** لكاتبه Daniel pipe
- كتاب: **islam and terrorism** لكاتبه Marka Gabriel
- كتاب: **American Orientalism** لكاتبه Douglas Little
- كتاب: **Islamic Invasion** لكاتبه Robert Mory[19].

ويصنف الباحث خليل العناني*، رؤية الغرب للإسلاميين بعد **11 سبتمبر 2001** إلى خمس مراحل أساسية:

1- **المرحلة الأولى:** وهي مرحلة الرفض، التي تلت وقوع أحداث سبتمبر مباشر.

2- **مرحلة الاستكشاف:** أو الفرز لاستكشاف الفروق الجوهرية بين الأنماط المختلفة للتيارات الإسلامية، ومحاولة التفريق بين الحركات الجهادية التي تتبنى أجندة عدائية وصريحة ضد الغرب، وبين تلك التي تمارس دورا سياسيا واجتماعيا عبر الوسائل السلمية.

3- **مرحلة التأييد أو (التوظيف):** بعد مرور عامين على أحداث سبتمبر 2001، حيث تغيرت مفردات الخطاب الغربي قي موضوع الإسلاميين، الى درجة عدم الممانعة من الوصول إلى الحكم.

4- **مرحلة العودة إلى الرفض:** وهي مرحلة وصول حركة حماس الفلسطينية الى مقاعد المجلس التشريعي الفلسطيني، وبدا أنها ستشكل الحكومة الفلسطينية الجديدة، حيث عاد

الموقف الغربي إلى منطق الرفض " **المبطن** " لمشاركة الإسلاميين في السلطة، بل وانتفى أي حديث عن دعم أجندة الحريات والديمقراطية في الشرق الأوسط.

5- **مرحلة الإقصاء أو (الإفشال):** التي تجاوز فيها الموقف الغربي حد الرفض الى تعمد الإقصاء والإفشال، بدءا بإستراتيجية تجفيف المنابع والحصار المالي والاقتصادي على الحركات الإسلامية سواء في داخل بلدانها أو في الغرب[20].

6- **بعض السيناريوهات المحتملة للعلاقة بين الغرب والإسلام:**

تكاد الاحتمالات المستقبلية لعلاقة الغرب بالعالم العربي والإسلامي تنحصر في السيناريوهات الثلاثة التالية:

1- حصول المزيد من التأزم في العلاقة، واندفاعها نحو الصدام والمواجهة المباشرة، وربما الارتطام الحضاري.

2- تحسن العلاقات وتراجع حدة التأزم.

3- استمرار العلاقة الراهنة بما تنطوي عليه من توتر وكراهية وعداء.

وإذا كان الكثيرون في العالم العربي والإسلامي، وكذلك في العالم الغربي، يرون أن الاحتمالين **الأول والثالث** هما الأوفر حظاً ويستبعدون السيناريو **الثاني**، وذلك بفعل الواقع الراهن المحتقن للعلاقة، وأسباب التوتر الكثيرة المؤثرة في العلاقة، فإن الاحتمالات النظرية لحصول تغير إيجابي في نظرة الغرب للعرب والمسلمين، وفي طريقة تعامله مع العالم الإسلامي، ربما تكون مرهونة بأحد الاحتمالات الثلاثة التالية[21]:

أ- تراجع المؤثرات السلبية في العلاقة بين الطرفين، وتخلّص الغرب من الصور النمطية السلبية التي تشكل وعيه ومدركاته عن العالم الإسلامي.

ب- اقتناع الغرب بأن مصالحه في المنطقة تستدعي إعادة النظر في طبيعة علاقاته مع العالم العربي والإسلامي.

ت- انتقال العالم العربي والإسلامي من حالة الضعف القائمة، إلى حالة قوة تجبر الأخر على التعامل معه بندية على قاعدة التعايش والاحترام المتبادل.

توجهات متوقعة للسياسة الغربية[22]:



في ظل المعطيات والمؤشرات القائمة، يرجح أن تستمر التوجهات الغربية التالية إزاء العالم العربي والإسلامي خلال المرحلة القادمة:

• مواصلة سياسة فرض الهيمنة السياسية والاقتصادية على العالم العربي، واستخدام القوة كلما استدعى الأمر.

• استمرار فزاعة التخويف من الإسلام، واستخدام ذلك ذريعة لشن الحروب، ومواصلة الحملة ضد "**الإرهاب الإسلامي**" المزعوم، كما يتوقع استمرار المشاعر العنصرية ضد الوجود الإسلامي في المجتمعات الغربية.

• إدامة حالة الضعف والتخلف والتبعية في العالم العربي، والحيلولة دون قيام أي نهضة عربية أو إسلامية، ومنع قيام أي تكتلات سياسية أو اقتصادية عربية أو إسلامية، ومن المرجح أن يبقى الضعف العربي والإسلامي مصلحة غربية بامتياز.

• الحفاظ على وجود **(إسرائيل)** قوية وآمنة ومتفوقة في المنطقة، سيبقى هدفاً غربياً استراتيجياً، كما سيبقى النفط والوصول إلى مصادر الطاقة، مصلحة غربية ذات أولوية، بل ربما تتزايد أهميتها في ظل ارتفاع الأسعار وتزايد الطلب العالمي.

• لن يكون الغرب معنياً بنشر الإصلاح والديمقراطية في المنطقة، ويرجح أن يواصل سياسة التحالف مع حكومات الاستبداد في العالم العربي، ما دامت تخضع لتوجهاته، وتستقوي به في مواجهة الداخل.

• محاربة وصول أي حركات أو قوى ذات توجه إسلامي إلى السلطة سيبقى خطاً ثابتاً في السياسة الغربية، ما دامت هذه الحركات تعارض سياسة الهيمنة الغربية، وتصرّ على استقلالية القرار وعلى علاقات ندية مع الغرب، وما استمرت في اتخاذ موقف سلبي إزاء (إسرائيل). ويتوقع أن تستمر سياسة التعميم ووضع كافة الحركات الإسلامية في سلة واحدة، وتصنيفها كحركات إرهابية.

خاتمــة:

إن العلاقة بين الغرب والعالم العربي والإسلامي قامت على أساس الصراع والمواجهة، وما ظاهرة **الاسلاموفوبيا** إلا جزء من هذا الصراع، فحاول الغرب خلق صور نمطية جسدتها بعض الأطراف التي دعمت الظاهرة وغذت المصطلح بأشكال مختلفة، سواء من الداخل أو من الخارج، غير أن الخروج من تلك البوتقة التي رسمها الغرب عن الإسلام والعرب، يتم عن طريق وضع إستراتيجية تستوجب العمل على تحديد معالم المنظومة المرجعية المتماسكة والموحدة التي ستنتظم سبل التعامل مع تللك الظاهرة، وتضمن الانطلاق في ذلك من صف متضامن موحد، إذ أن من المستبعد أن يتمكن العالم الإسلامي من مجابهة وعلاج ظاهرة خوف الآخر من الإسلام، في حين ما يزال هو نفسه يختبر الظاهرة نفسها في ربوعه!.

وعلى الرغم من إقرارنا بصعوبة الاتفاق على مثل تلك المرجعية المتوخاة، إلا أننا نزعم أن الخطوة الأولى إلى ذلك تتمثل في وجوب الإقرار الفعلي من جانب المجتمعات الإسلامية بأن الإسلام، بثوابته وأصوله العامة، هو الإطار العريض الذي يحتضن تلك المرجعية ويحتوي قواعدها، إذ يغدو انتساب تلك المجتمعات التي تشوه صورة الإسلام وترسم صورة قاتمة عن المسلمين واعتبارها **(مجتمعات إسلامية)** محض لغو لا طائل منه، ما لم يشكل الإسلام بالفعل الأرضية التي تنطلق منها في تعريف نفسها وتحديد هويتها الحضارية، مقارنة بالهويات الحضارية الأخرى.

بالإضافة إلى عدم الخلط بين الإسلام من ناحية، والأصولية التي تروج لها هذه الجماعات من ناحية أخرى، لاسيما أن الأصولية المتطرفة هي داء يصيب كل الديانات والمذاهب والإيديولوجيات، وصفحات التاريخ الإنساني تحف من بدء الخليقة وحتى اليوم بأحداث عنف تقوم بها هذه الفئات المتطرفة.

الهوامش:

1-للمزيد من الإطلاع أنظر مقالة حول: **الإسلاموفوبيا وإشكاليات التهميش والاندماج**
http://www.allikaa.net/?id=282

2-للإطلاع أكثر، حوار مع الدكتور باسم خفاجي، مدير المركز الدولي لدراسات أمريكا والغرب، في قناة الجزيرة الفضائية.



3-أنظر لبعض الكلمات المتعلقة „كراهية مجموعات من الناس ذات صلة فيما بينها“ ومصطلح „Islamophobie“ لدى Institut für interdisziplinäre Konflikt- und Gewaltforschung

4-صامويل بي. هانتينغتون، **الاسلام والغرب-أفاق** الصدام- ، ترجمة مهدي شرشر، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط1، 1995، ص26.

5-د. محمد احمد النابلسي، **الإسلاموفوبيا كمظهر لجنون العظمة الغربي**، المركز العربي للدراسات المستقبلية.

6-لمزيد من الاطلاع انظر الحوار الذي آجرته قناة الحوار في حصة حوار مفتوح بعنوان: **الإسلاموفوبيا الجذور والإسقاطات**، مع الدكتور صديق بشير نصر، رئيس مركز العالم الإسلامي لدراسة الإستشراق.

7-محمد احمد النابلسي، المرجع السابق.

8- عاطف الحوراني، **الأطروحات الغربية والإسلامية في توصيف علاقة الغرب بالإسلام**، الأردن: ورقة مقدمة في مؤتمر رؤية استرتيجية لواقع الأمة، 2008

9-The Runnymede Trust Report: **Islamophobia a challenge for us all.** 1996.

10- محمد فاضل رضوان، الاسلاموفوبيا قلق المفهوم وجدل الرؤى،

HTTP://WWW.ALJABRIABED.NET/N76_01FADIYI.%282%29.HTM

11-الإسلاموفوبيا وإشكاليات التهميش والاندماج،

HTTP://WWW.ALLIKAA.NET/?ID=282

12-نظرة الغربيين للإسلام: جانب من الدراسات الغربية التي تناولت الإسلام"، مقالة منشورة في الموقع الإلكتروني (بلاغ) على الرابط التالي:

http://www.balagh.com/mosoa/garb/uq0xm36j.htm

13-فندلي، بول، **لا سكوت بعد اليوم**، بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2001.

14-عاطف الجولاني، المرجع السابق.

15- نفس المرجع.

16- M. Amir Ali, PhD **ISLAMOPHOBIA IN AMERICA** held at Indianapolis University, Indiana, July 4-6, 1997.p1

17- ibid. P3

18- 6ibid. P

19- صديق بشير نصر، المرجع السابق.

-*باحث مصري متخصص في الشؤون الإسلامية .

20- نذير مصمودي، **بعد الرصاص الإسلاميون والأسئلة الساخنة**، الجزائر: الشروق للإعلام والنشر، ط 1، 2010، ص ص 45-46.

21-عاطف الجولاني، المرجع السابق، ص 15.

22- نفس المرجع، ص 16.



وضعية غير المسلم في منظومة الحقوق المواطنية بالبلدان الإسلامية -دراسة حالة العراق-

الأستاذة: كرارشة فاطمة الزهراء الدكتور: زدام يوسف

جامعة باتنة – 1 - الجزائر

مقدمة:

تحددت وضعية غير المسلم في المجتمع الإسلامي الأول في قوله صلى الله عليه وسلم: "لهم ما لنا وعليهم ماعلينا" تصريحا بتساوٍ في الحقوق والواجبات بين الأكثرية المسلمة والأقليات غير المسلمة، ببناء مجتمع تعددي/تآلفي بين المؤمنين وأهل الذمة (تقتصر هذه الورقة البحثية على وضعية غير المسلم الذمي في المجتمع الإسلامي دون غيره من المعاهدين أو المستأمنين) كطرفين للمجتمع ناظم العلاقة بينهما حقوق وواجبات متبادلة مكفولة ومصانة بحدود الشرع وأحكامه، حيث لا ضيم فيها بداعي الانتماء الديني.

لا خلاف بأن أغلب الدول الإسلامية والعربية منها خاصة تتكون بنيتها المجتمعية من تنويعة انتماءات دينية، عرقية، مذهبية ولغوية تصنف نسبة لحجمها، نسبتها العددية وقوتها التأثيرية إلى أكثرية وأقلية أو أقليات مايطرح بشكل حاد مسألة التعامل/التفاعل مع هذه الشبكة المجتمعية متعددة الانتماءات الدينية –على سبيل الحصر تماشيا وموضوع الورقة البحثية– فيما بينها من جهة وفيما بينها وبين الدولة من جهة أخرى، وحتمية وضع أطر دستورية وقانونية تستوعب الكل (المتعدد) تحت مظلة المواطنة وما تفترضه فلسفتها من إيجاد منظومة حقوق وواجبات ضابطة وناظمة للعلاقة بين المواطن والوطن بعيدا عن كل أشكال التمييز تحت أي داعٍ (ديني، عرقي، لغوي...).

تماشيا وطبيعة الموضوع وسعيا للتعمق بدراسة وضعية غير المسلم بالدول الإسلامية وفق مقتضيات الحقوق المواطنية تمت الاستعانة بحالة العراق كبلد إسلامي عربي متعدد الأطياف الدينية كما العرقية واللغوية وسند الدراسة كان فحص الدساتير العراقية من 1925 إلى 2005 – استثنت الدراسة قانون إدارة الدولة المؤقت لعام 2004 قناعة بأنه لا يرقى ليكون دستورا وطنيا نظرا لظروف وأطراف إصداره، على أن الكثير من الدراسات تعتمده كواحدا من الدساتير العراقية– وتعاملها وثنائية الإقرار/الإنكار لحقوق –سيما السياسية منها– الأقليات الدينية وما لذلك من انعكاس على تفعيل/تعطيل المواطنة.



إن واقع التعدد الديني بالمجتمعات الإسلامية ونهج تسييره وما يتوافق والحقوق المواطنية في ظل واقع يكون الجزء المختلف عن الكل دينيا –وغير ديني أيضا– رصيدا مسحوبا من الوحدة الوطنية وتثبيطا لكل مساعي المواطنية وفق الفلسفة الديمقراطية، يفرض طرح الإشكالية التالية:

ماهي وضعية غير المسلم –المواطن– في منظومة الحقوق المواطنية في المجتمعات الإسلامية–دراسة حالة العراق–؟

تتم مناقشة الإشكالية من خلال المحاور التالية:

- غير المسلم بدولة الإسلام الأولى: إقرار فحقوق وواجبات.
- المواطنة: المفهوم ومستلزمات التفعيل.
- حقوق غير المسلم في الدساتير العراقية: قراءة في تمظهرات المواطنة.

المحور الأول: غير المسلم بدولة الإسلام الأولى: إقرار فحقوق وواجبات

لقد فرض التعدد الديني نفسه على المسلمين، في السياق الذي عرفته الجزيرة العربية في القرن السابع من خلال الوجود اليهودي والمسيحي بالمنطقة. وبعد الاستقرار في المدينة المنورة كان على الرسول (عليه الصلاة والسلام) –كقائد–في إطار التأسيس لمجتمع إسلامي إنشاء لحمة بين المسلمين من جهة وبينهم وبين غيرهم من أتباع الديانات والعقائد الأخرى ببسط نظام حكم –يدعو للإسلام ويتقبل الأخر أي كانت ديانته وعقيدته–، يكون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هو الضامن فيه والحكم.[1]

ما يعني أن النسيج المجتمعي في المدينة المنورة –في شقه الديني والعقائدي– كان يتألف من مكونين أساسيين، هما: المسلمون (أنصار ومهاجرين)، غير مسلمين (يهود، نصارى، وغيرهم) الذين أصطلح على تسميتهم بأهل الذمة.

تفسر الذمة بالعهد والأمان، والضمان، فالذمة هي العهد –الكفالة–، الذي يوقع بين المسلمين والذمي لإبداء الولاء منه نظير تلقيه الحماية من المسلمين، مقابل دفع الجزية.[2]

أطلق مصطلح أهل الذمة على المعاهدين من النصارى واليهود وغيرهم ممن يقيم في دار الإسلام إذ أُعتبر المجوس أهل ذمة وأخذت منهم الجزية وأعتبر الصابئة والسامرة✸ أيضا أهل ذمة بشرط أن يوافقوا اليهود والنصارى في أصل عقيدتهم، وبهذا فإن الذمي هو الذي أُعطى الذمة أي الأمان على الأموال والأعراض والدماء بموجب عقد الذمة.[3] ✸



انطلاقا من عالمية الإسلام تم الإقرار والتصريح بقبول غير المسلم (الذمي) بالمجتمع الإسلامي بكل ما يستوجبه هذا الإقرار والقبول الصريح من حقوق وضمانات للعيش الكريم الآمن(4)

لم ينتهي أمر تقبل الأخر (غير المسلم) بمجرد الإقرار بوجوده بل حدد الإسلام منهجا قويما –من خلال عقد الذمة– لضبط العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أهل الديانات والعقائد الأخرى في المجتمع الإسلامي وسار المسلمون قروناً طويلة يقرون بهذه الحقيقة وبالتطبيق العملي مجسدين بذلك إمكانية التعايش الديني(5)

صان الإسلام حقوق الآخر –المعتنق غير الإسلام دينا– ودافع عنها، وأقر بمبدأ التعددية الدينية وأحاطه بجملة ضوابط ناظمة له تجسيدا لقوله تعالى: "لكم دينكم ولي ديني"(6)، وفرض جملة ضوابط تحت خانة الواجبات الواجب الالتزام بها استيفاء لشروط نيل الحقوق.

حقوق غير المسلمين في الإسلام: يمكن إجمالها في التالي:(7)

- **حق العقيدة والتدين:** فللذمي أن يزاول شعائر دينه دون أن يتعرض في ذلك لمنع أو أذى وهي حرية أقرها القرآن، في قوله تعالى: "لا إكراه في الدين"(8)
- **حق الإختلاط بالمسلمين:** من حقهم الاختلاط بالمسلمين في السكنى والبيع والشراء معهم وغير ذلك من المعاملات، فضلا عن حسن العشرة كعيادة مرضاهم شهود جنائزهم وحتى إنشاء علاقات مصاهرة معهم، فقد مات محمد (صلى الله عليه وسلم) ودرعه مرهونة عند يهودي.
- **حرمة دمائهم وأبدانهم:** والمقصود بذلك عدم التعرض لهم بأي أذى مادي (كالجروح، التعذيب ...) أو معنوي (كالإهانة....).
- **حق الحماية:** فللذمي حق الحماية في دار الإسلام، حماية ماله وعرضه وكفالة الأمن والأمان له.

إن ضمانة وكفل حقوق غير المسلمين (الذميين) في الدولة الإسلامية (عهد الرسول عليه الصلاة والسلام والخلافة الراشدة) تشكل قاعدة رصينة لصيانة وضمان حقوق الأقليات الدينية كما يصطلح عليها في الأدبيات السياسية المعاصرة.

واجبات غير المسلمين في الإسلام: يجمع أغلب الفقهاء على إجمالها في التالي:(9)

- **أداء الواجبات المالية:** التي تشتمل على الآتي:



دفع الجزية: هي مقدار زهيد من المال يفرض على الرجال البالغين القادرين، كل حسب استطاعته المالية.[10] تجب الإشارة في هذا المقام أن الجزية لا تعتبر إتاوة أو عقوبة في حق الذمي لبقائه على دينه بل هي كنفقة تعوض فرض الجهاد على المسلم، وكانت تسقط في حال اشتراك الذمي مع المسلم في الجهاد، كما تسقط في حال عوز الذمي وثبوت فقره، أو عجز المسلمين عن حمايته[11]ويقابلها عند المسلم الزكاة[12]كمقابلين ماديين يتعينان على رعايا دار الإسلام. هذا وتتدرج تحت الواجبات المالية لغير المسلم الخراج والعشور أيضا.

- **احترام شعور المسلمين وهيبة الدولة الإسلامية**، حيث يحظر على غير المسلم المساس بالإسلام وأحكامه وثوابته، حظرا قد يفضي لنقض عقد الذمة، فضلا عن مستحب عدم مجاهرتهم بطقوس عبادتهم (بما لا يعني بأي حال من الأحوال التضييق عليهم أو سلبهم حق بقائهم على دينهم أو عقيدتهم) وما يترتب عليها من أمور مباحة قد تثير حفيظة المسلمين كشرب الخمر مثلا في الأماكن العامة.

هذا وقد حظي أهل الذمة بعناية الرسول الكريم (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) والخلفاء الراشدون من بعده، (عناية تجعل من القائد أسوة لغيره من الرعية) ولا أدل على ذلك ما جاء في كتاب الخراج لـ (يحي بن آدم) أنه حين دنا أجل الخليفة (عمر بن الخطاب) أوصى وهو على فراش الموت بقوله: "أُوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً، وأن يوفي لهم بعهدهم، وأن يُقاتل من ورائهم، وأن لا يكلفهم فوق طاقتهم".[13]

إذن استندت وضعية غير المسلم في الإسلام من أهل الذمة منذ العصر الإسلامي الأول إلى قاعدة أصيلة لم يثر حولها نقاش كونها مبدأ مشروع، مفاد هذه القاعدة: "لهم ما لنا وعليهم ما علينا"[14] بترجمة تعني خلق نسيج مجتمعي ضامن لحقوق الأقليات الدينية مراع لمبدأ المساواة والعدالة في التعامل.

المحور الثاني: المواطنة: المفهوم ومستلزمات التفعيل.

تزامن بروز مصطلح "المواطنة" مع ظهور الدولة القومية الحديثة، أين بدأ السعي من قبل كل الدول على تحديد ملامح وشروط المواطنة خاصتها وفق منظومتي حقوق وواجبات تستوعب مكوناتها المجتمعية متنوعة الانتماءات بدون استثناء ولا تمييز، وفق تصور كل دولة لنمط العلاقة بين الفرد والدولة.



مفهوم المواطنة ظهر بداية كرديف تلازمي للانتماء للمكان–بنشوء رابطة وجدانية بين المكان وقاطنه–

ثم أضيف بُعد الجماعة إلى بُعد المكان –في بداية انتظام الفرد في جماعات–، ليصبح الانتماء موجها للمكان والجماعة معا، وحينما تطورت الجماعة وكبرت فقدت خاصية تجانسها وانحسرت المواطنة على فئة دون الأخرى، تطور الأمر إلى مرحلة جديدة، لعب فيها الدين والكنيسة مرجعية للمواطنة المرتبطة بالدولة القومية معبرة عن الأمة وما شكلته من مرجعية للدولة والمواطن.(15)

المواطنة مصطلح تتدرج ضمنه العديد من المعاني والدلالات لكن الأصل فيها لغويا يُسند إلى الوطن–بمعنى محل الإقامة– لتتعدد التعاريف الاصطلاحية للمواطنة بتعدد زوايا النظر إليها.

تشير دائرة المعارف البريطانية إلى أن المواطنة هي: "علاقة فرد ودولة كما يحددها قانون تلك الدولة متضمنة قدرا من الحرية وما يصاحبها من مسؤوليات، وتُسبغه حقوقا سياسية مثل حقوق الانتخاب وتولي المناصب العامة"(16)

عرفت موسوعة كولير الأمريكية« Collier's Encyclopedia » المواطنة بأنها: "أكثر أشكال العضوية في جماعة سياسية ما اكتمالا"(17)

عرف قاموس علم الاجتماع المواطنة بأنها: "مكانة أو علاقة اجتماعية تقوم بين فرد طبيعي ومجتمع سياسي –دولة– ومن خلال هذه العلاقة يقدم الطرف الأول (المواطن) الولاء، ويتولى الطرف الثاني الحماية

تتحدد هذه العلاقة بين الفرد والدولة عن طريق أنظمة الحكم القائمة"(18)

مبدأ المواطنة يعني التزاما سياسيا ويتجلى في التوافق المجتمعي على عقد اجتماعي يتم بمقتضاه اعتبار المواطنة مصدرا للحقوق ومناطا للواجبات بالنسبة لكل من يحمل جنسية الدولة دون تمييز ديني أو عرقي، ومن ثم تجسيد هذا التوافق في الدستور(19)

من خلال ما تقدم يتضح أن المواطنة ليست وضعية جاهزة يمكن تجليها آليا حين الرغبة في ذلك، بل هي ممارسة في ظل مجموعة من المبادئ والقواعد وفي إطار مؤسسات وآليات تكفل الترجمة الإيجابية لمفهوم المواطنة على أرض الواقع، –فضلا عن كونها تحتفظ بقدر من



الخصوصية وفق فلسفة حكم كل دولة-. وهذا يستلزم توافر حد أدنى من مقومات وشروط تفعيل المواطنة، وفيمايلي أهم هذه الشروط والمقومات[1]

- تفعل المواطنة وتتجسد بتوافر قيم التسامح وتقبل الأخر، ذلك أنها ترمي إلى التأسيس لمجتمع يتحلى بالتسامح حيال التنوع الذي يزخر به المجتمع دينا، لغويا، عرقيا.
- لتتجسد المواطنة على أرض الواقع على القانون أن يكفل ضمانة معاملة كل من استوفى شروط العضوية بالمجتمع على قدم المساواة بعيدا عن كل أشكال التمييز بين الأفراد والجماعات بغض نظر عن الانتماء الديني، العرقي، الوضع الاجتماعي والاقتصادي...فضلا عن ضرورة إيجاد كل السبل القانونية الضامنة لحق كل من استوفى شروط المواطنة في المساهمة في اتخاذ القرارات المصيرية

أي أن تفعيل وضمان التمظهر الإيجابي للمواطنة يحتاج لوعاء مجتمعي حاوِ ومستوعب للأخر من خلال غرس وتنمية قيم مجتمعية تتقبل الأخر وتتفاعل معه بإيجابية عبر عدد من الوسائل والوسائط كالمجتمع المدني، المناهج التعليمية والمقررات المدرسية، الأفلام السينمائية والمواد الإعلامية.... ، فضلا عن حتمية وجود ضمانات قانونية تعزز مكتسبات المواطنية وتفعلها على قدم المساواة دون أدنى تمييز أو إقصاء لأي من المكونات المجتمعية.

هذا وترتكز المواطنة إلى جملة من المبادئ التي تسهم في تفعيلها وايجابية تجليها الواقعي، وفيما يلي تلخيص لها:[21]

- **الإحساس بالهوية:** يعد الإحساس بالهوية أول مبادئ المواطنة، التي قد تتعدد بتعدد الثقافات داخل الدول والمجتمعات، وتعدد الثقافات يؤدي إلى وجود هويات متعددة متداخلة، يمكن أن تكون عرقية ثقافية، دينية، مثل الهند التي تتعدد فيها الثقافات والهويات، إلا أن الشعور بالهوية القومية وحب الوطن يؤخذ كمحتوى أساسي للمواطنة، أي أن الشعور بالانتماء للوطن أو الدولة يولد الإحساس بالهوية ويبرز ذلك من خلال سلوكيات الأفراد داخل المجتمع، والإحساس بالهوية الوطنة بشكل عام يتضمن ويشتمل على الهويات المتعددة الأخرى.

الأمر الذي يعني أن الانتماءات الفرعية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تقوض من فرص الولاء العام للدولة وهويتها الجامعة إذا ما استوعب أمر التعدد وسير بمنطقية.



- **التمتع بحقوق معينة:** يشير المبدأ إلى تمتع المواطن بالمنافع والحقوق التي تؤهله إليها، وتمنحه إياها عضويته في جماعة أو مجتمع ما فالدولة تعمل على توفير الشروط القانونية والمادية والحقوق الفردية التي تمكن المؤسسات والأفراد من ممارستها كدالة على الانتماء إلى المجتمع ويمكن تصنيف الحقوق إلى ثلاثة فئات وهي **أولاً: حقوق قانونية:** مثل (الحرية أو الحماية والحق في اللجوء للقضاء ...) **ثانياً: حقوق سياسية** وتتكون مبدئياً من حق الاقتراع والتنافس على منصب عام والمشاركة في الشئون العامة أي حق التصويت والترشح.، **ثالثا حقوق المدنية (اقتصادية وإجتماعية):** كحق التملك والعيش الكريم والتعليم...الخ.
- **المسئوليات والالتزامات** :مثلما تمنح المواطنة المواطن حقوقاً، تفرض عليه مسئوليات والتزامات

وواجبات، هذه المسئوليات أو الواجبات الإلزامية على المواطن تتفاوت تبعا لفلسفة كل دولة، وتتنوع الواجبات بتنوع الثقافات والدساتير ومنها واجبات أخلاقية، وقانونية، وسياسية، واجتماعية، وعائلية وعقائدية.

المحور الثالث: حقوق غير المسلم في الدساتير العراقية: قراءة في تمظهرات المواطنة.

سندرس في هذا المحور أهم انعكاسات التمتع بالمواطنة(وهي الحقوق السياسية)للأقليات غير المسلمة بالمجتمعات العربية ذات الأغلبية المسلمة بدراسة حالة العراق كمجتمع تتشكل بنيته الاجتماعية من توليفة متنوعة الانتماءات عرقيا، عقائديا/دينيا من خلال دراسة وتتبع مسار منح(الإقرار)/منع(الإنكار) الحقوق السياسية للأقليات غير المسلمة ومدى تواؤمية هذه الحقوق الممنوحة مع الشروط الحاسمة للتفعيل الإيجابي للمواطنية وتجلياتها الفعلية، باستقراء الدستور العراقي من 1925 إلى 2005 من خلال مايلي:

1. **دستور (1925) القانون الأساسي:** لقد تناول هذا القانون الحقوق السياسية في العديد من نصوصه فضلا عن النصوص القانونية المنبثقة عنه[22] حيث جاء في المادة السادسة (06) منه، "لا فرق بين العراقيين في الحقوق أمام القانون، وان اختلفوا في القومية، والدين، واللغة"[23].



بما يدل على تأكيد المشرع على مبدأ المساواة بين العراقيين وتجاوز كل أشكال التمييز الديني أو العرقي، وهذا ما رسخته المادة السابعة والثلاثين (37) التي تجلى من خلال نصها حرص المشرع العراقي على حقوق الأقليات الدينية غير المسلمة في التمثيل النيابي كما يلي:" يكون انتخاب النواب بقانون تعيّن فيه كيفية ترشيح النواب والتصويت السري في انتخابهم، ووجوب تمثيل الأقليات المسيحية والموسوية"[24]

يعتبر دستور 1925 رائدا في كونه أول تجربة دستورية عراقية (عهد الملكية) وقد أولى الأقليات الدينية اهتماما ملفتا وصريحا بنصوص قانونية ناظمة وضابطة.

2. **الدستور المؤقت (1958)**: بعد قيام ثورة 1958 أعلن عن سقوط القانون الأساسي العراقي لسنة 1925 وتعديلاته كافة، وتطبيق الدستور المؤقت لعام1958رغبة في تثبيت قواعد الحكم وتنظيم الحقوق والواجبات لجميع المواطنين، كان الهدف من إصدار هذا الدستور ضمانة لاستمرارية الحياة السياسية ذلك أن سمته الغالبة أنه مؤقت.

لم تكن ملامح هذا الدستور واضحة حيال معالجة حقوق الأقليات الدينية، ذلك أن مواده الثلاثون (30) لم تكن كافية لتنظيم الحياة السياسية، الثابت من خلال هذا الدستور تعامله المبهم مع الأقليات سواء أكانت دينية أو عرقية، فمن خلال المادة التاسعة (09) منه ورد أن: " المواطنون سواسية أمام القانون في الحقوق والواجبات العامة ولا يجوز التمييز بين هم في ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو للغة أو الدين أو العقيدة"[25] تأكيدا وتجسيدا لمبدأ المساواة الوارد في دستور 1925.

كما نصت المادة الثانية عشر (12) على: " حرية الأديان مصونة وينظم القانون أداء وظيفتها على أن لا تكون مخلة بالنظام العام ولا متنافية مع الآداب العامة"[26]

الواضح من نصوص الدستور العراقي المؤقت لسنة 1958 عدم تعرضه جملة وتفصيلا للمكونات الطائفية العراقية، واقتصاره على مبدأ الوحدة العام. قد يعزى الأمر وفق عدد من المحللين إلى الأوضاع السياسية المرتبكة حينها –الفترة الانتقالية ما تسبب فيها وما تجلى عنها).

3. **دستور 1963**: جاءت المادة التاسعة عشر (19) منه للتأكيد مجددا على مبدأ المساواة بين كل العراقيين، كالآتي: "العراقيون أمام القانون سواء وهم متساوون في الحقوق والواجبات العامة لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الجنس أو الأصل، أو اللغة أو الدين ويتعاون المواطنون كافة



في الحفاظ على كيان هذا الوطن بما فيهم العرب والأكراد، ويقر هذا الدستور حقوقهم القومية ضمن الوحدة العراقية" [27]

الملاحظ من خلال نص هذه المادة غياب التفاصيل المُترجمة للحقوق السياسية للأقليات(الدينية أو العرقية)، بل اختزالها بمكونين أساسيين –حسب نص المادة– المكون العربي والكردي فقط دون أدنى إشارة إلى خصوصية ممارسة الطقوس الشعائرية للأقليات الدينية[28] . فكأن المشرع العراقي هنا أقر بالتعدد بمنطق الاختزال والتهميش.

وإن كان دستور (1963) أقر بمبدأ تكافؤ الفرص بين كل العراقيين، حيث نصت المادة السادسة (06) منه على: (تضمن الدولة تكافؤ الفرص لجميع العراقيين)[29] لكن كان لهذا المبدأ أن يُفعل أكثر لو تعرض بالذكر، التصريح والإقرار بمكونات الشعب العراقي ومن أهمها الأقليات الدينية.

4. **الدستور المؤقت (1964):** لم يأتي هذا الدستور بجديد يذكر ولم يختلف عن سابقه بشيء، بل الأكثر من ذلك فقد جاءت مواده بنفس ترقيم ومضمون دستور 1963، فقد أقر في المادة (19) على مبدأ التساوي والمساواة بنفس مضمون نص المادة (19) من دستور 1963، وأعاد نص المادة (06) من ذات الدستور حينما أقر مبدأ تكافؤ الفرص[30].

5. **دستور 1968 المؤقت** : لم يرد بهذا الدستور أي حقوق سياسية للأقليات الدينية أو العرقية العراقية بل اختزلها إلى قوميتين اثنتين هما (العربية والكردية) وأنكر باقي طوائف الشعب العراقي في معرض تنصيص مبدأ التساوي من خلال المادة الحادية والعشرين (21) التي جاءت كما يلي: " العراقيون متساوون في الحقوق والواجبات أمام القانون لا تمييز بينهم بسبب الجنس أو العرق أو اللغة أو الدين ويتعاونون في الحفاظ على كيان الوطن بما فيهم العرب والأكراد ويقر هذا الدستور حقوقهم القومية ضمن الوحدة العراقية"[31]

في إشارة واضحة لرغبة المشرع العراقي في إقصاء باقي المكونات الهوياتية للشعب العراقي التي اختزلها بمكونين فقط، ولا يمكن بأي حال تبرير الأمر بذريعة الوحدة الوطنية ذلك أن المادة كانت صريحة بالتعبير عن الهوية العراقية بمكونين على سبيل الحصر.

6. **دستور (1970):** رغم أن الدستور المؤقت لسنة 1968 كان قد وعد العراقيين بدستور دائم إلا أن تظافر جملة من الظروف السياسية حالت دون الأمر إلى غاية سنة 1970 أين بدأت



أحوال العراق تميل أكثر نحو الاستقرار، ليتم إصدار الدستور المؤقت لسنة 1970 الذي نص في المادة الأولى (01) منه على:[32]

(العراق جمهورية ديمقراطية ذات سيادة، هدفه الأساسي تحقيق الدولة العربية الواحدة، وإقامة النظام الاشتراكي).

أما المادة الخامسة (05) منه فنصت على التالي:[33]

- العراق جزء من الأمة العربية.
- يتكون الشعب العراقي من قوميتين رئيستين، هما القومية العربية والقومية الكردية ويقر هذا الدستور حقوق الشعب الكردي القومية والحقوق المشروعة للأقليات كافة ضمن الوحدة العراقية.

لتكون العلامة الفارقة في هذا الدستور إشارته لباقي الأقليات[34](وإن كان دون أي تفصيل لها) إضافة إلى ثباته –على غرار الدساتير التي سبقته– على اعتبار القوميتين العربية والكردية قوميتين رئيستين تتحدد الملامح الهوياتية للعراق من خلالهما.

7. **دستور العراق الدائم (1990):** أعتبر هذا الدستور وفق عدد كبير من الفقهاء والدارسين، والمهتمين بشؤون الأقليات الدينية وحتى العرقية أكثر الدساتير العراقية ضيما ومصادرة لحقوق الأقليات الدينية، حيث نصت المادة الثامنة والخمسون (58) منه على التالي: "يُحضر تأسيس الأحزاب السياسية والجمعيات والنوادي التي تقوم على أساس زج الدين في السياسة أو الطائفية ... التي ترمي إلى عزل العراق عن الأمة العربية"[35]

8. **دستور العراق (2005):** جاء هذا الدستور –النافذ حاليا– بشكل أكثر حرصا ومراعاة لحقوق الأقليات غير المسلمة، ففي المادة الرابعة عشر (14) منه أكد على مبدأ التساوي–على غرار بقية الدساتير– حيث اعتبر "العراقيون متساوون أمام القانون دون تمييز بسبب الجنس أو العرق أو القومية أو الأصل أو اللون أو الدين أو المذهب أو المعتقد أو الرأي أو الوضع الاقتصادي أو الاجتماعي"[36] كما أعاد دستور (2005) على تأكيد مبدأ تكافؤ الفرص في المادة السادسة عشر (16) منه حيث جاء النص بالتالي: " تكافؤ الفرص حق مكفول لجميع العراقيين ، وتكفل الدولة اتخاذ الإجراءات اللازمة لتحقيق ذلك"[37]



ومن بين أهم شروط تفعيل هذا المبدأ إسناد الوظائف العامة–المقصود هنا وظائف صنع القرار–إلى أتباع الأقليات سواء أكانت دينية أو عرقية. والواقع السياسي يؤكد ذلك فبعد عام 2003 تعاقب عدد من أتباع الأقليات على مناصب وزارية مختلفة(38)

هذا وساهم قانون انتخابات أعضاء مجلس النواب العراقي–النافذ– في تعزيز حق الأقليات الدينية في ممارسة حقوقهم السياسية بنص المادة الحادية عشر (11) كمايلي:(39)

أولا– يتكون مجلس النواب من ثلاثمائة وثمانية وعشرون (328) مقعدا تخصص ثماني (08) مقاعد منها وفق نظم المحاصصة (الكوتا) على المكونات المجتمعية.

ثانيا– تمنح المكونات التالية حصة (كوتا) تحتسب من المقاعد المخصصة وفق التقسيم التالي:

1. المكون المسيحي: خمسة (05) مقاعد توزع على محافظات (بغداد، نينوي، كركوك، دهوك، أربيل).
2. المكون الأيزيدي: مقعد واحد (01) في محافظة نينوي.
3. المكون الصابئي المندائي: مقعد واحد (01) في محافظة بغداد.
4. المكون الشبكي: مقعد واحد (01) في محافظة نينوي.

كان هذا عرضا موجزا لأهم انعكاسات التمتع بالمواطنة للأقليات الدينية غير المسلمة بالعراق من خلال قراءة لثنائية إقرار/إنكار الدستور العراقي (من 1925 إلى 2005) الحقوق السياسية المنبثقة على وجه الإلزام للتمتع بالمواطنية، لنجد أن دستوري 1925 و 2005 كانا أكثر الدساتير إقرارا للحقوق السياسية للأقليات الدينية.

ليبقى أن التفعيل الإيجابي للمواطنة وقياس تجلياتها الفعلية على أرض الواقع يتجاوز بكثير النصوص القانونية المقرة بالتعددية والمجسدة لمنطق الانصهار ببوتقة الوحدة المختزلة لحقوق الأخر غير المسلم، فكثير من التقارير الصادرة عن هيئات دولية تُعنى بحقوق الإنسان والأقليات تبرز مدى الضيم الواقع على الأقليات الدينية بالعراق منذ 2003 نظير أشكال العنف المسلط عليهم في الأرواح وأماكن العبادة، وصلت للإقصاء الاجتماعي في حين أن النصوص القانونية تثبت بما تتضمنه من مواد أن العراق منذ 2003 دخل مرحلة جديدة سمتها احتضان الأقليات عرقية ودينية



والعمل على التمكين لها بما يخدم مصالح الانتماءات الجزئية بما من شأنه أن يزيد من فرص الولاء العام للدولة العراقية.

الخاتمة:

استنادا إلى ما تم التطرق إليه في هذه الورقة البحثية من نقاش ومحاولة الوقوف على الوضعية الحقوقية لغير المسلم بالبلدان الإسلامية-بداية من عصر الإسلام الأول وصولا لعصرنا الحالي-، نصل إلى مايلي:

- أثبت النظام الإسلامي الأول في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين من بعده حقيقة التعايش الديني بين المسلم وغير المسلم من أصحاب الديانات والعقائد الأخرى.
- تتكون البنية المجتمعية لأغلب البلدان الإسلامية والعربية منها على وجه الخصوص من تنويعة انتماءات دينية، عرقية، مذهبية ولغوية تصنف إلى أكثرية وأقلية أو أقليات نسبة لحجمها ونسبتها العددية وقوتها التأثيرية.
- يجب ان تنتقل المجتمعات الإسلامية من مرحلة إثبات وإقرار التنوع إلى سبل التسيير والتعامل معه.
- إن الإقرار بالتنوع الديني يستلزم إيجاد صيغ توحيدية عن طريق توسعة القاعدة الاجتماعية لتكون أكثر استيعابية للأخر المختلف دينيا ومنظومة قانونية حافظة لحقوقه.
- يعيش غير المسلم في المجتمعات الإسلامية ضيما حقوقيا يقوض فرص مواطنته ويزيد من فرص استبعاده الاجتماعي.
- تعيش البلدان الإسلامية حالة تخبط في تعاملها مع الأقليات غير المسلمة، تقر حقوقها قانونيا وتعود لتنكرها واقعا، بما يعني إقرار التعدد بمنطق الوحدة المختزل للأخر المختلف.
- إن السعي لإقرار حق الأخر المختلف (دينيا) ليس بالضرورة مدعاة لضرب التماسك المجتمعي والوحدة الوطنية، بل على العكس ذلك أن الاحتواء والإدماج أهم عوامل اللحمة المجتمعية بالدول المتعددة الأطياف (الدينية وغيرها).



الهوامش:

[1]إريك جوفروا، "التعدد في الإسلام أو الوعي بالآخرية". مجلة أديان 0(2009):ص.38.

[2] محمد كريم إبراهيم الشمري و سوسن أحمد نجيب العوادي، "أثر التلاقح الفكري والثقافي بين المسلمين واهل الذمة في إشاعة التعايش والتسامح الديني في العراق خلال العصر العباسي الأول". مجلة كلية التربية الأساسية 17(2014):ص.20.

* قال الطبري : (والصابئون ، جمع صابئ ، وهو المستحدث سوى دينه دينا ، كالمرتد من أهل الإسلام عن دينه ، وكل خارج من دين كان عليه إلى آخر غيره ، وأما مذهبهم ، فقال ابن القيم ، رحمه الله : (وقد اختلف الناس فيهم اختلافا كثيرا ، وأشكل أمرهم على الأئمة لعدم الإحاطة بمذهبهم ودينهم ؛ فقال الشافعي رحمه الله تعالى : هم صنف من النصارى، وعلى اختلاف الفقهاء في أصل مذهبهم إلا أن أغلبهم أجمع على أن الصائبة كتابيون. للمزيد انظر الموقع التالي:

< https://islamqa.info/ar/49048 >(24/06/2017)

أما السامرة تكاد تتفق كلمة الفقهاء وكتاب الفرق على أن السامرة طائفة من اليهود يتشددون بدينهم ويخالفونهم في بعض الفروع. للمزيد أنظر الموقع التالي:

<http://www.maioz.com> (24/06/2017)

[3]إياد عبد الحسين صهيود الخفاجي و محمد هاشم حسين، "وصايا الرسول (صلى الله عليه وعلى آله) في أهل الذمة والمملوك". مجلة جامعة كربلاء العلمية 3(2016):ص.223.

✱عقد الذمة هو ذلك العقد المبرم بين المسلمين (أهل الحكم) والذميين (الرعايا غير المسلمين)، يتسم بكونه أبدي تحدد فيه حقوق وواجبات أهل الذمة ولا يتم نقضه إلا في حالات نادرة كعجز دار الإسلام عن حماية أهل الذمة، أو إلتحاق أهل الذمة بدار الحرب.

[4]حيدر صاحب شاكر،"أثر الإسلام في التنوع الثقافي والتعايش السلمي" (ورقة بحث قدمت في الملتقى الدولي الثامن حول "التنوع الثقافي" طرابلس، الشلف، 21-23 ماي 2015) ص.3.

[5] إيمان عباس عيدان، "أهل الذمة في عهد الخلفاء الراشدين". مجلة العلوم الإسلامية 6(2014):ص.460.'

[6] سورة الكافرون: الآية (6)

[7] شفيق الله أمين، "واجبات غير المسلمين في الدولة الإسلامية مقارنة بواجبات الأقليات وحقوقهم في التشريعات الوضعية" (أطروحة دكتوراه غير منشورة في الفقه الإسلامي، الجامعة الإسلامية العالمية-إسلام آباد- ، 2009)، ص ص.226-227.

[8] سورة البقرة: الآية (256).

[9] قويدر محمد دهكو، "حق غير المسلمين في المعارضة السياسية في الدولة الإسلامية" (مذكرة ماجستير غير منشورة في العلوم الإسلامية ، جامعة الجزائر-1-بن يوسف بن خدة، 2016)، ص ص.53-54.

[10]علي بن عبد الرحمان الطيار،حقوق غير المسلمين في الدولة الإسلامية (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 2006)، ص.44.

[11] خليف عبود الطائي، "الجزية والمسلمين الجدد". مجلة مداد الأداب 10(2015):ص.289.'

[12]محمد الغزالي، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام (الجيزة: الإدارة العامة للنشر ، 2005)،ص.39.



(13)هاني المبارك وشوقي أبو خليل، الإسلام والتفاهم والتعايش بين الشعوب (دمشق: دار الفكر، 1996)، ص.39.

(14) محمد الغزالي، مرجع سبق ذكره، ص.42.

(15)عصمت حسن العقيل وحسن أحمد الحياري، "دور الجامعات الأردنية في تدعيم قيم المواطنة". المجلة الأردنية في العلوم التربوية 4(2014):ص.518.

(16) أحمد فكاك البدراني، "حقوق وحريات المواطن في الدساتير العراقية: دراسة تاريخية مقارنة". مجلة الدراسات الإقليمية 13(2009):ص.345.

(17) كمال حسين أدهم، "مفهوم المواطنة وآليات تعزيزها". مجلة الدراسات الإقليمية 13(2009):ص.95.

(18) وسام محمد جميل صقر، "الثقافة السياسية وانعكاسها على مفهوم المواطنة لدى الشباب الجامعي في قطاع غزة 2005-2009 دراسة ميدانية على عينة من طلبة جامعات غزة" (مذكرة ماجستير غير منشورة في العلوم السياسية، جامعة الأزهر -غزة-، 2010) ص.102.

(19) عصمت حسن العقيل وحسن أحمد الحياري، مرجع سبق ذكره، ص.518.

(20) منى جلال عواد، "الأقليات وحق المواطنة في العراق بعد عام 2003". مجلة جامعة تكريت للعلوم القانونية والسياسية 18(2013):ص.402.

(21) وسام محمد جميل صقر، مرجع سبق ذكره، ص ص.112-113.

(22) لطيف عبد الحسين موسى، "الحقوق السياسية للأقليات الدينية في الدساتير العراقية: دراسة مقارنة مع الحقوق السياسية لأهل الذمة في الفكر الإسلامي". مجلة المثنى للعلوم الإدارية والاقتصادية 01(2015):ص.229.'

(23) الجمهورية العراقية، القانون الأساسي العراقي 1925، الباب الأول: حقوق الشعب، المادة السادسة (06).

(24) الجمهورية العراقية، القانون الأساسي العراقي 1925، الباب الثالث: السلطة التشريعية، المادة السابعة والثلاثين (37)

(25) الجمهورية العراقية، الدستور العراقي المؤقت 1958، الباب الأول: الجمهورية العراقية، المادة التاسعة (09).

(26) الجمهورية العراقية، الدستور العراقي المؤقت 1958، الباب الثاني: مصدر السلطات والحقوق والواجبات العامة، المادة الثانية عشر (12).

(27) الجمهورية العراقية، الدستور العراقي 1963، الباب الثالث: الحقوق والواجبات العامة، المادة التاسعة عشر (19)

(28) لطيف عبد الحسين موسى، مرجع سبق ذكره، ص.231.'

(29) الجمهورية العراقية، الدستور العراقي 1963، الباب الثاني: المقومات الأساسية للمجتمع، المادة السادسة (06) .

(30) لطيف عبد الحسين موسى، مرجع سبق ذكره، ص.231.

(31) الجمهورية العراقية، الدستور العراقي 1963، الباب الثالث: الحقوق والواجبات العامة، المادة الحادية والعشرين . (21)

(34) الجمهورية العراقية، الدستور المؤقت لعام 1970، 16 أفريل، الباب الأول: الجمهورية العراقية، المادة الأولى .(01)



(35) المرجع السابق، المادة الخامسة (05).

(36) رائد شهاب أحمد، "الحماية القانونية للأقليات في العراق والمعالجات المقترحة". مجلة رسالة الحقوق 02(2012):ص.176.'

(37)الجمهورية العراقية، مشروع لدستور العراق لعام 1991، الباب الثالث: الحقوق والحريات وضماناتها، الفصل الأول: الحقوق والحريات العامة، المادة الثامنة والخمسين (58).

(38) الجمهورية العراقية، مشروع لدستور العراق لعام 1991، الباب الثاني: الحقوق والحريات، الفصل الأول: الحقوق، الفرع الأول: الحقوق المدنية والسياسية، المادة الرابعة عشر (14).

(39) المرجع السابق، المادة السادسة عشر (16).



ظاهرة اللجوء في أوروبا ثنائية التهديد واللأمن
- دراسة في تنامي الاسلاموفوبيا-

د.خيرة لكمين
الجزائر

ملخص:

في ظل الأوضاع الأمنية المتردية في مختلف الدول توجه مختلف الأفراد والمواطنين للهجرة بحثا عن ملجأ أمن، وكانت بذلك أوروبا الحل الأمثل والمكان المناسب لضم اللاجئين من منطلق تكريس حماية حقوق الانسان، إلا أن استفحال الاسلاموفوبيا في المجتمعات الأوروبية حال دون التطبيق الفعلي للبعد الانساني في التعاملات الدولية، وأصبح اللاجئون في تهديد دائم، إما من طرف دولتهم غير الآمنة، وإما من طرف الدولة المستضيفة من خلال الممارسات التعسفية إن قبلت بطلبات اللجوء.

الكلمات المفتاحية:

الاسلاموفوبيا، اللجوء، اليمين المتطرف، التهديدات الأمنية.

Abstract :

Due to the deteriorating security conditions in various countries, citizens fled in search of a safe haven, and Europe was the best solution and the right place for refugees to join, from the principle of devoting protection of human rights, But the spread of Islamophobia in European societies was a cause in the non-application of the human dimension in international transactions, and refugees have become in permanent threat either by their own insecure state, or by the host state through arbitrary practices if asylum applications are accepted.

Keywords:

Islamophobia, asylum, extreme right, security threats

مقدمة:

باتت قضية اللجوء في الوقت الراهن من بين القضايا التي تؤرق المجتمع الدولي، بسبب انعكاساتها وأثارها المتأرجحة بين الفائدة المبتغاة وزيادة التهديدات، إلا أن الرأي السائد في المجتمع الدولي هو التأثيرات السلبية لظاهرة اللجوء على الأمن والتنمية والنمو الاقتصادي العالمي، ومع



ظهور موجهة الاسلاموفوبيا أخذ التخوف من فكرة اللجوء يزداد خاصة من الفئات المسلمة أو الهاربة من مناطق النزاعات، والتي عادة ما تتوجه نحو القارة الأوروبية، إما لاعتبارات حماية حقوق الإنسان، أو اعتبارات قرب المسافة، أو اعتبارات أخرى غالبا ما تكون مرتبطة بالحالة المعيشية.

تنامى الشعور بحالة التهديد التي تشكلها ظاهرة اللجوء في القسم الأوروبي، خاصة ما تعلق بالاسلاموفوبيا وأصبحت بذلك مختلف الدول الأوروبية تنظر للجوء على أنه تهديد أمني يمس استقرارها الداخلي، وتم التنازل عن الجانب الإنساني من فكرة اللجوء.

أهمية الموضوع:

يكتسي هذا الموضوع أهمية بالغة باعتباره يعالج قضية مهمة في المجتمع الدولي؛ أسالت الكثير من الحبر، متمثلة في ظاهرة اللجوء وربطها بالاسلاموفوبيا، وهو الأمر الذي جرد اللجوء من طابعه الإنساني إلى طابع تهديدي تخوفي، وبذلك نسعى من خلال هذه الورقة البحثية إلى:

- التعرف على اللجوء والاسلاموفوبيا وأسباب التخوف منه.
- التعرف على المؤثرات التي أدت إلى تفاقم التخوف من الإسلام في أوروبا.
- التطرق إلى صعود اليمين التطرف وتزايد انتشار الاسلاموفوبيا في أوروبا.

السؤال المركزي:

في ظل التوترات الحاصلة في المجتمع الدولي بسبب تزايد ظاهرة اللجوء لأوروبا، كيف تؤثر هذه الظاهرة على زيادة انتشار الاسلاموفوبيا في الأوساط الأوروبية؟

الفرضية:

صعود اليمين المتطرف وازدياد ظاهرة الهجرة نحو أوروبا كرست انتشارا واسعا لخطابات وحملات الاسلاموفوبيا، وبالتالي تحريض الكراهية والخوف من كل ما له صلة بالإسلام.

للإجابة على السؤال واختبار صحة الفرضية قسمنا الورقة البحثية الى:

- ظاهرة اللجوء والاسلاموفوبيا: دراسة في المفهوم وأسباب الانتشار.
- ثنائية صعود اليمين المتطرف وانتشار حملات الاسلاموفوبيا.
- اللجوء إلى أوروبا: بين تهديدات الاسلاموفوبيا وضرورات البعد الإنساني.

المحور الأول: ظاهرة اللجوء والاسلاموفوبيا: دراسة في المفهوم وأسباب الانتشار



إن الوقوف على التجاذبات الحاصلة بين ظاهرة اللجوء وانتشار الاسلاموفوبيا يتطلب الإحاطة في البداية بالمفهومين.

أولا: ظاهرة اللجوء : في المفهوم وضمانات الحماية الدولية

يعبر مصطلح اللجوء في اللغة على الاعتصام والإسناد والتسليم، فلجوء شخص معين الى مكان ما يعني لاذ إليه واعتصم به، وفي القانون الدولي فهو يعني هروب الأفراد والضحايا من الأخطار المحدقة بهم بسبب التوترات الحاصلة في بلدانهم، والتي عادت ما تكون نزاعات مسلحة، إلى الأماكن والهيئات التي تتوفر لهم فيها الحماية؛ وأولها اللجنة الدولية للصليب الأحمر باعتبارها المفوضة من طرف اتفاقية جنيف، والتي تعمل في إطار حماية الأفراد الأكثر ضعفا سواء كانوا أسرى حرب أو مدنيين تعرضوا للهجوم، ناهيك عن أعمالها التفقدية للأفراد المفقودين بهدف لم شمل العائلات[i].

وتعتبر ظاهرة اللجوء ظاهرة إنسانية قديمة ارتبطت بمنطق الحرب والاستقرار، لذلك فإن امتلاك صفة اللاجئ تمنح الشخص مجموعة من الضمانات الدولية تشكل حماية له، وتتمثل هذه الضمانات في:

- **تدعيم مبدأ عدم رد اللاجئ إلى دولة الاضطهاد:**

يعتبر مبدأ عدم الرد أحد الركائز الأساسية التي تبنى عليه فكرة اللجوء، لأنه الضامن الوحيد لعدم تسليم اللاجئ للدولة المضطهدة دون المساس بسيادة الدولة، حيث تمتلك حرية القبول أو الرفض، لكن هذه الحرية التي تتمتع بها الدولة المستقبلة تكون مقيدة نوعا ما، ذلك أنها لا تملك الحق في اتخاذ إجراءات من شأنها الضغط على اللاجئ وإجباره للعودة الى منطقة تهدد حياته.

- **مبدأ عدم توقيع الجزاءات كضامن لحماية ملتمسي اللجوء :**

منذ الإقرار بحماية اللاجئين الدولية كانت المخاوف لدى طالبي اللجوء من طرفين، الطرف الأول هي الدولة المضطهدة والطرف الثاني هو الدولة المستقبلة خوفا من عدم الحصول على مركز اللاجئ، إلى غاية فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية أين تم تكريس مبدأ عدم توقيع الجزاءات للاجئين بسبب تواجدهم غير القانوني، وقد تم تحديد شروط الاستفادة من هذا المبدأ في المادة 31 من اتفاقية 1951، والتي تقر بضرورة إخبار اللاجئ لسلطات الدولة المضيفة عن حالة تواجده، مع تقديم أسباب وجيهة لتواجدهم غير القانوني[ii].



ويضطلع في المقابل اللاجئ بعدم القيام بأي عمل ذو طابع سياسي أو عسكري من المحتمل أن يهدد الأمن والاستقرار الوطني للدولة المضيفة أو الدولي من خلال التأثير على الدول المجاورة[iii].

ثانيا: الاسلاموفوبيا: من الظهور إلى الانتشار

يعتبر مصطلح الاسلاموفوبيا حديث التداول نسبيا، لكن الظاهرة قديمة قدم الدين الإسلامي، إلا أن حدتها قد تزايدت في الغرب خاصة بعد التفجيرات الشهيرة التي شهدتها الولايات المتحدة الأمريكية في الحادي عشر سبتمبر 2001 ، والتي أسندت آنذاك إلى تنظيم القاعدة[iv]، وتعود أسباب التخوف من الإسلام إلى:

- **المسألة الثقافية:**

يرى فوكوياما Fukuyama في طروحاته حول نهاية التاريخ أن النموذج الرأسمالي الليبرالي هو أرقى نموذج يمكن الوصول إليه، مع ضرورة انضمام كل دول العالم إليه، وفي نقطة أخرى أشار هنتنغتون Huntington الى فكرة صدام الحضارات والتي أشار فيها الى أن المصدر الرئيسي للنزاعات في النظام العالمي الجديد هو صراع الحضارات، هذا الصراع الذي ينحصر على الثقافة الغربية من جهة والثقافتين الإسلامية والكونفوشيوسية من جهة أخرى، باعتبارهما الوحيدتان المشكلتان للخطر، نظرا لعدم القابلية للانصهار في الثقافة الغربية ، وبذلك فقد كان لهذا البعد تأثير على زيادة التخوف من الإسلام.

بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 تعمقت فكرة صدام الحضارات وخاصة بعد نسب تلك الهجمات للطائفة الإسلامية، وهو ما جعل بعض المفكرين والسياسيين يقرون بتحقق صدام الحضارات والارتباط الوثيق بالجانب الثقافي القيمي.

- **الجهل بالإسلام:**

من منطلق أن الإنسان يعادي ما يجهله، فإن الغرب أيضا يعادون الإسلام لجهلهم به، وهذا الجهل سببه استقاء المعلومات من مصادر غير موثوقة تفتقر للموضوعية والنزاهة والتجرد، وبالتالي فإن هذا الجهل يؤثر على التواصل الايجابي والتبادل الثقافي بين الثقافات والفهم المتبادل.

- **تواجد المسلمين في الغرب:**

تعتبر الهجرة المتزايدة للمسلمين باتجاه الغرب إحدى العوامل التي عززت من كراهية الإسلام والخوف منه، ويرجع هذا الموقف السلبي للغرب إزاء الإسلام إلى سببين يتمثل الأول في الاختلاف



العرقي والخوف من فقدان الإطار الثقافي؛ في ظل التعددية الثقافية الناجمة عن زيادة الهجرة، والسبب الثاني يعود إلى الجانب الإحصائي من خلال زيادة الفئة المسلمة في مقابل تناقص أعضاء الكنيسة، وهو ما يزيد من احتمالية أسلمة الغرب.

- **تبني صورة نمطية سلبية عن الإسلام والمسلمين:**

تتمتع النظريات والمبادئ والأطر العقائدية بطابع مثالي يتيح لها هامشا من الفصل بينها وبين مطبقيها وأتباعها، إلا أنه وفي الكثير من الأحيان يكون هناك خلط بين الفكرة ومعتنقها وبالتالي يتم نسب الأخطاء المقترفة من طرف الأفراد إلى الأفكار المعتنقة، وهو نفس الأمر الحاصل بالنسبة للإسلام، ذلك أنه يتم نسب مختلف السلوكيات غير السوية الصادرة عن بعض المسلمين إلى الإسلام باعتبارهم ينتمون إليه ، وتعتبر وسائل الاعلام ذات دورا كبيرا في نشر وتعزيز مثل هذه الأفكار، حيث نجد في هذا الصدد الصحفي مايكل جرام Michael Gram وهو أحد مقدمي البرنامج الحواري في إذاعة دبليو أم اي ألWMIL الأمريكية يصرح بأن الإسلام هو منظمة إرهابية، وأن أمريكا في حرب مستمرة مع الإسلام، وأنهم جميعا في حرب مع منظمة إرهابية تدعى الإسلام، كل هذه التعابير تؤدي معنى واحد وهو نشر ثقافة الكره والخوف من الإسلام ومن كل شخص يعتنق هذه الديانة.

المحور الثاني: ثنائية صعود اليمين المتطرف وانتشار حملات الاسلاموفوبيا

شهدت أوروبا انتشارا واسعا للاسلاموفوبيا خاصة بعد صعود اليمين المتطرف، وسنحاول التطرق الى خلفيات صعود اليمين المتطرف وتأثيرها على انتشار الاسلاموفوبيا.

أولا: خلفيات صعود اليمين المتطرف في أوروبا:

تطرق العديد من الباحثين الى الاتجاه اليميني المتطرف ويرون أنه مرتبط بالإيديولوجية الفاشية، ومنتسبيهم يطلق عليهم بالفاشيين الجدد، وعموما فالفاشية هي إيديولوجية لا تعترف بالقيم الليبرالية والعقلانية والحداثة والحرية والمساواة، وترفض الرأسمالية والشيوعية والديمقراطية، وتؤمن بحتمية الصراع المساهم في تقدم التاريخ ، كما نجد أيضا أن بيار أندري تاغياف Pierre André Taguieffيقدم تعريف للنزعة اليمينية المتطرفة على أنها التخوف الوطني المستند الى أسس إثنية، حيث يعتمد على أسس بيولوجية؛ عرقية أو تاريخية–ثقافية، وبالتالي فالترجمة السياسية له هي الخوف من المهاجرين معبرا عنها بانتقاد السلطة السياسية ونظرية المؤامرة، وترجع أسباب



ظهور اليمين المتطرف في أوروبا الى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والأمنية في الدول الأوروبية، ناهيك عن مخلفات العولمة والرغبة في الحفاظ على الخصوصية والهوية، وبقراءة تاريخية فإننا نجد أن الحزب اليميني السويسري –الاتحاد الديمقراطي للوسط– قد تحصل على 29% من الأصوات في الانتخابات الفيدرالية لسنة 2007، وهو الأمر الذي سهل عليه إصدار قانون يمنع فيه بناء المنارات الخاصة بأماكن العبادة في سويسرا في 2009، وبالتالي فإن رغبة أنصار النزعة اليمينية في الحفاظ على نقاء تكوين مجتمعاتها من العناصر الدخيلة دفع بها الى شن حملات دعائية ضد الجاليات والمهاجرين واللاجئين المتواجدين في أوروبا، وقد عززت أحداث 11 سبتمبر 2001 من الموقف اليميني المتطرف ما منحها مصداقية أكبر في الانتخابات، وحصدت مراتب متقدمة ومقاعد وزارية في الحكومة الأوروبية، والأمثلة متعددة على غرار حزب اليمين المتطرف في بولونيا الذي دخل الحكومة في ماي 2006، وبالتالي فإن زيادة الأدوار التى تقوم بها أحزاب اليمين المتطرف في المجتمعات الأوربية قد انعكست سلبا على أوضاع الجالية الإسلامية عموما واللاجئين خصوصا وبالتالي زادت مشاعر الكره والخوف .

ثانيا: تأثير سياسة اليمين المتطرف على انتشار الاسلاموفوبيا

تبنت أحزاب اليمين المتطرف في أوروبا الخطاب الاسلاموفوبي، وهذا راجع لسيطرة فكرة الاستعلاء والأفضلية على غيرهم، لذلك فإن تشكيل الإسلام لتهديد فعلي للهوية الأوروبية يدل على التغلغل المعمق له ونفوذه الواسع في المجتمع الأوروبي، وهو الأمر المصرح به في برامج العديد من الأحزاب اليمينية المتطرفة وحتى في توجهات قادتهم:

- **الجبهة الوطنية الفرنسية:** وهو أول حزب استخدم الاسلاموفوبيا في دعايته السياسية وحملته الانتخابية، وكان يهدف من خلال هذا للتخويف من الإسلام والمسلمين.
- **الحزب النمساوي اليميني الشعبي:** قدم وصفا للإسلام على أنه العدو الأول للنمسا ولأوروبا وللعالم ككل.
- الحزب الدانيماركي التقدمي: كان يدعو لوضع منطقة حرة للمسلمين مع التحذير المستمر من فكرة أسلمة أوروبا.
- الحزب اليميني الشعبي الدانيماركي: قاد حملة انتخابية تحذيرية من الإسلام باعتباره أكبر مصدر مهدد لأوروبا، مع ضرورة الدفاع عن النصرانية الأوروبية .



كانت هذه بعض الأحزاب اليمينية المتطرفة التى جاهرت بدعوتها وتحريضها على الاسلاموفوبيا، سواء في حملاتها الانتخابية أو شعارات اليومية، وإضافة الى الأحزاب فإن مختلف القيادات المنتسبة لها كان لها تأثير كبير في نشر الاسلاميوفوبيا في المجتمع الأورربي، ونجد بذلك كل من:

- أومبرتو بوسي Umberto Bossi وهو زعيم حزب ليقا نورد الايطالي وصف الإسلام على أنه تهديد للثقافة الأوروبية، وبالتالي يمس الهوية الثقافية للمجتمع الأوروبي، ناهيك على اختلافه الجذري عن الحضارة الغربية.
- خيرت فلدرس Geert Wilders وهو زعيم حزب الشعب الهولندي قام بإجراء مقارنات بين كل من (الإسلام– الفاشية) و (القرآن– كتاب كفاحي لهتلر)، وأقر بتخلف المسلمين مع ضرورة منعهم من الهجرة نحو هولندا.
- ثيلو سارازين Thilo Sarrazin زعيم الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني فكره مشتبه لفكر خيرت فلدرس، حيث يعتبر الجالية المسلمة سببا في جعل ألمانيا أكثر غباء وتخلفا وهذا الأمر راجع للطبيعة الجينية الخاصة بهم .

وبالتالي يمكن القول أن التعصب والتشدد إزاء الفئات المسلمة بدأت من الأفكار والمعتقدات الراسخة لدى البعض، تطورت وشكلت أحزاب متطرفة تدعو لفكرة التميز العنصري حتى ولو بصورة غير مباشرة، وساعدتها وسائل الإعلام في ترويج هذه الفكرة التى تطورت وأصبحت هاجسا أو ما يعرف بالاسلاموفوبيا.

ثالثا: السياسات الاسلاموفوبية في أوروبا:

بداية من عام 2010 حلت حالة من الرعب في أوروبا إزاء الحجاب والملابس الإسلامية، وهذا وفقا للتأييد الواسع لفكرة الحضر من طرف كل من الرئيس نيكولا ساركوزي Nicolas Sarkozy وقادة مجلسي البرلمان الفرنسي، هذا الحضر كان بحجة أمنية اجتماعية ذلك أنه يعيق التعرف على الشخص وتحديد هويته، وبدءا من أفريل 2011 بدأ تطبيق قانون حضر أي شي يغطي الوجه في المناطق العمومية والمحلات والشوارع، وامتدت هذه الحملات الى غاية 2016 أين تم حضر اللباس النسائي المخصص للسباحة "بوركيني" بحجة إثارة المخاوف الأمنية، عموما يمكن إجمال هذه الأحداث وفق التسلسل الزمني الموالي:



- 24سبتمبر 2003: حكمت المحكمة الدستورية الألمانية لصالح مدرسة من أصول أفغانية كانت ترغب في ارتداء وشاح إسلامي في المدرسة، كما أقرت المحكمة أيضا إمكانية تغيير القوانين المحلية لمختلف الولايات، وعلى إثر ذلك منعت نصف أقاليم ألمانية المعلمات من ارتداء الحجاب.
- 3فيفري 2004: مناقشة مشروع حظر الرموز الدينية داخل المدارس من طرف الجمعية الوطنية الفرنسية.
- 11افريل 2011: منع النساء من ارتداء النقاب في أي مكان عام إلا عند ممارسة الشعائر الدينية، وهذا وفقا للمرسوم الصادر عن رئيس الوزراء الفرنسي آنذاك فرونسوا فيون Francois Fillon. .

وتوالت بعد ذلك الحملات ضد الرموز الإسلامية والمتمثلة في اللباس الإسلامي، حيث شهدت السنوات المتتالية من 2014 الى غاية 2017 صدور قرارات وقوانين ناهيك عن تأيد مباشر لحضر النقاب خاصة من طرف أعضاء اليمين المتطرف في أوروبا بصورة عامة، فنجد أنجلينا ميركل Angela Merkel المستشارة الألمانية تؤيد الحضر الجزئي للنقاب في ديسمبر 2016، ومانويل فالز Manuel Vals وهو رئيس الوزراء الفرنسي يدافع عن حضر ملابس السباحة الإسلامية"البوركيني" في أوت 2016، أما محكمة العدل الأوروبية فقد أقرت بحضر ارتداء الرموز الدينية بالنسبة للموظفين العاملين لدى أرباب العمل في مارس 2017 . كل هذه القرارات والتأيد الصادر عن المسئولين الأوروبية يدل على الانتشار الواسع لظاهرة الاسلاموفوبيا، سواء على مستوى القمة الممثلة في السلطات والتى سعت لوضع إطار قانوني صارم ضد الإسلام والمسلمين، أو على مستوى القاعدة والمتمثلة في المجتمع الأوروبي الذي نقلت له صورة نمطية عن الإسلام، وبالتالي أبدا تخوفا منه وانسياقا لما تقره السلطات، في خضم هذه التجاذبات باتت ظاهرة اللجوء الى مختلف الدول الأوروبية في تزايد مستمر، وهذا بسبب النزاعات والأوضاع الأمنية غير المستقرة التى تعاني منها مختلف الدول، وهو الأمر الذي زاد من حدة الاسلاموفوبيا، وهنا يكون الإشكال حول إنسانية القبول باللاجئين في ظل مختلف الأوضاع التى يعاني منها، وضرورة الاهتمام بالجانب الأمني للدولة المستضيفة.

المحور الثالث: اللجوء إلى أوروبا: بين تهديدات الاسلاموفوبيا وضرورات البعد الإنساني



تسببت النزاعات في مختلف الدول العربية بهروب مواطنيها ولجوئهم الى الدول الأوروبية إما لأسباب القرب أو دواعي حماية حقوق الانسان، إلا أن انتشار ظاهرة الاسلاموفوبيا قد شكل عائقا أمام اللاجئين المسلمين ما أثر على قبول طلب اللجوء في بداية الأمر، أو القوانين المطبقة على اللاجئين بعد قبول لجوئهم.

أولا: اللجوء وموقف أوروبا من المسلمين

إن الحديث عن ظاهرة الاسلاموفوبيا يقودنا الى تساؤل جوهري مفاده: هل الاختلاف في الدين والثقافة والحضارة يقودنا بالضرورة الى حالة صراع ونفور من الطرف الأخر؟، وفي هذا السياق فإننا نجد الطروحات الغربية وعلى رأسها طروحات هينتغتون تشير الى الإسلام بوصفه تهديدا، استنادا الى الرؤية الكونية للعالم ووضع الغرب فيه، وربط الإسلام والمسلمين بوضع الغرب ودوره، ومن هذا المنطلق فالإسلام هو عدو المستقبل ومهدد للحضارة الغربية.

في ظل الانتشار الواسع للخطاب الشعبوي المعادي للمسلمين تزايدت الردود العنيفة ضد اللاجئين، ووصل بذلك الخطاب المناهض للهجرة الى الأجندة الانتخابية، وهو الأمر الذي وجدت فيه الأحزاب اليمينية متنفسا لإرجاع سبب كل آفة وانتهاك مجتمعي للمهاجرين واللاجئين، فمن الواضح أن الأحزاب اليمينية في العديد من الدول الأوروبية عملت على رسم اتجاه محدد وعام حول الهجرة مع التركيز على فئة اللاجئين المسلمين، استنادا الى ما يعتبرونه صلة بين الهجرة واللأمن، فنجد على الساحة الأوروبية أن معظم الهجمات الإرهابية الحاصلة أخيرا من طرف مواطنين أوروبيين، لكن لا تأخذ حيزا واسعا ولا تثير ضجة كبيرة كالهجمات التى يقوم بها مهاجر أو لاجئ ، وهنا يمكن استشفاف الدور الإعلامي في طريقة نقل الخبر وتهويل الوقائع، والتى غالبا ما يكون لها صدى كبير بالنسبة لذوي الاتجاه الإسلامي، وهو راجع لطبيعة التركيبة المتطرفة المتحكمة في طبيعة المادة المروج لها والمقدمة للمجتمع.

إن النظرة السلبية للمهاجرين واللاجئين المسلمين كانت نتيجة للأشخاص المعادين للإسلام، من خلال خلقهم لمناخ اجتماعي وسياسي معيق لإدماجهم في المجتمع الأوروبي، فعلى الرغم من أن مختلف الإحصائيات تشير الى أن أعلى نسبة للاجئين تم استضافتها من طرف تركيا ومختلف الدول الجنوبية كإيران والأردن، إلا أن تسليط الضوء على قضايا الأمن والشغل كان السبب الأساسي لرفض طلبات اللجوء ووضع قيود على اللاجئين الموجودين في معظم الدول الأوروبية،



مهملين بذلك مساهمتهم في نمو الاقتصاديات الأوروبية باعتبارها في أمس الحاجة لليد العاملة نظرا للتراجع الديموغرافي الذي يشهده المجتمع الأوروبي، بل ويتم تكييف هذا الأمر على أساس أنه "سرقة" لوظائف الأوروبيين وبالتالي خلق تهديد أمني أوروبي.

ثانيا: وسائل نشر الرهاب من اللاجئين في أوروبا

لم يتم الاكتفاء فقط بسن قوانين مجحفة بحق اللاجئين والمهاجرين الى الدول الأوروبية، وإنما كانت هناك محاولات مستمرة لحشد المجتمع الأوروبي ضد فئة اللاجئين المسلمين، سواء من خلال الإشهار في مختلف الحملات الانتخابية، أو الخطابات الرسمية لمسئولين أوروبيين، أو استخدام وسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي باعتبارها الأكثر استخداما في الأوساط الشعبية.

شهدت مختلف أقاليم الاتحاد الأوروبي تشريعات ضد اللاجئين وهو ما نجده في استفتاء برلمان المجر الرافض للحصص المخصصة للاجئين من طرف الاتحاد الأوروبي والبالغة ألفي لاجئ، كما تم إقرار تشريعات مناهضة للمهاجرين غير الشرعيين من خلال معاقبتهم بالسجن لمدة قد تصل لثلاث سنوات، وفي محاولة أخرى له عرض على النيجر مبلغ 610 مليون يورو للحد من محاولات الهجرة باعتبارها أهم محطات المهاجرين الأفارقة، وعرض نفس الشيء على كل من أفغانستان، تركيا، الأردن، لبنان.

ولتفادي خرق قواعد القانون الدولي ومسؤولية الحماية الدولية، وامتثالا لمبدأ عدم الإعادة القصرية عمل البرلمان الأوروبي على تجنب استخدام مصطلح لاجئ، كما أطلقت كل من الدنمارك وهنغاريا إعلانات رسمية في الداخل والخارج تقر فيها بأن المهاجرين غير مرحب بهم.

وفي المقابل لم يكن اليمين المتطرف هو الطرف الوحيد الذي عارض الإسلام والمسلمين إعلاميا وقانونيا، بل كانت الكنيسة الكاثوليكية الطرف الثاني الذي بدأت هواجسه تجاه اللاجئين والمهاجرين المسلمين منذ مطلع التسعينات، وبالتالي فقد مثل اللاجئ المسلم قلقا دائما للكنيسة، فنجد في هذا السياق تصريحات العديد من الأساقفة* على رأسهم كومو المونسنيور أليساندرو ماجوليني Como Monsignor Alessandro Magolini عام 1998 أين ندد بالغزو التدريجي للبلاد مشيرا الى حالات اللجوء والهجرة للمسلمين، في حين رئيس أساقفة بولونيا الكاردينال جاكومو بيفي Jacomo Bevey أقر بأن الإسلام هو عدو المسيحية عام 2000، مع الدعوة لإعطاء



الأولوية للمهاجرين واللاجئين المسحيين وغير المسلمين، على حد قوله فإن المسلمين غرباء عن إنسانيتهم.

في ظل ضغوطات اليمين المتطرف والكنائس الكاثوليكية وجدت تصريحات وخطابات المسئولين الأوروبيين صدا كبيرا في المجتمع، وتوجهت الأنظار الى اللاجئ من الجانب الإنساني الى جانب تهديد الأمن والاستقرار الداخلي، خاصة أن معظم الهجمات الانتحارية والإرهابية عادت ما تنسب للطرف المسلم أو لذوي الأصول المسلمة.

كما لا يمكن إهمال دور وسائل الإعلام في تهويل فكرة الخوف من الإسلام، وبالتالي التخوف من فكرة الوفود الإسلامية اللاجئة إليهم، إما من خلال الإساءة للإسلام عموما وللنبي عليه الصلاة والسلام، أو من خلال نسب مختلف الممارسات الإرهابية للجماعات المسلمة وتسليط عليها الضوء حتى تعمم بين أفراد المجتمع، وبالتالي تصبح أي زيادة للأفراد المسلمة عبر اللجوء أو الهجرة غير محببة في المجتمعات الأوروبية.

خاتمة:

ساهم المد الكاره للإسلام في انتشار الاسلاموفوبيا في الدول الأوروبية بشكل كبير، وفقا لدفع من طرف اليمين المتطرف من جهة والكنيسة من طرف ثاني والإعلام من طرف ثالث، وبالتالي أصبح المسلمون في الدول الأوروبية مهددين بمختلف الانتهاكات.

ومع ازدياد حركة النزاعات في الدول الإسلامية وزيادة حالات اللجوء الى الدول الأوروبية، إزدات الاسلاموفوبيا عمقا مؤثرة على قرارات السلطات الرسمية في قبول طلبات اللجوء بالنسبة للمسلمين من عدمها، وأصبح منطق الأمن والاستقرار الداخلي يعلو كل المبادئ حتى الإنسانية منها، وبات اللجوء والهرب من حالة النزاعات التى تعاني منها الدول الأم أمرا نسبيا بالنسبة للفئة المسلمة دون الفئات الأخرى، خاصة وأن مختلف الانتهاكات والعمليات الإرهابية تنسب الى الإطراف المسلمة وأحيانا اللاجئين خاصة في الآونة الأخيرة أين زادت نسبة اللجوء الى الدول الأوروبية.

في ظل هذا الانتشار الواسع لظاهرة الاسلاموفوبيا في الدول الأوروبية وتأثيرها على البعد الإنساني للجوء، كان على المنظمات الإسلامية وعلى رأسها منظمة التعاون الإسلامي، التى سعت جاهدة للصد من الاشتياح الاسلاموفوبي وتكوين التصور الصحيح للاسلام بهدف تجاوز الصورة المكرسة بسبب الرواسب الأوروبية.



قائمة الهوامش:

1- محمد بلمديوني، **وضع اللاجئين في القانون الدولي الانساني**، المجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية، قسم العلوم الاقتصادية والقانونية، العدد17، جانفي 2017، ص 161.

2 - حورية أيت قاسي، **تطور الحماية الدولية للاجئين**، رسالة دكتوراه، تخصص قانون، جامعة تيزي وزو، 2014، ص ص 88-112.

3 - عصام الحسيني، **اللجوء في القانون الدولي**، مقال على الرابط: http://www.al-binaa.com/archives/article/71044 ، 2017/09/06، 16:09.

4 -عبد المعطي زكي ابراهيم، ظاهرة الاسلاموفوبيا...قراءة تحليلية، مقال على الرابط: http://www.rohama.org/files/ar/news/2011/12/22/25057_962.pdf ، 2017/09/06، 17:10.

5 - معتز الخطيب، **ظاهرة كراهية الاسلام**، ثقافتنا للدراسات والبحوث، المجلد الخامس، العدد السابع عشر، 2008، ص ص 53-55.

6- المرجع السابق، ص55

7 - عبد المعطي زكي ابراهيم، مرجع سابق، ص3.

8 - معتز الخطيب، مرجع سابق، ص 57.

9- عبد المعطي زكي ابراهيم، مرجع سابق، ص 7

10- معتز الخطيب، مرجع سابق، ص 61.

11 - رابح زيغوني، **الاسلاموفوبيا وصعود اليمين المتطرف في اوروبا: مقاربة سوسيو ثقافية**، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية،ص 123، متوفرة على الرابط: http://www.caus.org.lb/PDF/EmagazineArticles/mustaqbal_421_rabhzagoni.pdf ، 2017/09/07، 10:52.

12 - مشري مرسي، **جدلية العلاقة بين الاسلاموفوبيا وحوار الحضارات**، ص ص 11-12، مقال على الرابط: http://www.univ-chlef.dz/uhbc/seminaires_2010/mersi_mechri_gualema_2010.pdf ، 2017/09/07، 14:47.

13 - رابح زيغوني، مرجع سابق، ص 127.

14 - المرجع السابق، ص 127.

15 - التقرير العاشر لمرصد منظمة التعاون الاسلامي بشأن ظاهرة الاسلاموفوبيا، مقدم الى الدورة 44 لمجلس وزراء الخارجية، ادبيجان، جمهورية الكوت ديفوار، ماي 2017، ص70.

16- المرجع السابق، ص 71.

17 - أمنة محمد علي، **أوروبا والاسلام...إختلاف الرؤى والمفاهيم العقائدية وانعكاسها على الموقف الأوروبي من الاسلام**، ص11، مقال على الرابط: https://iasj.net/iasj?func=fulltext&aId=94812 ، 2017/09/10، 8:52.



18- التقرير العاشر لمرصد منظمة التعاون الاسلامي بشأن ظاهرة الاسلاموفوبيا، مرجع سابق، ص 16.

19 - المرجع السابق، ص17.

20- لمى راجح، تر: ياسر الزيات، صعود اليمين المتطرف ومسألة اللاجئين، فيفري2017، مقال على الرابط: https://www.aljumhuriya.net/ar/content/%D8%B5%D8%B9%D9%88%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D9 ، 2017/09/10، 18:51.

21- التقرير العاشر لمرصد منظمة التعاون الاسلامي بشأن ظاهرة الاسلاموفوبيا، مرجع سابق، ص 17.

*أعلى الرتب الكهنوتية في الديانة المسيحية.

22- عز الدين عناية، **صناعة الاسلاموفوبيا في أوروبا**، الملتقى الفكري للابداع، ص6.



الإسلاموفوبيا والإرهاب: جدلية التأثير والتأثر

أ. هشام داود الغنجة – باحث دكتوراه
أ. جميلة سرنيح –باحثة دكتوراه-
المدرسة الوطنية العليا للعلوم السياسية- الجزائر-

مقدمة:

أدّى ارتفاع عدد وتنوّع أشكال الهجمات الإرهابية في أوروبا والدول الغربية عمومًا، من طرف مجموعة من الجماعات "الإسلامية" المتشددة، إلى تنامي مشاعر كراهية الإسلام في الغرب، بل وإلى تزايد الأعمال المعادية للإسلام والمسلمين في هذه الدول، خاصة في الفترة التي أعقبت أحداث 2001/9/11.

ولعلّ دراسة جدلية العلاقة بين الإرهاب والإسلاموفوبيا، أو رهاب الإسلام، تحمل في ثناياها العديد من النقاط الحسّاسة، والتي سنحاول الوقوف عندها، وتفكيك العلاقة بين مضامينها في بحثنا، بدءًا بمحاولة الوقوف عند الأسس الفكرية التي أسّست لحالة رهاب الإسلام المنتشرة في الغرب في أيامنا، خاصة من خلال استعراض أهم إسهامات المستشرقين وأعلام الفكر الغربي الذين درسوا الإسلام، فقدّموا مجموعةً من الصور النمطية عنه. وكذلك الوقوف عند مظاهر تجسيد الرّهاب من الإسلام عبر التاريخ، والتي تجسّدت أساسًا في الحروب الصليبية التي شنت ضد المسلمين.

ولن يتأتّى فهم العلاقة الجدلية القائمة بين مفهومي الإسلاموفوبيا والإرهاب إلاّ بالوقوف بعد ذلك عند مفهوم الإرهاب، ثم توضيح تأثير مختلف الهجمات الإرهابية، وكذلك مجموعة من أحداث العنف والتشدّد المرتبطة بالإسلام على صورة الإسلام في الغرب، متجسدة في مظاهر الإسلاموفوبيا، وكيف أدى ذلك إلى تحوّل هذه المشاعر العدائية من مجرد رهاب من الإسلام إلى أعمال إرهابية، أو ردود أفعال "إرهابية" تمارسها مجموعة من الجماعات المعادية للإسلام والمسلمين في الغرب.

وعليه فإنّنا نحاول من خلال هذه الدراسة معالجة الإشكالية المتعلقة بالعلاقة الجدلية بين الإرهاب والإسلام، وهل توجد هناك علاقة بينهما كما يدعي كثير من المفكرين والساسة الغربيين؟ أم أنّ

الأمر لا يتجاوز مجرد سوء فهم لمنطق الإسلام، بشكل أدى سوء الفهم هذا إلى ظهور "إرهاب غربي" من جهةٍ أخرى يُمارس ضد المسلمين

I الإرهاب وظهور فكرة الخوف من الإسلام: بداية العلاقة وتطوّرها.

إنّ اتّهام الغرب للإسلام بأنه الوجه الآخر للإرهاب ليس حديثا، كما أنّ اعتبار ظاهرة تشويه الإسلام وليدة أحداث 11 سبتمبر 2001 غير ذي وجه صحة كذلك؛ فالعداء الذي شنّه الغرب ضدّ الإسلام والمسلمين قديم قدم الدّين الإسلامي نفسه، إلاّ أنّ حدّته ازدادت في وقتنا المعاصر.

ولعل أولى مظاهر رهاب الإسلام ظهرت عند بروز الحروب الصليبية ضد البلاد الإسلامية في العصور الوسطى، ثم تطورت مع إسهامات ثلة من المفكرين الغربيين إبان عصر التنوير وبعده، الذين ربطوا بين الإسلام والإرهاب أو التشدد، كما سنوضح في النقطتين الآتيتين:

1- الحروب الصليبية وبداية تجسيد العداء الغربي للإسلام:

لم يغفل التاريخ عن تسجيل ما حدث خلال حقبة الحروب الصليبيّة (1096-1292) والمعروفة بـ "**حروب الفرنجة**" التي اتخذت الصبغة الدينية خلال العصور الوسطى، بعد أن بدأ الإسلام يتجاوز حدود الجزيرة العربية ويتقلد العرب والمسلمون الزعامة في الصراع العالمي الهادف إلى إخضاع البلاد الفارسية التي كانت تتزعم الشرق في مصارعة الغرب. وبالتالي، أتت الحروب الصليبية بدافع الطمع والكسب الذي اختلفت أنواعه خصوصا مع الفتوحات الإسلامية العظيمة التي تمّت خلال تلك الفترة، وفي الوقت ذاته عبّرت عن رد فعل نصراني مليء بالحقد ضد الإسلام والمسلمين. [1]

إنّ الدافع الديني كان حاضرا بقوة خلال الحملات الصليبية، ويظهر ذلك مثلاً من خلال إعلان البابا *"أوربان الثاني" (Urbain 2)* عن بداية شن الحروب الصليبية على الشرق الإسلامي، وذلك بعد جمعه لفرسان الإقطاع الأوربيين، ودعوتهم إلى التكتّل من أجل محاربة المسلمين "الكفار" حسبه، مستعينا بالكنيسة الكاثوليكية بهدف تعبئة الشعوب الأوروبية لهذه الحرب بواسطة إيديولوجية مليئة بالكراهية للإسلام. [2]

فقام البابا "**أوربان الثاني**" باعتباره الزعيم الأعلى للمسيحيين بتنفيذ فكرة تطهير الأماكن المقدّسة النصرانية من أيادي المسلمين، وهي نفس فكرة البابا *" قريقوار السابع" **Grégoire 7***[3]، ووجه البابا "**أوربان الثاني**" خطابه للإقطاعيين الأوروبيين كالآتي: **"يا مَن كنتم لصوصا كونوا الآن جنودا.. لقد آن الزمان الذي فيه تحوّلون تلك الأسلحة التي تستخدمونها ضد بعضكم البعض**



لتكون ضد الإسلام، فالحرب المقدسة المعتمدة الآن هي في حق الله عينه وليست لاكتساب مدينة واحدة، بل هي أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى، فاتخذوا محجة القبر المقدس، وخلّصوا الأرض المقدسة من أيادي المختلسين، وامتلكوها أنتم لذواتكم..". (4)

وصارت الحرب القائمة آنذاك حربًا دينية بين المسيحيين والمسلمين ذات أهداف سياسية، كل من الطرفين يدعي "كفر" الطرف الآخر، و"همجية" تعاليمه الدينية، كما فعل الصليبيون عندما أوقدوا الحرب بدعاوى باطلة تربط الإسلام بالبربرية والهمجية.

لكنّ أكثر ما أدّى إلى تشكل التصور الغربي الحالي عن الإسلام، الذي يربط في أغلب مضامينه بين الإسلام والإرهاب، هي أعمال مجموعة من المستشرقين ومساهمات ثلة من أعلام الفكر الغربي، في تكوين هذه الصورة، منذ عصر التنوير في أوروبا، إلى أيامنا هذه.

2- الإسلام وعلاقته بالإرهاب والعنف في الفكر الغربي:

سعى كثيرٌ من المفكرين، الفلاسفة، والمستشرقين منذ قرونٍ إلى محاولة استكشاف عالم الشرق، بما يضمه من أفكار، أديان، وأنظمة حياتية. ولعل الرغبة في استكشاف مضامين رسالة الاسلام من قبل هؤلاء كانت مدفوعةً ليست فقط بدافع المغامرة والاستكشاف، بل بنوع من رهاب الاسلام، أو الاسلاموفوبيا، باعتبار أنّ هذا الدين انتشر عنه في الغرب دعوته للحق بالسيف، وكثير من الممارسات الدينية العنيفة الأخرى التي تم ربطها بالإسلام، بشكل جعل من الاسلام دين عنف و إرهاب لدى هؤلاء.

ورغم محاججة كثيرين بأنّ الإسلاموفوبيا ظاهرة جديدة على الساحة الدولية، وبأنها رافقت ظهور ما يُطلق عليه بالإرهاب "الإسلامي"، خاصة منذ أحداث 11 سبتمبر 2001، إلاّ أنّ المشارب الفكرية الأولى لرهاب الإسلام أو الإسلاموفوبيا يُمكن استخراجها من نصوص كبار الفلاسفة والمفكرين في الغرب، الذين درسوا الإسلام فقدموا صورةً مشوهة عنه، أو لم يدرسوه أصلاً، فعاثوا في المفاهيم الإسلامية فسادًا، وصاروا يخلطون بين الإرهاب والإسلام، ويعتبرون أنّ الإسلام دين سيفٍ وحرب وعنف وإرهاب.

ولعل نصوص ***برنارد لويس Bernard LEWIS*** تشير في نقاط كثيرة منها إلى المحاججات السابقة، ففي كتابه "اكتشاف المسلمين لأوروبا" ورغم اقترابه في نقاط عديدة من الإنصاف في دراسته عن الإسلام والمسلمين، إلاّ أنّه اعتبر الإسلام ديانةً عنصرية تدعوا إلى محاربة الآخر



"الكافر"، وذلك في قوله: "وكان هذا الاختيار واضحًا للمحمديين، فإما الإسلام وإما الموت"، كخيارات متوفرة أمام غير المسلمين في حديثه عن مفاهيم دار الإسلام ودار الحرب. بل واعتبر لويس بأنّ الإسلام يستهدف إخضاع البشرية جميعًا، وادعى بأنّ هذا المشروع الإسلامي عالمي، فحسبه "الحرب هي وحدها التي يُمكن أن تؤدي إلى انتصار الإسلام العالمي، ومن المستحيل أن تنتهي هذه الحرب، ولكن من الممكن فقط أن تتم أثناءها هدنة لأسبابٍ خاصة".(5)

ويستمر انتشار وتطوّر الأفكار العنصريّة المعادية للإسلام وللحضارة الإسلامية من قبل علماء الغرب، وعلى رأسهم *"صامويل هانتنجتون"* ***Samuel Huntington*** من خلال مؤلّفه الشهير "**صدام الحضارات**"، الذي يحمل أفكارا عنصرية خطيرة مرتكزا على قناعات "**برنارد لويس**" صاحب المقال الشهير "**جذور الغضب الإسلامي**"؛ حيث تحثّ الأفكار التي طرحها هتنكتون على محاربة كل الحضارات التي تختلف عن تلك التي تسود المجتمعات الغربية وفي مقدّمتها الحضارة العربية الإسلامية(6)، قائلا في هذا الخصوص: " ..المشكلة الأساسية بالنّسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية، بل الإسلام، فهو حضارة مختلفة.. ". (7)

أمّا "**برنارد لويس**" من جهةٍ ثانية، فيرى بأنّ الإسلام والمسيحية دينان لا يلتقيان أبدا، والسّبب يكمن في أنّ كلاهما يسعى إلى نشر دعواه المختلفة في العالم كله، وكل ذلك يؤدّي إلى تنامي الصراع والعداء بينهما. (8)

ولا يمكن الإنكار بأنّه كان لأفكار "**صامويل هنتكتون**" قوّة التأثير في المواطن الغربي، وإقناعه بضرورة رفض التعايش مع الحضارات والأمم الأخرى لا سيما الحضارة العربية الإسلامية. وما زاد من مصداقية أفكاره لدى الغرب هي الهجمات الإرهابية التي تعرضت لها الولايات المتحدة الأمريكية بتاريخ 11 سبتمبر 2001، ومن هنا برز العداء الكبير الذي يكنّه الغرب للإسلام والمسلمين بربط كل عمل إرهابي بالإسلام.

غير أنّ استنتاجات هؤلاء المفكرين بيست أصيلة، بل نجد نفس المعطيات يقدمها مجموعة من أعلام الفكري الغربي في عصر التنوير، وكذلك مجموعة من المستشرقين، ففي ما يتعلق بنقطة استهداف الإسلام إخضاع العالم بأجمله لإرادة المسلمين ، والقضاء على الكفار التي طرحها برنارد لويس ، كتب الفيلسوف البريطاني ***برتراند راسل Bertrand Russel*** قائلاً: "الإسلام والبلشفية لهما



غاية عملية، اجتماعية، ومادية واحدة، بحيث أنّ بسط السيطرة على العالم هو الهدف النهائي لهما". [9]

كما كتب الاسكتلندي ***وليام موير William MUIR*** أحد كبار المستشرقين واصفًا في عبارات حادة المسلمين والإسلام: "إنّ سيف محمد والقرآن هما أكبر عدو للحضارة والحرية والحقيقة، لم يسبق أن شهد العالم لهما مثيلاً"، وقد تجلى في قوله هذا نفس التوجه الذي نهجه كثيرٌ من أقرانه من المستشرقين الذين ربطوا الإسلام بالسيف والقتل. [10]

ولعل من بين الذين درسوا الإسلام من فلاسفة الغرب، ممن خلصوا في النهاية إلى أنّ الإسلام دين "وحشية وبربرية وإرهاب"؛ المفكر الفرنسي ***مونتسكيو Montesquieu*** الذي ذكر في أحد كتاباته بأنّه: "لمن السيء للبشرية، أن يظهر دين ما عن طريق غازٍ ومحتل. والديانة المحمدية التي لا تتكلم إلا عن السيف، لا تزال تؤثر على الناس عن طريق هذه المنظومة التي أسستها". [11]

ووصف من جهةٍ أخرى أحد الآباء الروحيين للثورة الفرنسية ***فولتير Voltaire*** محمدا –صلى الله عليه وسلم–والدين الإسلامي بأبشع النعوت في قوله: "محمد المتعصب، القاسي، المخادع، ولعار الرجال، العظيم، تحول من صبي تاجر ليصبح نبيا ومشرعا وملكا". [12]

3– تبلور الصّورة النمطية عن الإسلام والمسلمين في الغرب:

كل هذه التصورات التعميمية، وكذلك الأوصاف التي حادت عن طريق الصحة من قبل رواد الفكر الغربي، نلاحظ أنها ربطت بين الإسلام والإرهاب، مدعية بأنّ الإسلام دين وحشية وسيف وإرهاب. وتبعت هذه الموجة الفكرية الغربية الحانقة على الإسلام والمسلمين مجموعة من الأحداث التي بدأت في التعاقب في النصف الثاني من القرن 20 خصوصًا، التي من أبرزها صعود حركات الإسلام السياسي، نجاح الثورة الإسلامية الإيرانية، وظهور الحركات الجهادية في حرب أفغانستان 1979، وغيرها، أدت إلى بداية تبلور صورة نمطية عن المسلمين بشكل عام لدى الغرب، فحسب **إدوارد سعيد**، فإنّ "صورة الإسلام لدى الغرب هي واحدة ثابتة لا تتغير من أي زاوية نظرتَ إليها ومهما تكن المادة التي تعرضها". ولعل ذلك يتجلى في إكثار رسامي الكاريكاتير تصوير المسلمين "كموردي نفط، وإرهابيين، وغوغاء متعطشين للدماء...". [13]

ومع مختلف الهجمات الإرهابية التي نُفذت من قبل مجموعة من الجماعات الإسلامية المتشددة، صار كره الإسلام من قبل الغرب يزداد شيئًا فشيئًا، بشكل جعل حوالي 20% إلى 30%



من النقاشات الفكرية الدائرة تتمحور حول الإسلام وعلاقته بالإرهاب والعنف، بشكل صار يُمهد لصدام ديني، أو لحروب أهلية داخلية، نظرًا لرفض كثير من الغربيين الإسلام برمته، كما **حاجج دانيال بايبس Daniel PIPES** مدير المعهد الأمريكي للشرق الأوسط Middle East Forum.[14]

هذا المعهد الأخير الذي بدوره يضم مجموعة من المحافظين الجدد والباحثين ممن يقومون بدراسات وبحوث تعطي نوعًا من الفهم الزائف للإسلام، وتحمل في طياتها معاداةً كبيرة لكافة الحركات الإسلامية مهما كان شكلها أو هدفها، ويوجد مثل هذه المعاهد العديد من مراكز البحث والتفكير الأخرى التي تعمل بقوتها الناعمة على نشر الأفكار المعادية للإسلام في الغرب. [15]

وفي مقابل ذلك، أجّج مشاعر الرهاب من الاسلام، تلك السلوكات "المتشددة والارهابية"، وردود أفعال الجماهير الإسلامية "المبالغ فيها"، حينما يتعلق الأمر بإهانة مقدسات الأمة الإسلامية، كما حدث في أحيانٍ عدة، أهمها قضية البريطاني سلمان رشدي صاحب رواية "آيات شيطانية" التي نشرها عام 1988، وأثارت ردود فعل "عنيفة" من قبل الدول الإسلامية، أهمها إصدار آية الله خميني زعيم الثورة الإسلامية الإيرانية فتوى بإهدار دم سلمان رشدي. [16]

وصار مشكل الهجرة كذلك يُفرخ العديد من التصريحات المتشددة العدائية للإسلام والمسلمين، ومن أمثلة هذه التصريحات العدائية للمسلمين في الغرب تصريح جون ***كلود بارو Jean-Claude Barreau*** رئيس مكتب الهجرة الدولية يوم 1991/9/25 بأنّ: "الدين الإسلامي هو الأكثر انغلاقا وتشددا بين الديانات، وإنّ استيعاب المهاجرين المسلمين في فرنسا يمر عبر التخلي عن ممارسة الإسلام". [17]

وكذلك الأمر بالنسبة ***لوليام باكلي William f Buckley*** الكاتب البارز في صحيفة نيوريبابليك New Republic الأمريكية، الذي قال بأنّه "لا يسع المرء أن يفكر أنّ هناك ثقافة عربية في بروكلين وجيرسي سيتي وديترويت يتغذى منها المجرمون، وينبغي علينا أن نشير بوضوح صارم إلى أنّ ثقافتنا لا تتوافق مع الأصوليين ونحتاج إلى تنظيم الهجرة إلى بلادنا بالإشارة إلى هذه القضية". [18]

4- الإرهاب و بداية تنامي ظاهرة الإسلاموفوبيا في الغرب بعد أحداث 9/11:



كانت أحداث 11 سبتمبر بمثابة أكبر حدث شاع من خلاله مصطلح **الاسلاموفوبيا** الذي يشير إلى ظاهرة الخوف المرضي التي تسود المجتمعات الغربية من الإسلام، وهي ذات الفكرة التي اقترنت بالصراع التقليدي بين الغرب والإسلام منذ أيام الحروب الصليبية [19]، وهي تتعلّق أساسا بالجانب السيكولوجي الغامض للإنسان الغربي تجاه الديانة الإسلامية. فانطلاقا من هذه الأحداث، تمّت عملية التعبئة من خلال وسائل الإعلام الغربية بأنّ الإسلام هو الوجه الآخر للإرهاب، بل هو صانعه.

- فما هو الإرهاب ؟
- كيف ساهم الإرهاب في تنامي الإسلاموفوبيا من وجهة نظر الغرب ؟

- **الإرهاب/ وقفة عند المفهوم:**

يعرّف قاموس **Le Petit Larousse** الفرنسي الإرهاب بأنّه: " **عبارة عن سلسلة من أعمال العنف التي ترتكبها منظمة أو جهة معينة من أجل خلق مناخ من انعدام الأمن أو الإطاحة بالحكومة القائمة**"؛([20] لكن تمّ وضع هذا التعريف البسيط قبل بروز ظاهرة العولمة، ودخول العالم في مرحلة جديدة مليئة بالتطورات والتغيرات على السّاحة الدولية، وهو ما انعكس على صعوبة التوصّل إلى تعريف محدّد وموحّد للإرهاب.

ومن بين التعاريف الشاملة الواردة بخصوص الإرهاب، لدينا التعريف الذي وضعه الدكتور **نبيل حلمي** مشيرا إلى أنّ:" **الإرهاب هو الاستخدام غير المشروع للعنف أو التهديد به من طرف فرد أو جماعة أو دولة ما ضد أخرى، ما ينتج عنه رعب يعرّض أرواح البشرية للخطر أو يهدّد حرياتها الأساسية، ويكون الغرض منه الضّغط على الجماعة أو الدولة بهدف تغيير سلوكاتها اتجاه مواضيع معيّنة**". [21]

ولأنّ تركيزنا من خلال هذا العمل منصب بالأساس حول نظرة الدول الغربية للإرهاب، فإنّه من الضروري أن نعرّج على تعريف التشريع الأمريكي للإرهاب، إذ عرّف القانون الأمريكي لمكافحة الإرهاب الصادر سنة 1984 الإرهاب كالآتي:

" **يقصد بفعل الإرهاب كل نشاط يتضمّن عملا عنيفا أو خطيرا يهدّد حياة البشرية، ويمثّل انتهاكا جنائيا إذا ارتكب داخل الولايات المتحدة الأمريكية أو أي دولة أخرى، وذلك بهدف نشر الرعب والقهر بين المدنيين**." [22]



أمّا في القانون الفرنسي رقم 1020/86، فجاء تعريف الإرهاب وفق نص هذا القانون بأنّه:" **خرق لقانون يقدم عليه فرد من الأفراد أو تنظيم جماعي بهدف إثارة اضطراب خطير في النظام العام عن طريق التهديد بالترهيب**". (23)

كما ساهم البرلمان الأوروبي سنة 2001 في وضع تعريف للإرهاب كما يلي:

" **يُعتبر إرهابا كل فعل يرتكبه الأفراد أو المجموعات يلجأ فيه إلى العنف أو التهديد باستخدام العنف ضد الدولة أو مؤسساتها بصفة عامة، أو ضد أفراد معينين، بهدف خلق مناخ من الرعب بين السلطات الرسمية، أو بين عامة الجمهور لأسباب انتقامية، أو معتقدات إيديولوجية أو أصولية دينية، أو الرغبة في الحصول على منفعة معينة**". (24)

وفي العموم، وانطلاقا من التعاريف السابقة، **يطلق على الإرهاب كل عمل إجرامي يرتكبه فرد أو جماعة أو دولة بهدف نشر الرعب في نفوس البشر من أجل تحقيق غاية منشودة.**

ومنذ أحداث 11 سبتمبر 2001، ازداد العداء الغربي للإسلام، ولازمه شيوع مصطلح **الخطر الأخضر** الذي يربط بين الإرهاب والمسلمين، واستمر ذلك إلى يومنا هذا، وهو ما تؤكده جملة من الإحصائيات نشرت على موقع مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية "كير" لعام 2016، فقد نشر الموقع تقريرًا عن أحوال الحقوق المدنية للمسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية؛ خلص إلى ارتفاع نسبة الكراهية ضد المسلمين في عام 2016، بنسبته 57% سنة 2015، تزامن ذلك مع ارتفاع مقداره 44% في جرائم الكراهية المرتكبة ضد المسلمين خلال المدة ذاتها؛ وارتفع معدل التعصب ضد المسلمين بنسبة 65% في الفترة ما بين عام 2014 و 2016، وتوصل التقرير الذي نشره ذات الموقع إلى أنّ جرائم الكراهية ضد المسلمين ارتفعت في المجمل بمقدار 58.4%. (25)

ويعود سبب ارتفاع نسب جرائم الكراهية ضد الإسلام والمسلمين إلى إعلان كثيرين في الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة لأمريكية الحرب ضد الديانة الإسلامية ومعتنقيها، وذلك من خلال تصوير الاسلام على انه دين عنف وإرهاب، مليء بالحقد والأنانية، وبالتالي يشكل خطرا على الحضارة الغربية وعلى البشرية برمتها. وعلى هذا الأساس عملت كل من الدول الأوروبية وأمريكا على تشويه صورة الإسلام ونشرها من خلال وسائل الإعلام بهدف تعميق شعور العداء والكراهية ضدّ المسلمين، وهي الصورة التي تأصلت في أذهان العديد من الأوروبيين والأمريكيين، وهذا يعدّ خرقا لحقوق الانسان التي تدّعي الدول الغربية الدفاع عنها. (26)



II. تنامي النشاطات الإرهابية باسم الإسلام ودورها في تغذية ظاهرة الإسلاموفوبيا وخلق "إرهاب مضاد" في الغرب.

صرّح الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي، يوسف بن أحمد، في مقدمته بخصوص تقرير حول الإسلاموفوبيا [27] قائلا: " **إنّ ما تقوم به الجماعات الراديكالية والمتطرفة من أعمال باسم الإسلام، قدّم مبررات لمن يكرهون الأجانب لكي يعززوا أجنداتهم، الأمر الذي يعرّض الصّورة الإيجابية للإسلام للخطر، ويعزّز الإسلاموفوبيا بكل أنحاء العالم**". [28]

تؤكّد هذه المقولة على أنّ الإرهاب والإرهابيين هم سبب تنامي ظاهرة الإسلاموفوبيا في الغرب، وأنه لولا النشاطات التخريبية التي تقوم بها الجماعات المتطرفة عبر العالم لما تعرّض الإسلام لمثل هكذا كراهية وتشويه من قبل الدول الأوروبية، وبالتالي تتشكل علاقة طردية بين متغيري الإرهاب باسم الدّين والاسلاموفوبيا، وتكون المعادلة كالآتي:

- **كلّما ازدادت النشاطات الإرهابية باسم الدّين عبر العالم، كلّما ازدادت حدة ظاهرة الإسلاموفوبيا في الدول الغربية.**
- **وكلّما تراجعت الأعمال الراديكالية الإرهابية على الساحة الدولية، كلّما تراجعت ظاهرة الإسلاموفوبيا في الغرب.**

ففي عام 2010، نشر مشروع حقائق المسلمين والغرب في مركز "غالوب" نتائج استطلاع للرأي العام الأمريكي عن مشاعر التعصب الأميركية ضد الإسلام، وأظهرت النتائج أنه هناك علاقة سببية بين ازدياد الشعور بالعداء للإسلام والإرهاب، وكانت النتائج لـ 53 % من الأمريكيين تجاه الإسلام كالآتي:

- 22% أبدوا رأيهم في الدين بأنه "ليس إيجابيا للغاية".
- 31%منهم قالوا "ليس إيجابيا على الإطلاق". [29]

وهو ما يبرّر الشرعية التي منحت إلى الحكومات الغربية –الأوروبية والأمريكية– من أجل طرد المسلمين المقيمين في كل من أوروبا وأمريكا واعتبار وجودهم خطرا على الهوية الأورو–أمريكية وتهديدا لمجتمعاتهما. وكان لهذه الشرعية انعكاسات سلبية وخطيرة على المسلمين هناك، لكونها



قادت إلى تصاعد الاعتداءات العنصرية ضدّهم في أوروبا وأمريكا، وكما قادت كل هذه العوامل إلى المزيد من التطرّف والعنف والإرهاب. [30]

كما تجدر بنا الإشارة إلى دور الإعلام الغربي في الترويج لفكرة الإسلاموفوبيا من خلال ربطها بالإرهاب، حيث صرّحت السيّدة ***إليسا راي (Elissa Ray)***، المتحدثة باسم لجنة "**مناهضة الإسلاموفوبيا في فرنسا**" [31] قائلة: " **عبر عشر سنوات كاملة، لاحظنا ارتباطا كاملا وثيقا بين خطاب الكراهية للإسلام والمسلمين سياسيا وإعلاميا وبين أعمال العنف التي تمارس ضد المسلمين. ويعني هذا أنه كلّما روّجت أجهزة الإعلام والسّاسة لهذه الكراهية العنيفة ضد المسلمين، كلّما شعر المواطنون بأنهم أحرار في ممارسة التمييز والعنف ضد المسلمين**". [32]

وبالتالي، كان للمتغير الإعلامي في الغرب دورًا في تنامي مشاعر الإسلاموفوبيا أو الخوف من الإسلام والمسلمين بتصويرهم على أنهم إرهابيين يسعون إلى نشر اللااستقرار والفوضى في العالم، وذلك بتضخيم الأخبار والأحداث حتّى تؤثر في الرأي العام الغربي. لذلك استمر الشّعور بالعداء للمسلمين في الكثير من الأوساط الغربية؛ ففي الولايات المتحدة الأمريكية، أضحت الجالية المسلمة عرضة لتنامي المشاعر السلبية تجاه الإسلام، وذلك بسبب عدم التفريق بين "الإسلام" و" التطرف"، والشيء الأكثر خطورة يكمن في انتقال ظاهرة الإسلاموفوبيا من الخطاب العدائي للمسلمين، لتصبح مسألة طبيعية ممنهجة ومموّلة من قبل مؤسسات وشخصيات لها وزنها على السّاحة السياسية– ونعني بذلك الرؤساء أو المرشحون للرئاسيات ومن بينهم الرئيس الحالي للولايات المتحدة الأمريكية "**دونالد ترامب**" –. [33]

1– نحو تنامي "إرهاب غير إسلامي" في الغرب:

مع ازياد ما يسمى بالهجمات الإرهابية للمتشددين الإسلاميين في دول أوروبا والدول الغربية بشكل عام، ظهرت العديد من الحركات المتطرفة في أوروبا من جهة مقابلة، وصارت كثير من هذه الحركات تُمارس تقريبًا نفس أشكال العنف الممارسة من قبل الجماعات الإسلامية المتشددة، أو ما يُمكن تسميته "بإرهاب غربي" في مقابل مصطلح "الإرهاب الإسلامي الراديكالي **radical Islamic terrorism** " التي أبدع الرئيس الأمريكي دونالد ترامب **Donald Trump** في استخدامها في جل لقاءاته التلفزيونية وفي حملته الانتخابية، ووصف بها دولاً قائمة بذاتها كالمملكة



العربية السعودية وإيران، لكنه أحجم بعد ذلك عن استخدام المصطلح بعد زيارته شهر ماي 2017 إلى المملكة العربية السعودية لاعتباراتٍ سياسية ومصلحية. [34]

من أبرز هذه الحركات المتطرفة:

– **حركة بيغيدا (Patriotic Europeans Against the Islamisation of the West):** [35]

أنشئت شهر أكتوبر 2014 في مدينة دريسدن الألمانية، وتستهدف هذه المنظمة محاربة ما تسميه "بالتطرف الإسلامي" من خلال الوقوف ضد الهجرة والمهاجرين المسلمين نحو ألمانيا. غير أنّ هذه الحركة لازالت تتعرض لانتقادات شديدة من قبل مفكرين ألمانيين أنفسهم، فقد ذكر المفكر الألماني ستيفان فايدنر في كتابه "خطاب ضد الإسلاموفوبيا في الغرب وألمانيا – مناهضة بيغيدا"، إلى أنّ مثل هذه الحركة تُميزها ظاهرتان، فالمشارب الأولى لها تعود إلى محاولات الحانقين الأوائل على الإسلام تنظيم "مؤتمر لنقد الإسلام" في كولونيا يوم 31 مايو 2008، ولاحظ الكاتب أنّ أكثر من حضروا المؤتمر، وكذلك ممن ينتمون إلى حركة بيغيدا وحركات أخرى، إما شيوعيون، كالشيوعية الإيرانية مينا آحادي، والستاليني رالف جيوردانو، والشيوعي الجديد هارتموت كراوس، إضافة إلى وجود مجموعة من الكماليين من أصول تركية ممن يحنون إلى عهد الكمالية كذلك. [36]

- **تحرك من أجل أمريكا Act For America:** [37]

تعتبر هذه المنظمة من أشد المنظمات الأمريكية تشددا تجاه المسلمين والمهاجرين إلى أمريكا وبشكل عام، وتُعرف بقربها الشديد من مراكز صناعة القرار في الولايات المتحدة الأمريكية، ولعل من أهم تجليات ذلك أنّ ***مايكل فلين Michael Flenn*** المستقيل من منصب مستشار الأمن القومي لترامب، والمعروف بعدائه الشديد للإسلام، عضو في هذه المنظمة، وهو الذي شبه الإسلام بالسرطان في أحد تسجيلات الفيديو المنتشرة عنه، وكذلك مايك بومبيو رئيس الاستخبارات في عهد ترامب، الذي يُعتبر عضوا في الحركة أيضا. [38]

وتُعتبر حوالي 50 جماعة كراهية أمريكية، أكثرها معادية للمسلمين فروعًا عن هذه المنظمة، وهي التي قامت مؤخرا يوم 2017/6/10 بتنظيم مسيرة من أجل مناهضة تطبيق الشريعة في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي العالم بشكل عام. كما تُصنف هذه المنظمة حركة الإخوان المسلمين وتنظيم الدولة معًا في دائرة الجماعات الإرهابية التي تستهدف إقامة الشريعة. [39]



وانتقد ستيفان فايدنر الأسس الفكرية التي تقوم عليها مثل هذه الحركات في الغرب، بأنها تحمل تصورا مغلوطا عن الإسلام، ومبالغا فيه كذلك، وذلك في قوله: "إنّ الصورة المنتشرة عن الإسلام في الغرب تعود إلى موقف دفاعي وخوف لا عقلاني من غزو إسلامي للعالم، كما تقوم على مبالغة في تقدير التأثير الإسلامي، ونسيان للسيطرة الغربية في ميادين السياسة والاقتصاد والعلوم، كما تقوم على توصيفات منتقصة من الإسلام، تدعمها تصورات نظرية بعيدة عن الواقع...". [40]

من جهةٍ مقابلة، يتخوف كثيرون من أنّ هذه المشاعر الإسلاموفوبيّة المتنامية في الغرب قد تؤدي إلى ظهور "**عنف مضاد**"، أي حركات معادية للمسلمين والإسلام تمارس كافة أشكال العنف ضدهم. ففي تقرير للجنة الوزارية الفرنسية المختصة في محاربة العنصرية ومعاداة السامية، سجلت فرنسا عام 2015 ارتفاع الأحداث المعادية للمسلمين بثلاث مرات، حيث بلغت 429 حادث في مقابل 133 عام 2014، ولاحظت اللجنة أنّ هذا الارتفاع تصاحب مع الاعتداءات الارهابية التي شهدتها فرنسا شهري جانفي ونوفمبر 2015، حيث أنّ الاعتداءات ضد المسلمين التي وقعت خلال هذين الشهرين مثلت وحدها حوالي 58% من إجمالي الاعتداءات المرتكبة عام 2015. [41]

أما في الولايات المتحدة الأمريكية، فهناك ميليشيات عنيفة انتشرت مثل جماعة " III% Security Force"، التي تزايدت طبيعتها المعادية للإسلام عام 2016. وأبرز تلك الأحداث تمثل في اعتقال ثلاثة أعضاء ميليشيا مؤيدين لترامب في ولاية كانساس شهر أكتوبر 2016، بسبب تخطيطهم لتفجير مجمعٍ سكني لقتل ما يقرب من 120 لاجئاً مسلماً من الصومال يعيشون هناك. [42]

كما رصد موقع هافينغتون بوست Huffington Post الأمريكي ما يقارب 400 حادث معادٍ للإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية، منها حالات عنف، وتخريب ممتلكات، وخطابات سياسية عنيفة، عام 2016. كما رصد هجوم 13 شخصاً مؤيداً لترامب على الأقل على مسلمين أميركيين، أو تهديدهم أو التخطيط لقتلهم. [43]

أمّا عن الدول الأوروبية، فلعلّ قضيّة اللاجئين التي تعاني منها هذه الدول اليوم تعدّ أقوى مقياس لتنامي ظاهرة الإسلاموفوبيا في الغرب، فلم يعد الأوروبيون يتعاملون مع اللاّجئ على أنه فرد آت من منطقة معينة، أي أنّ تصنيف اللاجئين كان يتم على أساس جغرافي أو إثني، وهذا قبل أحداث 11 سبتمبر 2001، لكن اليوم تغير الوضع، خصوصا مع تسليط الغرب الضوء على المسلمين الإرهابيين والتركيز على الاسلاموفوبيا، حيث أصبح ينظر للاجئ على أنه مسلم إرهابي،



تجوز إهانته واضطهاده. (44) خصوصا مع الهجومات التي عرفتها العديد من الدول الأوروبية ؛ باريس، لندن، ببروكسل...إلخ (45)، والتي قادت إلى تعميق الكراهية ضد المسلمين، ففي المملكة المتحدة، صدر تقرير عن مشروع– "Tell MAMA" وهو مشروع قومي يهدف إلى توثيق أعمال الكراهية المتزايدة ضد المسلمين في المملكة المتحدة– يفيد أنه في الفترة ما بين شهر مايو 2013 ويونيو 2017، شهدت المملكة 167 هجومًا على المساجد، عن طريق حرقها أو توزيع منشورات مناهضة للمسلمين. (46)

لذلك فإنّنا لا نستطيع نفي المسؤولية العربية الإسلامية في استمرار وتنامي الحرب على الديانة الإسلامية والمسلمين من قبل الغرب، وذلك انطلاقا من عدم تكثيف الجهود العربية من أجل التصدي لهذه الحرب وإيقافها والدفاع عن المسلمين وحمايتهم، وفي الوقت ذاته، لا يمكننا تجريد الدول الغربية وعلى رأسها الدول الأوروبية والأمريكية من المسؤولية في قيام العديد من الفتن التي جاءت في شكل أعمال إرهابية راح ضحيتها العديد من الأفراد باسم الإسلام، فإنه ليس من الخطأ القول بأنّ منبع الإرهاب هو الغرب ولا علاقة له بالإسلام، انطلاقا من مبدأ "لكل فعل رد فعل"، فمقابل كل إساءة للإسلام والمسلمين رد فعل من قبل معتنقي هذه الديانة، خاصة أمام الاعتداءات الإسلاموفوبية التي صارت تشهدها الدول الأوروبية والغربية عمومًا ضد المسلمين.

يقول "**يوسف بن أحمد العثيمين**" بهذا الخصوص: " **جرى ترهيب المسلمين وممارسة التمييز ضدهم، كما أهينت رموز إسلامية مقدّسة، واستهدفت جرائم الكراهية أناسا يرتدون زيّا إسلاميّا، وأسيئت معاملة سيدات يرتدين الحجاب في الشوارع والأماكن العامة**". (47)

ولأنّ السياسة الخارجية –لا سيما للدول العظمى– صارت تقوم بالأساس على "فبركة عدو"، فإنه بعد سقوط الاتحاد السوفياتي وزوال العدو الذي كانت الولايات المتحدة الأمريكية تحاربه، تمّ توجيه الأنظار نحو الإسلام باعتباره الوجه الآخر للإرهاب، و هنا نقتبس مقولة لـ " **محمد ابن عمر بزمول**" باللغة الفرنسية:

" **إنّهم–الغربيون– انتقلوا إلى خيار آخر يتمثل في محاولة تغيير وتشويه صورة الإسلام...**"

Ils sont – Les Occidentaux- donc passés à un autre choix qui est d'essayer de changer et de déformer l'image de l'Islam… (48)



وهذا ما جعل الغرب يدور في دوّامة لصعوبة وضع تعريف محدّد للإسلام والمسلمين، وكذلك تعريف واضح ومحدد للإرهاب. ما يعني أنّ الإسلام اكتسب مكانة بارزة في السياسة الغربية – ليس بالمعنى الإيجابي بالضرورة –.

2- ضرورة تعديل صورة الإسلام وفك ارتباطها بالإرهاب في التصوّر الغربي:

بعد استعراضنا لمجموعة من الأمثلة التاريخية والفكرية التي تُظهر الصورة المشوهة التي رسمها كثيرون من أعلام الفكر الغربي عن الإسلام، يُمكن القول بأنّ تجاوز هذا المنطق العقيم من التفكير لا يكون إلاّ بمحاولة استكشاف حقيقية للآخر، أي الإسلام من قبل الغرب، وفق منطق حوار بين الحضارات، تكون أسسه دراسات قدمها مجموعة من أعلام الفكر الغربي، درسوا الإسلام وعالم الشرق عمومًا، فأنصفوا ولم يرسموا صورة غير صحيحة عنهما، كما حاولوا فك ارتباط الإسلام بالإرهاب والعنف، وإظهار الوجه الحقيقي له.

ولعل من أبرز هؤلاء عالم الفضاء الأمريكي ***مايكل هارت Michael HART*** الذي اختار في كتابه: "الخالدون مائة" محمدا كأكثر شخصية تأثيرًا في تاريخ البشرية، وفسر هارت هذا الاختيار في قوله:

"لقد اخترتُ محمدًا في أول هذه القائمة، ولا بد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار، ومعهم حق في ذلك، ولكنّ محمدا عليه السلام هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحًا مطلقًا على المستوى الديني والدنيوي". (49)

وردّ فيلسوف الغرب **توماس *كارليل* *Thomas CARLYLE*** على الذين اعتبروا بأنّ الإسلام انتشر بالسيف والإرهاب قائلاً في كتابه: "البطولة وعبادة الأبطال": "لقد قيل الكثير في شأن نشر محمد دينه بالسيف، فإذا جعل الناس ذلك دليلاً على كذبه، فأشدّ ما أخطئوا، وجاروا... وأرى على العموم أنّ الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما يقتضيه الحال...". (50)

وذهبت المستشرقة الألمانية ***زيغريد هنكه Sigrid HUNKE*** في كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب"، إلى أنّ المسلمين "قد حولوا الأندلس في مائتي عام من بلد جدب فقير مستعبد إلى بلد عظيم مثقف مهذب يقدس العلم والفن والأدب، قدّم لأوروبا سبل الحضارة وقادها في طريق النور".



وانتقدت في مقابل ذلك النصوص التاريخية المتضمنة في المناهج التربوية الغربية عن العرب والمسلمين، كالنص الذي يروي حادثة فتح الأندلس: "وتدفقت جموع العرب والمتوحشين بوجوههم السوداء وخيلهم الكئيبة فوق أرض إسبانية تركها أهلها فزعا، وانثنت الأرض ألمًا تحت وقع سنابك خيولهم التي خربت الحقول وهدمت المنازل ولم تترك نبتًا ولا زرعًا". وقالت هونكه بأنّ مثل هذه النصوص هي التي صارت تغذي رهاب الإسلام أو الإسلاموفوبيا في الغرب، بربطها الاسلام بالتوحش والارهاب والعنف، خاصة وأنها متضمنة في المناهج التربوية التي يُربى على أساسها النشء. (51)

وذهب الشاعر الألماني **يوهان فولفغانغ فون غوته Johann Wolfgang von Goethe** أبعد من ذلك حين قال في "الديوان الشرقي": "إذا كان الاسلام معناه التسليم لله، فعلى الاسلام نحيا ونموت جميعًا" كما اعتبر بأنّ الاسلام والتقوى شيءٌ واحد، وراح يحكي بانبهار أحداث غزوة بدر في ديوانه بشكل يبرز مدى إعجابه بأخلاق المسلمين في التعامل مع الغير. (52)

ولعل من يتخوف من الإسلام من الغرب، من الذين يسترسلون في متابعة إبداعات الأدباء الغربيين، قراءة ما جاء به الأديب الروسي ***ليو تولستوي Léon Tolstoï*** في كتابه: "حِكم النبي محمد": "ومن فضائل الدين الإسلامي أنه أوصى خيرا بالمسيحيين واليهود، ولا سيما قسوس الأولين، فقد أمر بحسن معاملتهم ومؤازرتهم، حتى أباح هذا الدين لأتباعه التزوج من المسيحيات واليهوديات". (53)

لهذا، فقد عمل هؤلاء، وغيرهم كثيرون على إظهار الصورة السمحة للإسلام، بعيدًا عن أي تشويه، وأي ربط بالإرهاب والعنف والتطرف. لذلك فإنّ مثل هذه الطروحات قد تُوفر المخرج للتخلص من غياهب الإسلاموفوبيا وما تتضمنه من خوف غير مبرر من الإسلام والمسلمين، إذا تمت إعادة دراسة الإسلام بشكل صحيح وعلمي، من قبل الغرب، ومن قبل علماء المسلمين كذلك، للتخلص من مختلف ما ارتبط به من تشويهات وأخطاء ربطت الإسلام بالسيف والعنف، شاعت فخلقت لنا ما يُسمى برهاب الإسلام في الغرب.

يتضح ممّا سبق، أنّ العداء الغربي للإسلام قديم قدم الدّين الإسلامي نفسه، حيث أنّ حرص الدول الغربية على قيادة العالم والسيطرة على الأوضاع يعود إلى زمن بعيد، وهو جعلها تبرّر وتشرّع لنفسها جميع السّبل والوسائل في سبيل تحقيق ذلك، متخذة من "**الغاية تبرر الوسيلة**" شعارا لها.



كما لا يمكن الانكار بأنّ الغرب قد تمكّن من إلحاق الضرر بالإسلام والمسلمين وتشويه صورتهم انطلاقا من المقومات التي يتمتّع بها؛ لكن في الوقت لا تسقط المسؤولية عن عاتق العرب المسلمين، حيث أنّ كلّ اللّوم موجّه إلى الدول العربية والإسلامية المسؤولة هي الأخرى عن استمرار هذه الحرب، كونها لم تفعل شيئا لمواجهتها والدفاع عن المسلمين في العالم وحمايتهم، خاصة المتواجدون داخل هذه الدول الغربية.

وانطلاقا من جدليّة الإسلاموفوبيا والإرهاب الشائكة، ومدى تأثير وتأثّر المتغيّرين ببعضهما، يمكن أن نستخلص النتائج التالية:

- تلازمت أولى مظاهر رهاب الإسلام مع بروز الحروب الصليبية ضد البلاد الإسلامية، حيث كان الدافع الديني حاضرا بقوة خلال الحملات الصليبية.
- ركّز كثير من علماء الغرب اهتمامهم على تطوير الأفكار العنصريّة المعادية للإسلام وللحضارة الإسلامية، وذلك بوصف الإسلام بالوجه الثاني للإرهاب والعنف والتطرّف.
- مثّلت أحداث 11 سبتمبر 2001 الفرصة الكبرى للدول الغربية لتعميق هوّة الكراهية ضد الإسلام والمسلمين، والتي من خلالها ذاع مصطلح **الاسلاموفوبيا**.
- تعدّ عمليّة تعديل صورة الإسلام في العالم ضرورية، وذلك بفك ارتباطها بالإرهاب في التصور الغربي، انطلاقا من عدم إنصاف الغرب للإسلام والمسلمين، واعتبار هذه الصورة مجرّد مرآة للفكر الغربي المتآمر ضدّ الإسلام.

الهوامش:

(1)- محمد العروسي المطوي، **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب** (تونس: دار الغرب الإسلامي، 1982)، ص 27.
(2)- محمد خليفة صديق، **"ظاهرة الإسلاموفوبيا .. المغذيات والأهداف والرموز"**، في: http://www.alrased.net/main/articles.aspx?selected_article_no=7397
(3)- محمد العروسي المطوي، **مرجع سابق**، ص 45.
(4)- محمد خليفة صديق، **مرجع سابق.**
(5)- برنارد لويس، **اكتشاف المسلمين لأوروبا**، تر: ماهر عبد القادر. (القاهرة: المكتبة الأكاديمية، 1996). ص، ص. 72، 75.
(6)- مشري مرسي، "جدلية العلاقة بين الإسلاموفوبيا وحوار الحضارات" مجلة **دراسات شرق أوسطية**، نوفمبر 2010، ص.3.
(7)- المرجع نفسه.
(8)- إميل أمين، **"برنارد لويس.. زارع الألغام"**، في:
http://www.alittihad.ae/details.php?id=31553&y=2016&article=full
http://www.des-outils-pour-cerner-l-islam.com/2015/07/qui-a-dit-quoi-sur-l-islam-9-qu-en-pensaient-les-lumieres-qu-en-ont-pense-les-nazis.html



(10)- ستيفان فايدنر، **خطاب ضد الإسلاموفوبيا في ألمانيا والغرب – مناهضة بيغيدا**، تر: رشيد بوطيب. (الدوحة: منتدى العلاقات العربية والدولية، 2015). ص. 53.

http://www.des-outils-pour-cerner-l-islam.com/2015/07/qui-a-dit-quoi-sur-l-islam-11-qu-en-pensaient-les-lumieres-qu-en-ont-pense-les-nazis.html

Athéisme, **Citations sur l'islam**, sélectionnées par Georges Petitjean - 08/02/2013, 12- http://atheisme.free.fr/Contributions/Citations_islam.htm

(13)- إدوارد سعيد، برنارد لويس، **الإسلام الأصولي**. ط. 1. (بيروت: دار الجيل، 1994). ص. 37.

Le Figaro, **Mardi 2 Février 2016**, http://fr.danielpipes.org/documents/16483.pdf p. 14-18.

(15)-انظر: **الموقع الرسمي لدانيال بايبس** /http://fr.danielpipes.org

(16)- انظر: ميسون البياتي، آيات سلمان رشدي الشيطانية، مجلة **الحوار المتمدن**. العدد: 3689 - 2012 / 4 / 5 – http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=302112

(17)- حسن الباش، **صدام الحضارات: حتمية قدرية أم لوثة بشرية؟** ط. 2. (دمشق، دار قتيبة، 2005). ص. 84.

(18)-نفس المرجع، نفس الصفحة.

(19)-محمد أجغوغ، **"ظاهرة الإسلاموفوبيا: الأسباب النفسية والفكرية والتاريخية"**، في: http://www.sasapost.com/opinion/islamophobia-2/

, sur :"Le Terrorisme en question"Sans auteur, 20- file:///C:/Users/galaxy/Downloads/terrorisme.pdf

(21)- حسنين المحمدي بدوي، **حقوق الإنسان بين مطرقة الإرهاب وسندان الغرب** (الإسكندرية : دار الفكر الجامعي، ط1، 2004، ص.61.

(22)- نفس المرجع.

(23)- محمد عزيز شكري ،أمل اليازجي، **الإرهاب الدولي والنظام العالمي الراهن ؛ حوارات القرن الجديد** (سوريا: دار الفكر، 2002)، ص .51

(24)- **الوافي سامي، "الإرهاب : بين الاتفاقيات الدولية و التشريعات الوطنية"**، المركز الديموقراطي العربي، في: http://democraticac.de/?p=43304

(25)- المركز الأوروبي لدراسات مكافحة الإرهاب والاستخبارات، **"تنامي ظاهرة "الإسلاموفوبيا" وانعكاس خطرها على امن المجتمعات داخل أوروبا"**، في: https://goo.gl/hDFY2E

(26)- السيد زهره، **هجوم باريس والحرب الجديدة على الإسلام والمسلمين منابع الإرهاب في الغرب**، http://www.albasrah.net/ar_articles_2015/0115/zahra_300115.htm

(27)- *تشير ظاهرة **"الإسلاموفوبيا"** إلى **"التحيّز ضدّ الإسلام"**، وهي تعني حسب **آلان كيلين (Alain Quellien): "الإسلاموفوبيا - كان هناك، ولا يزال، تحيز ضد الإسلام من قبل الحضارة الغربية والمسيحية، وبالنسبة للبعض، فإن المسلم هو العدو الطبيعي الذي لا يمكن التوفيق بينه وبين المسيحيين والأوروبيين، والإسلاموية هي ضد الحضارة، ومرادفة للهمجية وسوء النية والقسوة التي يمكن أن نتوقعها من المسلم ". في:**

, Sur :" Islamophobie ou racisme antimusulman ?"Mohammed Moussaoui, http://www.umfrance.fr/images/Islamophobie-CNCDH-octobre-2013-Vf.pdf

(28)- المركز الأوروبي لدراسات مكافحة الإرهاب والاستخبارات، **العلاقة الجدلية بين الإرهاب باسم الدين وتنامي الإسلاموفوبيا**، في: http://www.europarabct.com/36904-2

(29)- مجلة العرب الدولية، **"سياسة الإرهاب تغذّي الإسلاموفوبيا في الغرب"**، في: https://goo.gl/rTyDNu

(30)- السيد زهره، **هجوم باريس والحرب الجديدة على الإسلام والمسلمين منابع الإرهاب في الغرب، مرجع سابق.**

(31)- لهذه اللجنة أنشطة عديدة، وتصدر تقريرا سنويا ترصد فيه مظاهر وأبعاد كراهية الاسلام والمسلمين، وترصد رقميا الاعتداءات العنصرية التي يتعرضون لها، وتقدم توصيات لمواجهة الظاهرة.

(32)- السيد زهره، **مرجع سابق.**



33- **Dixième Rapport de l'observatoire de L'OCI SUR l'Islamophobie**, 44éme Conseil des Ministres des affaires étrangères, (Côte d'Ivoire : 10-11 juillet 2017) , p.13.

34- See : Slate, **Trump Finally Understands Something**, 25/05/2017, https://goo.gl/36gpib

(35)- انظر: **الموقع الرسمي لمنظمة بيغيدا:** http://www.pegida.de/

(36)- ستيفان فايدنر، مرجع سابق. ص. 68.

37- See : http://www.actforamerica.org/confronting_terrorism

(38)- هافينغتون بوست عربي، **"مذهب سياسي شرير": تضاعف الجماعات المعادية للإسلام 3 مرات بفضل صعود ترامب**، 2017/2/23. http://www.huffpostarabi.com/2017/02/23/story_n_14954418.html

(39)- نفس المرجع.

(40)- نفس المرجع، ص. 75.

41- Délégation Interministérielle à la Lutte Contre Le Racisme et l'Antisémitisme DINCRA, **Chiffres des actes racistes, antisémites et antimusulmans, Bilan 2015.** 20/01/2016. http://uvyk.mjt.lu/nl2/uvyk/ls6.html?a=1yGAmRRSdx&b=ed48e45f&c=uvyk&d=e2d8daa0&e=b356eb10&email=zied.ounissi@pm.gouv.fr

(42)- هافينغتون بوست عربي، **"مذهب سياسي شرير": تضاعف الجماعات المعادية للإسلام 3 مرات بفضل صعود ترامب**، مرجع سابق.

(43)- نفس المرجع.

(44)- كامليا انتخابى فرد، **" 2017 هو عام الإسلاموفوبيا في الغرب"**، في: https://arabic.cnn.com/world/2017/01/02/opinion-2017-islamophobia

45- Voir: Yasser Louati , **Le Rapport Européen sur l'Islamophobie 2016**,(Avril 2017). pp .27-29.

Voir aussi**: Le Rapport Collectif Contre l'Islamophobie en France**, 2017.

(46)-بوابة الأزهر، **"ظلال التعصب والكراهية واستقطاب الشباب وتجنيدهم"**، في: http://www.azhar.eg/ArticleDetails/ظلال-التعصب-والكراهية-واستقطاب-الشباب-وتجنيدهم

(47)- المركز الأوروبي لدراسات مكافحة الإرهاب والاستخبارات، **العلاقة الجدلية بين الإرهاب باسم الدين وتنامي الإسلاموفوبيا، مرجع سابق.**

48- Muhammad Ibn Omar Bazmoul, **Que cache l'islamophobie ?,** Sur: http://www.an-nassiha.com/doc/Que_cache_l%27islamophobie.pdf

(49)- مايكل هارت، **الخالدون مائة**، تر: أنيس منصور. جدران المعرفة للنشر الالكتروني: http://www.acc-house.com.eg/UserFiles/393File20501.pdf

(50)- توماس كارليل، **محمد المثل الأعلى**، تعريب: محمد السباعي. ط 1. (الجيزة: دار طيبة، 2008). ص. 94.

(51)- زيغريد هونكه، **شمس العرب تسطع على الغرب**، تعريب: فاروق بيضون، وكمال دسوقي. ط 8. (بيروت: دار الجيل، 1993). ص. 539-540.

(52)- يوهان فولفغانغ غوته، **الديوان الشرقي للمؤلف الغربي**، تر: عبد الرحمان بدوي. (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بدون ذكر سنة النشر). ص. 37.

(53)- ليو تولستوي، **حِكم النبي محمد**، دراسة وتقديم وتعليق: محمود النجيري. ط 1. (الجيزة: دار طيبة، 2008). ص. 44.



الفصل الثاني: الإدراك السياسي لظاهرة الإسلاموفوبيا



بناء الخريطة الإدراكية للإسلام والمسلمين في الغرب: الإسلاموفوبيا واقعا

د/ حميداني سليم
أ/بن سعدون اليامين
جامعة 8 ماي 1945 قالمة -الجزائر

مقدمة

ظل للإسلام حضور في الغرب كجزء من الجماعات الاعتقادية المنتشرة هناك، وعلى مدار عقود لم تبرز الحساسية نحوه كدين، أو نحو معتنقيه كجزء مختلف ضمن المجتمعات الأصلية التي تحكمها قيم العلمانية، وتناضل لإعلاء قيم المواطن واحترام الحقوق، غير أنه –وخاصة في السنوات الأخيرة–أسفر هذا التواجد عن حالة من الحساسية التي يمكن تلمس مظاهرها في المجتمعات الغربية تجاه هذا الدين من جهة، وتجاه معتنقيه من جهة ثانية، وتبلورت هذه الحساسية بحالة من الخوف والارتياب بشأن سلوكات المسلمين، أو القبول بهم كمواطنين كاملي الحقوق في الغرب، وأصبح هذا الوضع يختصر فيما يطلق عليه الإسلاموفوبيا، كمصطلح خرج من تداول فئوي ضيق، إلى تداول على نطاق أوسع، خصوصا مع ارتباط استخدام وسائل الإعلام الغربية للمصطلح – في الغالب– بظواهر سلبية عدة، مثل وقوع أو إحباط أحداث إرهابية تستهدف المجتمعات الغربية، بما يثير تساؤل الغربيين حول وجود توجهات معادية للغرب وسط الأقليات المسلمة بالبلدان الغربية، وحول توجهات المجتمعات الغربية ذاتها تجاه الإسلام والمسلمين.

إن وجود ارتفاع خطير في الحوادث التي تجري في سياق رهاب الإسلام، والطابع الأساسي لتلك الممارسات هو تأصيل معاداة الإسلام والحساسية المفرطة تجاه معتنقيه، بالإضافة إلى الشرعنة العلنية لرهاب الإسلام في النقاش الفكري الأكاديمي والاعلامي، والتضييق على الدعوة للإسلام تحت مبرر الضرورات الأمنية، والربط التعسفي بين الإرهاب كنشاط اجرامي، والإسلام كمحرض عقائدي عليه، ورغم الدعوات المتزايدة لاتخاذ إجراءات واسعة لاستئصال تلك النزعة بشكل فعال، إلا ان هذه النزعة حققت من الرسوخ في الوجدان والعقل الغربي، ما جعلها أحد أدبيات التعايش الحذر في المجتمعات الغربية إزاء المسلمين وعقيدتهم.



إن هذا الرسوخ يدفع نحو تتبع الخريطة الإدراكية للمعنيين بظاهرة الاسلاموفوبيا في الغرب، وفهمها من خلال البناء والافرازات، وهو ما ستسعى هذه الورقة البحثية للتعرض له.

المحور الأول: بناء الخريطة الإدراكية للإسلاموفوبيا

ينشئ كل فرد خريطة إدراكية هي مجموع توقعاته للعلاقة بين السلوك والنتائج وتتضمن هذه الخريطة جملة العقائد والاستعدادات المعرفية[1]، ولقد تمت الاستفادة من نظريات علم النفس في التعامل معها –كمفهوم يدخل حقل العلوم السياسية–مع نشأة علم النفس السياسي، والدراسات التي تطرقت إلى الخريطة الإدراكية للساسة [2] –وهي على قلتها–بقيت محتفظة بالمفاهيم الأساسية التي توظف في ميدان علم النفس، وهي: المثير والاستجابة، الصورة وآليات التعلم.

إن الطرح الادراكي لظاهرة الاسلاموفوبيا يتأسس على وضوح جملة من التقاطعات بين حقول معرفية متعددة، تشمل التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس والاقتصاد والدين، مواكبة مسألة الاندماج والتعدد الثقافي في المجتمعات، بما يحيل إلى حقيقة صعوبة طمس التباينات وحدود الاختلافات بين المجموعات البشرية في مجتمع واحد، ويثير ذلك ثنائية نحن وهم، معززة بتراث وتراكم تسنده الاحداث والتلقين العائلي والثقافة المجتمعية، وأطر المقاومة للحفاظ على الذات والهوية، والواقع أن المخاوف التي يجري ترجمتها تحت مفهوم الفوبيا تشير إلى أن مصطلح الاسلاموفوبيا استعير – في جزء منه– من علم الاضطرابات النفسية للتعبير عن ظاهرة الرهاب، أو الخوف المرضي من الإسلام. [3]

أولا: حوافز بناء الخريطة الإدراكية للإسلاموفوبيا

يمكن استعراض هذه الحوافز على النحو التالي:

01–التصورات الذهنية عن الإسلام والمسلمين:

تنشأ الإسلاموفوبيا في الأساس من خلال ما يكوّنه الأفراد في الغرب من صور ذهنية عن الإسلام والمسلمين، سواء في تصرفات أو ردود أفعال المسلمين وتوقعها، إنها ما يمكن وصفها بالصور النمطية عن الإسلام والمسلمين، وهي صور متوارثة، وعميقة جدا في الوجدان التاريخي، تؤصل لحالة من الخوف الشديد من التواجد الإسلام في الغرب، واحتمالية أن يتحول ذلك التواجد إلى عملية غزو وفتح، يجعل الأوروبيين يفقدون استقلالهم السياسي وحريتهم، وفي هذا الإطار يقول المستشرق النمساوي ليوبولد فايس***Léopold Weiss*** :



إن الغربيين لا يرون في تعاليم الإسلام إنكارا لكثير من معتقداتهم الدينية فحسب، ولكنهم ينظرون إليه على أنه خطر سياسي أيضا. [4]

التي ستكون أساسا لتصرفات تمييزية ضد المسلمين، وقد تأخذ هذه التصرفات صورة المطالبة بسياسات تحد من حقوق وحريات مسلمي الغرب المدنية، أو تخضعهم لمراقبة متزايدة من قبل السلطات الأمنية، وقد تأخذ صورة انتشار لمشاعر سلبية تجاه المسلمين داخل المجتمعات الغربية كرفض العيش بجوار جيران مسلمين ورفض بناء المساجد والمؤسسات المسلمة [5]، وقد تنفجر أحيانا في صورة أحداث عنف وتمييز وجرائم كراهية ضد المسلمين، وهي أحداث توثقها بعض المنظمات المسلمة ومنظمات الحقوق المدنية الغربية.

يمكن القول أنّ إطار الإسلاموفوبيا ليس تجسيدا لصراع مادي بين الغرب والمسلمين، بقدر ما هو صراع بين الصور المنحرفة التي تكونها المجموعات الدينية المسيحية والمسلمة عن بعضها البعض، وتتعزز هذه التصورات الخاطئة من خلال تكرس حالة من التعود على صورة سلبية للإسلام، وهو تعود يفتح إطارا لعدم الأخذ بالمؤشرات التي تشير إلى خلاف الوضع والصور المستحضرة لدى الأفراد عن الإسلام والمسلمين.

2–التشبث بقناعات الإسلاموفوبيا:

يتبلور هذا التشبث في إصرار صلب واعتقاد حازم بصحة الموقف السلبي بشأن الإسلام والمسلمين، حتى ولو برزت مؤشرات تناقض ذلك الاعتقاد، بل إن الأمر يتعداه نحو سلوك أحكام مسبقة وتسريع تجريم سلوكات المسلمين، وفي سياق أجواء من الخوف المرضي يجري الارتياب من كل شيء يمت للإسلام والمسلمين بصلة، فيوم 14 سبتمبر 2014، ركّب الطفل الأميركي من أصل سوداني أحمد محمد بقدرته الذاتية ساعة رقمية إلكترونية وأراد تقديمها لمعلمته بالفصل، فتوجست الأخيرة وأبلغت الشرطة، حيث تم اعتقال أحمد وهو صبي لا يتجاوز عمره 14 عاما؛ بتهمة حيازة حقيبة تشبه قنبلة موقوتة، وبعد التحقيق مع أحمد، تم التراجع عن التهم وأطلق سراحه[6]، بما عنى فكرة أنه من المرجح جدا في الغرب أن تتعزز اتهامات الاجرام والإرهاب على الشخص، إذا كان مسلما أو من أصول إسلامية.

يفرز التشبث بقناعات الاسلاموفوبيا سعيا لتأويل مجريات الأحداث لتتطابق مع هذه القناعات، فرئيس حزب الحرية الهولندي والنائب في البرلمان الهولندي خيرت فيلدرز *Geert Wilders* دعا عبر



رسالة مفتوحة نشرتها صحيفة "دي فولكسرانت" *De Volkskrant* تحت عنوان "امنعوا القرآن"، إلى حظر القرآن في هولندا، معتبراً أنه لا مكان لهذا الكتاب "القاسي والخطر"، مقارناً بينه وبين كتاب "كفاحي" لهتلر![7]، وصرح في مقابلة تليفزيونية بشأن ظاهرة الإسلاموفوبيا قائلا: "...**في رأيي الإسلام إيديولوجيا فاشية، والقرآن كتاب فاشي...**".[8]

يعزز هذا التشبث أيضا ما يمكن تسميته في دراسات الإدراك بالمخاوف المستدعاة ***Evoked Set*** ، وهي عبارة عن شكوك تصادف الأفراد وتربط بمؤشرات تؤدي لتعزيز هذه المخاوف[9]، حيث يرى جيورج جانيز فاين***George Gaynes Fain*** السكرتير الخاص للبابا السابق بنديكتوس السادس عشر ***Benedictus16*** أنه يتعين على أوروبا ألا تتجاهل المساعي الرامية لإدخال القيم الإسلامية في الغرب، وهو ما يمكن أن يهدد حتى هوية القارة[10]، وتبعا لهذه المخاوف والشكوك نشأت حالة من التجند والاصطفاف الغربي لاحتواء ومحاصرة الإسلام ، والتضييق على أتباعه كإجراء وقائي.

3-حالة الجهل بالآخر:

نشأت الإسلاموفوبيا من خلال تكرس حالة من القطيعة الفكرية ، وانعدام التواصل بين المسلمين وغيرهم، بما أفرز لدى المواطنين في الغرب حالة من الحذر ومستوى من الجهل أو العداء للإسلام، وهو مستوى صنعته المناهج المدرسية ووسائل الإعلام في الدرجة الأولى، وساهم فيه المسلمون في الغرب عموما نتيجة قدر لا بأس به من "الانعزالية" من جانبهم[11]، هذا الجهل أو العداء، كان من وراء المخاوف الأولى التي انتشرت بين عامّة السكان ، عندما أصبحت آثار الصحوة الإسلامية ظاهرة للعيان في الدول الأوروبية نفسها، رغم أن تلك الآثار اتخذت مظاهرا بسيطة نسبيا كانتشار الحجاب بين الفتيات، وازدياد إقبال الشباب على المساجد.

انتقل هذا العداء بصورة شاملة منذ مطلع تسعينيات القرن الماضي من فئة المستشرقين فيما مضى، ومن مستوى الكتب المدرسية والكنسية ووسائل الإعلام والترفيه، إلى أعلى أجهزة صناعة القرار الغربي في القطاعات الأمنية والسياسية والفكرية.

4-عقدة الاستعلاء والتفوق:

تتمثل هذه العقد في حالة من الاعتقاد بالعظمة والتفوق الغربيين، حيث جاهر مثلا رئيس الوزراء الإيطالي الأسبق سيليفو برلسكوني***Silvio Berlusconi*** بهذه العقدة حين تحدث صراحة عن



تفوق الحضارة الغربية على الحضارة العربية الإسلامية[12]، كما أن دانييلا سنتاكي ***Daniela Cintaki*** وهي مرشحة سابقة لرئاسة الوزراء تبرز بوضوح لديها هذه العقدة، حيث تقول:

أعتقد أن الثقافة الغربية هي ثقافة أعلى، فهي تضع كرامة الإنسان في المقدمة، وهذا أمر لا يوجد في الحضارة الإسلامية...أولئك الذين يريدون أسلمة أوروبا، إنهم دعاة الكراهية، إنهم تفاح متعفن، أولئك الذين يريدون الدوس على ثقافتنا وقوانيننا وتقاليدنا، ولحسن الحظ فإن البعض منّا يتصدى لهم. [13]

تمتد هذه العقدة أيضا إلى حالة من الرفض والاستخفاف بالرموز الدينية للمسلمين كالحجاب والنقاب، من خلال اعتباره رمزا للدونية والاستعباد، وللمساجد باعتبارها أوكارا للإرهاب، أو تشويها للعمران الأوروبي، وفي هذا الصدد يقول رئيس حزب القوى الجديدة الإيطالي روبرتو فيوري:

نحن لسنا ضد بناء المساجد فحسب، بل مع منعها لأنها تؤثر على النمط المعماري للمدينة، إنني أعتبر أنه من الظلم في مدينة مثل روما أو البندقية، بل في كل المدن الإيطالية التي لها طبيعة معمارية تاريخية، ولها لونها وأشكالها، من الظلم أن يدخل عليها هذا الشيء الغريب (المسجد).[14]

4-تداعيات الواقع الاقتصادي المتأزم

عملت الأزمة الاقتصادية على توحد الغرب والأقطار الأوروبية خصوصا على صعيد واحد، فالبطالة التي تعد أهم إفرازات الأزمة، تظهر نقاط ضعف المجتمعات الأوروبية لأنها توقظ فيها هواجس الأمان الوظيفي وغموض المستقبل، ثم سرعان ما تتحول هذه الهواجس إلى مشاعر عدائية ضد المهاجرين بوصفهم يزاحمون المواطنين الأصليين في أرزاق أبنائهم ووظائفهم، والحل أن يتم إيقاف هجرتهم، باعتبارهم إما مزاحمين للمواطنين الأصليين بشأن العمل، أو متواكلين على الدولة ومصدر إجرام فيها، وهي النظرة التي جعلت خيرت فيلدرز الزعيم الهولندي يتعهد بفرض حظر على هجرة المسلمين إلى هولندا وإغلاق المساجد في البلاد، إذا فاز برئاسة الوزراء في مارس 2017، قائلا:

هناك الكثير من حثالة المغاربة في هولندا، وهم الذين يجعلون شوارعها غير آمنة، وإذا أردتم أن تستعيدوا بلادكم، وتجعلوا هولندا للهولنديين، يمكنكم أن تصوتوا لحزب واحد فقط. [15]



لقد أثارت حدة خطابه العدائي مخاوف الهولنديين بشأن إمكانية حدوث مسار صدامي في المجتمع الهولندي، ولم يفز فيلدرز برئاسة الوزراء كما كان يتطلع.

تتضاعف المخاوف الاقتصادية، مع الأعداد المتزايدة من المهاجرين، خصوصا وأن هؤلاء على استعداد للعمل تحت جميع الظروف الصعبة وبأجور أدنى، ودون أي امتعاض أو بحث عن الإغراءات والحوافز، فيتحول بالتالي النقد من السلطة المركزية إلى الوافدين الجدد، ثم يزداد النقد والبغض لكل ما يشير إلى هؤلاء من ثقافة ورموز دينية، وهي الرموز التي تكون أوضح لدى المسلمين في صلواتهم وهندامهم وطرق معاملاتهم، وفي جانب أخر أدت معايير الغرب المبنية على الاستحقاق والكفاءة إلى تفوق كثير من أبناء الجاليات المسلمة، وهو ما سبب امتعاضا شديد خاصة لدي اليمين الغربي، فالأحزاب اليمينية مستاءة من قدرة الأقلية المسلمة في أن تكسر الحاجز بينها وبين شرائح المجتمع الأوروبي من خلال اندماجها في مكونات المجتمع كمواطنين أوربيين يتميزون بالجدارة والتفوق العلمي والمهني.

ثانيا: آليات تشكل الخريطة الإدراكية للإسلاموفوبيا

تتشكل الخريطة الإدراكية للأفراد الأكثر ميلا للوقوع في الإسلاموفوبيا في الغرب للإسلام والمسلمين عبر سلسلة من الخطوات تتمثل في الآتي:

1-الانتباه الانتقائي *Selective Attention*

يعد هذا الانتباه عملية يقوم بها الفرد في الغرب في مواجهة مجموع الحوادث الكثيرة، والتي تعبر عن نشاط المسلمين، وهي حوادث تأتي كتلة واحدة، وكخليط غير منتظم، لذا يسعى الفرد إلى محاولة فهمها والإحاطة بحيثياتها، فيتم انتقاء بعض الحوادث التي ينطبع في ذهن الفرد أن لها الأولوية، أو أنها الأحداث الأساسية، أو أنها المعبرة عن حقيقة الإسلام، وخاصة تلك الأحداث العنيفة، وفي هذا الصدد يقول خيرت فيلدرز زعيم حزب الحرية الهولندي، وأحد أهم رموز التوجه الإسلاموفوبيي في الغرب:

"...**عندما يقوم شاب مغربي عمره 16 سنة بضرب رجل مثلي "شاذ" ثم يلقي به في الماء، فإن الأمر لا يتعلق بعوامل اجتماعية أو اقتصادية، إذ لا يوجد بوذي مثلا يقوم بذلك.**" [(16)]

كذلك الأمر حين يتعلق الأمر بجرائم الشرف، أو الاعتداء أو إساءة معاملة النساء، أو الإرهاب المعلوماتي أو استهداف الطائرات أو وسائل النقل العامة، أو ما ينقل من العالم الإسلامي من



أحداث دامية كما كان الوضع في وحشية المجازر في الجزائر باسم الإسلام أو ما هو عليه الآن في العراق وأفغانستان.

2-استقبال المؤثرات الحسية *Reception*

يتم توظيف الحواس في نقل المعلومات التي خضعت للآلية السابقة، وتبرز في هذا الإطار حاسة البصر التي توظف في الناحية الإعلامية، فقد تحوّل الإسلام في أقل من نصف قرن، من دين له وجود هامشي في أوربا إلى أحد الجماعات الاعتقادية الأساسية هناك، ولم يكن هذا التحول يجول بخاطر أحد؛ لا رجال الأعمال الذين استقدموا قوة العمل الرخيصة، ولا الحركات الإسلامية التي لم توجه أساسا نشاطها السياسي أو الدعوي للعالم الغربي(17)، ولا الساسة الغربيين الذين طالما نظروا إلى الجماعات الاعتقادية من منظور القوة الانتخابية، أو الثقل السكاني المرجّح، وإزاء هذه الزيادة يجري الدفع نحو اعتماد صورة سلبية يجري توظيفها على نحو واسع في الغرب، وهو توظيف يطرح مشكلة على مستويين: (18)

المستوى الأول: يجسد الصورة المشوهة والمضللة للإسلام والتي تفنّنت في صناعتها جهات عديدة من خلال وسائل الإعلام والصناعات الثقافية المختلفة من أفلام ومسلسلات وكتب ومنشورات، فقد قام مثلا القاضي براين ليفرسون ***Brain Leverson*** في عام 2011م بتحقيقٍ في مناخ وممارسات العمل الصحفي في بريطانيا بعد فضيحة التنصُّت على الهواتف والتي تسبّبت في إغلاق صحيفة ***News of the world***، استغلت منظمة ***IENGAGE*** الإسلامية تلك المناسبة لإثارة قضية الإسلاموفوبيا في الإعلام البريطاني، وحسب تقرير ليفرسون النهائي فإنّ التحقيق جمع ما يكفي من الأدلة على أنّ بعض الوسائل قد قامت عمداً بتلفيق قصصٍ ليس لها سندٌ حقيقي بل فقط بهدف تلبية الطلب على هذه الأخبار من جانب بعض القرّاء، وحدّد التقرير مطبوعةً بعينها هي الـ ***Daily Star*** كإحدى الجرائد التي نشرت قصصاً عن المسلمين، مع العلم بأنها غير حقيقية. (19)

المستوى الثاني: يشير إلى الضعف الكبير والغياب شبه التام للمخرجات الإعلامية، والصناعات الثقافية العربية والإسلامية التي تقدم الإسلام للآخر، وتسوّق صورة الحضارة الإسلامية والمسلمين على حقيقتها.

3 -عملية تنظيم وترجمة المعلومات الحسية إلى مغزى عقلي: *Organization*



تتم هذه المرحلة في ذهن الفرد من خلال تحويل المؤثرات الحسية ودلالاتها العصبية إلى مضمون جديد هو المضمون العقلي، ويمكن الحديث عن المعلومات المستقبلة بآلية الرسالة **Message** حيث يترجم الأفراد الرسائل التي يتلقونها استنادا على ما يعتقدون أن الرسالة تعنيه وعلى، مصدر الرسالة. [20]

1-ما يعتقدون أن الرسالة تعنيه، وهنا يظهر بوضوح إضفاء الدلالات العقلية، حيث يربط بين جوانب أو تصرفات أو مظاهر معينة خاصة بالإسلام والمسلمين، ومن ثم إطلاق الأحكام، وفي الغرب عموما وتبعا لحالة الحذر السلبي تجاه الإسلام والمسلمين، أصبح من غير السهل أن تكون مسلما، بل إن الانتساب إلى الإسلام يمكن أن يلغي هوية الفرد الغربية، وفي هذا الشأن تقول إيطالية أسلمت(2006):

بمجرد أن ارتديت الحجاب نظر إلى الإيطاليون على أنني عربية بل أجنبية، رغم أنني إيطالية أبا عن جد. [21]

2-مصدر الرسالة؛ حيث تنشط آلية الذاكرة بالنسبة للفرد من خلال عنصر الماضي والتجربة، وانطلاقا من الرؤى السابقة يرى المصابون بالإسلاموفوبيا أن العداء للإسلام والمسلمين والتحيز ضدهم أمر طبيعي ورد فعل تلقائي على طبيعة المسلمين الشريرة، لذا فهم يساندون التمييز ضد المسلمين وحشد قوى الغرب في حرب ضد الإسلام وأتباعه.

4-التحويل *Transformation*

تحدث هذه العملية بعد الحصول على مضمون عقلي للمعلومات، فيتم إضفاء التصورات على هذه المعلومات المترجمة، واختزال الفروق وفق الآليات التالية:

4-1-القرب والتجاور *proximity*

يتم ذلك من خلال اختزال الفروق بين العناصر أو الأحداث القريبة من بعضها البعض بعامل التجاور حيث يتم النظر مثلا إلى الفرد القادم من شمال إفريقيا أو من الشرق الأوسط – باستثناء إسرائيل–على أنه مشروع إرهابي في أي وقت، مادام قادما من منطقة تتميز بالعنف، لهذا يخضع كل القادمين من مناطق جغرافية مسلمة معينة لإجراءات خاصة، ويعزز هذا الحكم خاصة حدوث أحداث عنف كان مصدرها أفراد من تلك المناطق، يرجع المستشرق الفرنسي جاك بيرك ***Jacques Berque*** عوامل خوف الغرب من الإسلام إلى ثلاثة أسباب: [22]



– إن العرب والمسلمين هم الأكثر قربا من حيث الجوار الجغرافي.

–إنهم الأكثر شبها من حيث الثقافة.

– إنهم الأكثر عداوة بسبب ذكريات الماضي الاستعماري.

4-2-التجانس *Homogeneously*

ينظر في عملية التحويل إلى العناصر المتشابهة على أنها تتميز عن غيرها، وهذا التجانس ينطبع في ذهن الفرد من خلال الإطار الثقافي، وبالتالي ينظر إلى المهاجرين بحالة من المفاضلة، وكما يرى صامويل هانتنغتون ***Samuel Huntington*** فإن العداء الأوروبي انتقائي بدرجة لافتة، قليلون في فرنسا قلقون بخصوص هجوم ضار من الشرق، البولنديون على أية حال أوروبيون وكاثوليك، العداء في معظمه موجه للمسلمين، فكلمة مهاجر مرادفة عمليا لكلمة الإسلام. [23]

4-3-الاستمرارية *continuity*

تتجلى هذه الآلية من خلال النظر إلى الظواهر والأحداث من خلال سياقها الزمني وامتداداتها التاريخية، أو المكانية، وانعدام القطيعة بينها أو فيها أثناء هذه الامتدادات، فاستمرار الأعمال المسلحة باسم الدين الإسلامي ، والتداول الإعلامي اليومي للمخاوف المقترنة بنشاط الجماعات الإسلامية ، يدفع نحو تأثير التصورات على المعلومات الواردة، ومضمون هذه التصورات أن الوضع العالمي يتميز بخطر وتهديد دائم للأمن والسلم مصدره المسلمون، وأن إمكانية عزوف المتطرفين عن خيار العنف غير وارد، حتى في حالة الأحكام القضائية القاسية التي يقابلها هؤلاء بترحاب، لذا يصبح الأمر وفق النمط التالي : متطرفون يموتون، آخرون يحلون مكانهم، ويقول برنارد لويس ***Bernard Lewis*** في هذا الصدد:

يرى الغرب في الإسلام منذ انطلاقته الأولى، دينا مقاتلا، لا بل عسكريا في حقيقة الأمر، ويرى في أشياعه أنهم أولئك الناس المحاربون المتعصبون والمنهمكون بنشر عقيدتهم وشريعتهم بالقوة المسلحة. [24]

4-4-المصير المشترك *The same destination*

ينصرف هذا العنصر إلى كون الظواهر التي تتحرك في اتجاه واحد لها نفس المصير، فالشعور الداخلي للأفراد بأنهم يشتركون مع آخرين في مواجهة وضع معين يدفع إلى تكوين تعريف للوضع على هذا الأساس، فبالنسبة للأفراد في الغرب أن هناك خطر أسلمة متنام، وفي هولندا مثلا



أصبح اليمين المتطرف يحذر بشدة من تزايد عدد المسلمين فيها، حيث يقول خيرت فيلدرز Geert Wilders:

اتجاه أسلمة هولندا تطور خطير، الإسلام دين إمبريالي، لقد تجاوزنا الحدود في أسلمة بلدنا، بلد فيه ستة عشر مليون ساكن، مليون ساكن لهم ثقافة أنا أعتبرها دون الثقافة المسيحية اليهودية الإنسانية. (25)

ضمن تصاعد هذه المخاوف من الإسلام، وإعادة تعريف الوضع الدولي ومصادر التهديد الكامنة فيه، قالت رئيسة الوزراء البريطانية السابقة مارغريت تاتشر *Margaret Thatcher* بعد نهاية الحرب الباردة:

يقف الغرب اليوم مع الشرق الأرثوذكسي والكاثوليكي لمجابهة العدو، وهو الإسلام، فالإسلام يمثل تهديدا على المستويين العالمي والمحلي... يجب المحافظة على حلف شمال الأطلسي لمواجهة الخطر الإسلامي. (26)

وعلى أساس الإحساس بهذا المصير المشترك، استرجع الغرب حقيقة أنه باستثناء المغول لفترة وجيزة، فإن العرب والمسلمين هم الذين انفردوا بتهديد الغرب عبر التاريخ، أكثر مما فعلت أي شعوب أخرى.

هـ -الاختيار: Selection

تمثل العملية التي يتم فيها الانتقال من المجال الذهني إلى المجال المادي الملموس، وهي لا تحدث دفعة واحدة، وإنما تسبقها خطوات تمهيدية تشمل تنظيما للمعلومات بعد تحويلها إلى معطيات ذات دلالة عقلية، ثم يتبع ذلك:

- التصنيف **Categorization** إنه يجري تصنيف المسلمين بصرف النظر عن مواطنتهم، وينظر إليهم بعين الشبهة والريبة فقط لأنهم مسلمين، هذا التصنيف يجعلهم في فئات، فيبرز المسلمون المعتدلون والمسلمون المتطرفون ، والأكثر قربا إلى الغرب، وحديثو الإسلام.

-المقارنة ***Comparison*** حيث تتم المقارنة بين سلوكات المسلمين وسلوكات غير المسلمين في الغرب خاصة في القضايا المتعلقة بالحرية والاندماج والانتماء الوطني، وأولوية المصلحة الوطنية على العامل القرابي والعامل الديني.

– التعميم **Generalization** الذي يأخذ بالنسبة لحالة الإسلاموفوبيا مسارا متسرعا، وغير منظم، ويؤدي إلى سوء الإدراك الذي قد يظهر من خلال ناحيتين:

1–التدرج: ويكون ذلك من خلال الإصرار على أن الإسلام حالة سلبية ستنقل العدوى، إما من خلال الاعتناق الإرادي أو الإجبار إذا لم يتم الإسراع في محاصرتها، حيث يقول خيرت فيلدرز: **لدينا في هولندا تقريبا مليون مسلم، وقبل ثلاثين عاما كان ذلك العدد 50/1 عددهم اليوم، إن شارع الهولنديين لم يعد شارعهم ولا الحي حيهم.** [27]

2–الاعتقاد أن المسلمين كتلة واحدة متجانسة وموحدة، وبالتالي يتم التصرف بنفس السلوك إزاءهم، وتبعا لذلك فإن ظاهرة الإسلاموفوبيا على المستوى الفكري ترتبط بنظرة اختزالية للإسلام كدين وكثقافة، وهي نظرة تصور الإسلام كمجموعة محدودة وجامدة من العقائد التي تحض على العنف والرجعية والنظرة السلبية للآخر وترفض العقلانية والمنطق وحقوق الإنسان، وهي معتقدات يؤكد المصابون بالإسلاموفوبيا أنها انعكاس مباشر لرسالة الإسلام نفسها، كما تظهر في القرآن الكريم وفي سيرة الرسول محمد –صلى الله عليه وسلم–

المحور الثاني : الخريطة الإدراكية للنخب الغرب بشأن الإسلام والمسلمين: التجليات والإفرازات

يرتبط تفعيل مصطلح الإسلاموفوبيا بالجدل الدائر داخل المجتمعات الغربية ذاتها حول طبيعة تلك المجتمعات وهوياتها، وما إذا كانت مشاريع النخب الغربية المنادية بالتعددية والانفتاح الثقافي على المهاجرين والأقليات هي مشاريع مفيدة للغرب، أم إنها أضرت به كما يرى أصحاب التوجهات اليمينية المنادون بالعودة إلى التراث الثقافي التقليدي للغرب[28]، ومن جانب أخر ارتبط استخدام المصطلح بردود أفعال العالم الإسلامي تجاه بعض الإساءات التي تعرض لها الإسلام من قبل شخصيات ومؤسسات غربية مختلفة، وعلى أساس هذا البناء تترسخ الخريطة الإدراكية لظاهرة الاسلاموفوبيا.

أولا : تجليات الخريطة الإدراكية للإسلاموفوبيين

يمكن إبراز هذه التجليات على النحو التالي:

1– تحديد وتعريف الوضع بالنسبة للإسلاموفوبيين *Definition of the situation*

تمكن عملية تفسير المعلومات المتحصل عليها بشأن الإسلام والمسلمين في الغرب من الانتقال إلى عملية ذهنية أعلى لدى النخب والأفراد العاديين في الغرب على حد سواء، هذه العملية



الذهنية تعرف بتعريف الوضع ، وهي تشير إلى عمليات الإدراك الاجتماعي التي يقوم بمقتضاها الأفراد بـ "تكوين" صورة عن واقعهم في جميع مظاهره، فهذه النظرة التي مفادها أن الأفراد والجماعات يستجيبون للمواقف المتعلقة بالإسلام حسبما يدركونها، وليس كما هي في الواقع، تجعلنا نتحدث عن بيئة سيكولوجية للإسلاموفوبيا يتم فيها رسم السياسات تجاه الإسلام والمسلمين، وهذه المقاربة تتلخص في عبارة مفادها أنه إذا حدد الأفراد الأوضاع المتعلقة بالخوف من الإسلام على أنها حقيقية فإنها حقيقية بعواقبها.

إن عملية التفسير تنطوي على حالة من الربط بين ما تم جمعه من معلومات، على أنه يحدث نوع من التصفية لهذه المعلومات بناء على سلم الأفضليات الكامن في النسق العقيدي للأفراد، وترتبط حالة التفسير هذه على الإنقاص من كم المعلومات ، وذلك إلى الدرجة التي يمكن من خلالها الخروج بحكم سريع وشامل، وهذا الإنقاص يتم غالبا وفق ما يعرف بقاعدة الشح أو ما يعرف بقاعدة أوكام***OCCAM Code*** نسبة للفيلسوف وليام أوكام ***William Occam*** الذي عاش في القرن 14م حين رأى أنّ التفسير الجيد يزيح كثير من التفاصيل غير الضرورية[29]، إذا فما يتصوره الأفراد في الغرب على أنه الشكل الصحيح للأخطار المتوقعة من الإسلام والمسلمين ، يدفعهم لاعتماد هذه القاعدة في التعامل مع المعلومات الواردة إليهم بشأن كل ما يمت بصلة للشأن الإسلامي.

إن تحديد وتعريف الوضع بالنسبة للإسلاموفوبيين كجزء من الإدراك، يرتبط بالأساس بمفهوم التهديد، وهذا الأخير يقرن بالخطر المترتب على الفعل أكثر مما يقرن بالفعل نفسه، وقد قال قديما الفيلسوف اليوناني أبيكتموس **Apuctums** (؟ - 135 ق.م): ***لا يفزع الناس من الأشياء ذاتها، ولكن من الأفكار التي ينسجونها حولها.*** [30]

في التقرير الصادر عن وزارة الخارجية الأمريكية في نوفمبر 2010م، انتقدت الولايات المتحدة ما اعتبرته انحياز السياسات الأوروبية، واعتبرتها مساسا بحقوق الإنسان وشكلا من أشكال التمييز، وفي استراليا وجهت انتقادات حادة من مسلمين أستراليين لرئيس الوزراء الاسترالي جون هاوارد John Howard لتصريحه بأن بعض المسلمين يكرهون الثقافة الأسترالية بسبب ولائهم 'للجهاد' وكراهيتهم للمساواة بين المرأة والرجل، قائلاً:

"الأقلية المسلمة في أستراليا تثير صخبًا كبيرًا حول الجهاد، وتواصل تبني مواقفها المتطرفة حيال المرأة، ونحن نحذر من أن هذين الأمرين لا نقبل بهما داخل المجتمع الأسترالي أبدًا." (31)

هذا التصريح يطرح بشكل جاد مسألة امتداد الإسلاموفوبيا إلى مجتمعات، لطالما وصفت بالتسامح والتعايش بين أفرادها والوافدين إليها.

2-الإتساق الإدراكي للإسلاموفوبيين

يمكن مناقشة الخريطة الإدراكية للإسلاموفوبيين-كما يمكن وصفهم- من خلال ما يعرف بحالة الاتساق الإدراكي ***Cognitive consistency*** وهو الاتساق الذي يكون بين النظرية والمعطيات، حيث يميل الأفراد إلى رؤية ما يريدون رؤيته، ولاستيعاب وصول المعلومات إلى الصور السابقة تحدث عملية تصفية ذهنية، يحاول فيها الإسلاموفوبيون استحضار صورة العدو دائما، فالكاتبة أوريانا فالاتشي ***Oriana Fallaci*** (1929-2006) أحد رموز التيار المعادي للإسلام في إيطاليا، التي بيع من كتبها أكثر من مليون نسخة-وهو أمر نادر الحدوث في تاريخ الكتب الإيطالية- لا تروّج فقط للحذر من الإسلام والمسلمين، بل للكراهية الشديدة تجاههم، حيث اعتبرت الإسلام لا ينسجم مع الديمقراطية، كما وصفته قائلة:

إنه عدو نتعامل معه كصديق، لكنه يكنّ لنا الحقد ويحتقرنا بشدة...يستحيل التحاور مع المسلمين. (32)

إذا عن طريق الخوف والكره تبنى صورة المسلم في الغرب، حيث لا يوجد مسلم جيد وآخر سيء، ولا يوجد المسلم الراديكالي والمسلم المعتدل، وإنما يوجد فقط المسلم السيئ الراديكالي، وكل من لا تنطبق عليه هذه الصورة فهو إما يخبئ أصله، أو أنه لم يعد مسلما.

عند الحديث عن الاتساق الإدراكي عند الذين لديهم الخوف المرضي من الإسلام، يمكن الإشارة هنا إلى نمطين: (33)

1-اتساق إدراكي عقلاني ***Rational Cognitive consistency***؛ حيث ديمومة نمط السلوك تفترض تقليل تعقيد البيئة، فللأفراد في الغرب فرضيات حول البيئة الدولية وحول دور المسلمين في الأحداث العنيفة، ومن خلالها يتم استنتاج التوقعات، والمعلومات القادمة ستكون مدركة ومصنفة من خلال موشور هذه الفرضيات، ولهذا سواء كان العنف مرتبطا بالقاعدة أو بحركة طالبان، أو

بتنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام، فهو يعني شيئا واحدا: أن تكون مسلما فأنت أكثر تأهيلا وميلا لأن تصير إرهابيا، حتى ولو كنت مواطنا غربيا بحكم الجنسية.

2- اتساق إدراكي غير عقلاني ***Irrational Cognitive consistency***؛ والذي يشير إلى دافع داخلي نحو الميل لتفادي الصراع داخل المجتمعات الغربية، خاصة عندما يتعلق الأمر بمطالب الجماعات المتطرفة في الغرب، حيث يتم اللجوء إلى المقايضة في سبيل ما يعتقد أنه ضروري للانسجام مع التطورات المتلاحقة على الصعيدين الداخلي والخارجي من جهة ، وفي سبيل تحقيق درجة من الإجماع والتماسك في الموقف، حيث يتم توفير الإطار التبريري للأفعال المتطرفة من الأفراد الغربيين غير المسلمين، بينما ينزع هذا الغطاء عن غربيين آخرين لمجرد أنهم مسلمون، حتى ولو قاموا بأفعال أقل خطورة من أفعال نظرائهم غير المسلمين في البلد أو الإقليم نفسه، وهذا الدافع نحو التبرير والتمييز كثيرا ما يقود إلى ما يسمى الإدراك غير الناضج ***Premature Cognitive***، حيث يفهم الحافز ويستوعب عبر فهم أولي، مما يقود نحو صور محدودة للنوايا، ويطرح أيضا في إطار التعامل مع هاتين البيئتين مفاهيم تحدد انطلاقا من الفروق بينهما:

- التنافر الإدراكي ***Cognitive Dissonance*** وهو محاولة الجمع بين وضعيات إدراكية متناقضة، ففي الوقت الذي يسعى فيه الأفراد المصابون بالإسلاموفوبيا إلى وضع، فإنهم يمارسون نقيضه، فبينما تدعو الدول الغربية -خاصة في أوروبا- إلى حرية ممارسة الشعائر الدينية، وإلى نبذ التمييز المبني على أساس العرق أو الديانة، فإنها في الوقع وفي الوقت نفسه تضغط في اتجاه استبعاد كلي للعقيدة الإسلامية ورموزها من الحياة الأوروبية، وتأكيدا لهذا التنافر نستند إلى واقعة شغلت الرأي العالمي على مدار سنوات، فحين حاول عدد من المسلمين سنة 1988م مقاضاة سلمان رشدي عقب نشره لكتابه آيات شيطانية***Satanic Verses*** ، وذلك باستخدام قانون حظر الإساءة للمقدسات ***Blasphemy Law*** ، واجهوا عوائق قانونية وأخفقوا في مسعاهم، حيث كان القانون يقصد سب المقدسات المسيحية فقط، ومن ثم اعتبر أن سلمان رشدي لم ينتهك أي قوانين، وأنه تصرف في إطار حرية التعبير التي يكفلها القانون البريطاني.[34]

إن هذا التنافر الإدراكي أدى نحو حالة من الاهتزاز بشأن السماح لممارسات عدائية مع العلم بنتائجها السلبية، قد واكبت أزمة الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للإسلام في الدانمارك سنة 2006م، وتجددت سنة 2007م في هولندا حين رفعت هولندا حالة التأهب في 2007/03/09م تحسبا لما



وصف بهجمات إرهابية ردا على عرض فيلم فتنة *Fitna* الذي يتهجم على الدين الإسلامي، والذي قال صاحبه النائب اليميني خيرت فليدرز أنه يهدف لإظهار القرآن على أنه يحض على الإرهاب والقتل وعدم التسامح. [35]

يعمل التنافر الإدراكي على التأصل أكثر في الواقع الغربي، معززا من شعورين متداخلين، هما الشعور بالغضب ***Anger*** والشعور بالخوف ***Fear***، فالشعور بالغضب قد يتحول بفعل ممارسات القسر والإكراه إلى شعور بالعداء المستحكم والمتصاعد بين المسلمين ومواطني الدول الغربية الأصليين، أما الشعور بالخوف فيترجم في قناعة المصابين بالإسلاموفوبيا بأن المسلمين مجموعة واحدة، وأنهم منخرطون في حركة سياسية عالمية لفرض هذه الرؤية على الآخرين في حرب حضارية لا تتوقف [36]، في حين أن المسلمون هم من يشعرون في الواقع بمخاوف الاضطهاد والتمييز والمعاداة والكراهية من المواطنين الغربيين.

– الانحياز الإدراكي ***Cognitive Biases***، وذلك من خلال ممارسة عملية تصفية للمعطيات ***Filtration*** والانحياز للمعلومات التي تؤيد ما يعتقد الفرد أنه الحقيقة، فصورة الإسلام الشمولي هي مصدر خوف لدى المثقفين الأوربيين، بمن فيهم المدافعين عن الحقوق والحريات الأساسية للمهاجرين، كما يلاحظ في هذا الإطار أن واحدة من خصائص المجتمعات الغربية أنها تتغذى بشكل كبير من الخوف، الخوف من أي شيء، من الكوارث الطبيعية من الأوبئة، وبطبيعة الحال الخوف من الإسلام، فبعد العلمنة لم يعد للخوف الكبير من جهنم أو العذاب الإلهي مكانته، فبحث المجتمع الغربي عن مصدر جديد للخوف، وكان الإسلام أفضل من يلبي هذه الحاجة من وجهة النظر الغربية، ولأنّ أوروبا خصوصا عانت من الإرهاب، أصبح هذا الإرهاب أكثر إخافة بقرنه بالإسلام.

– الاندفاع الإدراكي ***Cognitive Impulsiveness*** وذلك من خلال غمر الفرد بالنتائج والمعلومات الفورية، فينشأ لديه إدراك متسرع للبيئة، فحدث تضخم لحالة الخوف من المسلمين في الغرب، حيث أصبح الاشتباه في وجود دافعٍ إرهابي يتصل بالمسلمين وراء أي حادث قتل أو تخريب، وإذا لم يكن مقترفه مسلما، فيتداول أن الحادث لا علاقة له بالإرهاب أو أنه نتيجة خلل نفسي أو عقلي لدى المنفذ أو فعل إجرامي معزول[37]، بل ثبت أن أحداثا عارضة كالحرائق أو انفجار معدات الغاز، أو

حوادث الطيران تطرح بمجرد إعلانها، الشكوك بشأن وقوف مسلمين وراءها، وبالتالي صار الإرهاب مقرونا آليا بالإسلام.

الواقع أن الخلاصة الصادمة أنّ الناس الذين يتابعون أخبار تحمل إساءة للإسلام بشكلٍ مكثّف عبر الإعلام هم أقل الناس معرفةً بحقيقة الإسلام في حد ذاته، بل إن بعض الوسائل قد قامت عمداً بتلفيق قصصٍ ليس لها سندٌ حقيقي، بل فقط بهدف تلبية الطلب على هذه الأخبار من جانب بعض القرّاء.[37]

ينمو الاعتقاد بشكل متزايد مثلا في الترسيخ الذهني الغربي بأن الإسلام يسعى لاحتلال أوروبا، مع ما يدّعيه اليمين من أسلمة أوروبا، أو ارتباط الأقلية المسلمة بأجندات خارجية، فإسبانيا المتحسسة جدا من التاريخ الإسلامي، والتي لم يستطع فيها المسلمون رفع الآذان في قرطبة إلا سنة 1994، أصدر فيها الدبلوماسي والناطق الرسمي لوزارة الخارجية آنذاك غوستافو دي أرستيغي ***Gustavo de Aristegui*** كتابا عام 2006م، عنونه ب:الجهاد في اسبانيا: الهوس من أجل فتح الأندلس من جديد، وكانت صفحة غلافه تحمل صورة خنجر ممتد على عبارة لا إله إلا الله محمد رسول الله على خريطة إسبانيا الحالية.[38]

لقد تحولت الحملات ضد الأجانب بعد أحداث 11 سبتمبر 2001م إلى حملات ضد المسلمين، ونظرا للنشاط الإعلامي المكثف المشوه لصورة الإسلام والمسلمين، فإنه في الغرب كثيرا ما ينظر إلى الإسلام كدين توليتاري، باعتبار أنه لا فارق بين الدين والدولة حسب فهمهم له.

3-الإفلاس الاستدلالي Inferential Fallacy

تدفع الإسلاموفوبيا إلى عملية الاختزال أو التهميش التي يمارسها الأفراد في الغرب عن وعي أو دون قصد، وذلك في سبيل مجانسة الواقع مع نسقهم العقيدي والتصورات التي يحملونها، فالإحساس نحو المسلم المهاجر قد تغير بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، فلقد خلّفت تلك الأحداث التي قامت بها –حسب ما هو متداول– مجموعة متطرفة باسم الدين الإسلامي، خوفا سمح بالخلط بين الإسلام والإرهاب، واعتماد معادلة سريعة تبسيطية،ألا وهي أن المسلم شخص متطرف، وأن الإسلام يساوي الإرهاب، وهي معادلة يمكن تصنيفها ضمن ما يسمى الإفلاس الاستدلالي **Inferential Fallacy**، إفلاس ينبني على الربط بين الفعل ودلالته من جهة ، ومكون ديني معين قام بعض أفراده في وقت معين بسلسلة من الأعمال العنيفة من جهة ثانية، غير الواقع يثبت



الآن أن الإرهاب أو الأنشطة المسلحة والعنيفة ليست حكرا على المسلمين ، بل إن الأعمال العنيفة الصادرة عنهم إنما تمثل نسبة ضئيلة من المجموع العام للأنشطة الإرهابية في العالم، وذلك ما تؤكده مثلا الدراسة السنوية التي قدمت سنة 2009 لمكتب الشرطة الأوروبية "أوروبول ***OROPOL***حول الإرهاب في الاتحاد الأوروبي، أن الإسلام والمسلمين لا علاقة لهم بالأعمال الإرهابية وأن 84.8٪ منها تسببت فيها المجموعات الانفصالية، و08.3٪ مجموعات وحركات أخرى و06.5٪ مجموعات يسارية، أما المجموعات الإسلامية فكانت مسؤولة عن 0.4٪ فقط من الأعمال الإرهابية، بمعنى أن 99.6٪ من العمليات الإرهابية في أوروبا لا علاقة للمسلمين بها.[39]

إن أوضاع العداء للإسلام واضطهاد الأجانب من خلال كونهم مسلمين، تتشابه مع أجواء عشرينات القرن الماضي، حين نشأت الحركات الفاشية والنازية، التي ولدت وترعرعت في أجواء انعدام الأمن الاجتماعي إثر الحرب العالمية الأولى، وضمن التضخم الاقتصادي والبطالة، في تلك الحقبة طرح التساؤل عن المتسبب في انعدام الأمن، ويومها كان المتهم هو اليهودي والماسوني، أما اليوم فالمتهم هو المهاجر المسلم.

ثانيا: إفرازات الخريطة الإدراكية للإسلاموفوبيين

يمكن الوقوف على جملة من افرازات الخريطة الادراكية للمعنيين بالخوف المر من الإسلام، والتي نعرضها على النحو التالي:

1-القوانين العنصرية

أدت قناعات الإسلاموفوبيين بشأن الطبيعة الشريرة للإسلام والمسلمين إلى الميل نحو سياسات وقائية مبالغ فيها، لم تخل من الطابع العنصري خاصة مع ترسخ الواقع الإسلاموفوبي، وبروز نوعين من الإسلاموفوبيا:

- إسلاموفوبيا فوقية عند الساسة والمسؤولين، وإسلاموفوبيا تحتية عند الرأي العام تتجسد في خوف الناس من الإسلام ورموزه، ومن جهة أخرى أصبح التخويف من الإسلام أداة ناجعة في حشد الدعم، وفي هذا الإطار تقول مونيكا ماساري ***Monica Macário*** وهي أستاذة علم الاجتماع بجامعة ***University of Catania*** بصقلية:

من الخطأ اعتبار الأحزاب اليمينية والمحافظة وحدها من يشجع الإسلاموفوبيا، إذ يفاجئنا في الواقع وجود الكثير من الرسميين والأحزاب والمثقفين، الذين لا ينتمون إلى الجانب المحافظ، لكنهم من الإسلاموفوبيين. (40)

ترتكز القوانين العنصرية المقترنة بالشعور بالإسلاموفوبيا بالممارسات التي تمس حرية الحركة والزي وإقامة الشعائر الدينية على استغلال ممارسات معزولة لأفراد مسلمين من أجل إضفاء الشرعية على تطبيقها، وهي الشرعية التي أصبحت تحوزها بعد جملة من الاستفتاءات المتتالية لتكريس هذا الواقع الإسلاموفوبي.

تتوسع تطبيقات هذه القوانين إلى المضايقة في المطارات، وتشديد إجراءات منح التأشيرة لمواطني البلدان المسلمة، كما تتعداها لبرامج التنصت والمراقبة، والاعتقال بدواعي الاشتباه الأمني، ويلاحظ أن قدرة المسلمين على تحصيل حقوقهم المنتهكة بفعل هذه القوانين، تقتضي سلسلة من الإجراءات القانونية المعقدة، بشكل يجعل الانخراط فيها إهدارا للمال والوقت.

2-تصاعد الأنشطة اليمينية المعادية للمسلمين

أدت الأسباب التي تضع المسلمين في الغرب في حالة الحذر السلبي إلى تصاعد الأنشطة اليمينية المتطرف، وأصبح هذا الحذر أساسا لتصرفات تمييزية ضد المسلمين، وإطارا للمطالبة بسياسات تحد من حقوق وحريات مسلمي الغرب المدنية، أو تخضعهم لمراقبة متزايدة من قبل السلطات الأمنية، كما تجسدت في انتشار لمشاعر سلبية تجاه المسلمين داخل المجتمعات الغربية، كرفض العيش بجوار جيران مسلمين ورفض بناء المساجد والمؤسسات الإسلامية، وأصبحت تنفجر أحيانا في صورة أحداث عنف وتمييز وجرائم كراهية ضد المسلمين، وهناك الكثير من تجليات جرائم الكراهية مثل العنف ضد المسلمين وهذا يمكن أن يظهر على شكل هجماتٍ على المساجد ودُور العبادة وأماكن العمل وعلى الناس أيضاً، وهذا بالتحديد يؤثر على النساء المسلمات لأنهنّ يظهرن بشكلٍ جلي في المجتمع كونهن نساء، وتوثق المدير المساعد للشبكة الأوروبية لمكافحة العنصرية كلير فرناندز ***Claire Fernandes*** أنّ ما جرى في فرنسا أظهر أنّ 80% من الهجمات بسبب الخوف من الإسلام استهدفت النساء. **(41)**

يوظّف قادة اليمين الأجندة الاجتماعية التي فشلت الأحزاب السائدة والأساسية بالغرب في القيام بتنفيذها، فلذلك يحاولون أن ينالوا أصوات المواطنين، الذين يئسوا من الأزمة وهم يحاولون أيضاً



بطريقةٍ ما، أن يستفيدوا من الخوف من الأجانب والمشاعر المعادية للمسلمين وهذه الأجندة، والواقع أن مهاجمة الأحزاب السياسية اليمينية المسلمين لأغراض انتخابية، تتم من خلال تحميل المسلمين مسؤولية كل المشاكل والصعوبات التي تعيشها المجتمعات الغربية، ويجدر التنبيه إلى حقيقة أن المسلمين لا يتصرفون إيجابيا بشكل كاف يجعلهم قيمة إضافية لهذه المجتمعات.

3-الانكفاء إلى النادي المسيحي

بانتقال الإسلاموفوبيا من الإطار غير الرسمي إلى الإطار الرسمي في السياسات الأوروبية خاصة، بدا هناك ميل في الاستناد على الأصول اليهودية والمسيحية للغرب، مع ما يتبع هذا الاستناد من استبعاد لكل ما يرتبط بالدين الإسلامي الذي يسوّق على أنه الخصم الشديد للمسيحية، حيث يتم النظر إلى الوافدين المسلمين باعتبارهم يشكلون خطرا على بنية الغرب "المسيحي"، وأن تزايد أعدادهم وارتفاع نسبة المواليد في صفوفهم يمكن أن يغير الخريطة الديمغرافية لأوروبا خاصة، لهذا يستند الرفض المتزايد لانضمام تركيا مثلا للاتحاد الأوروبي إلى هذا التخوف، حيث يقول روبرتو فيوري*Roberto Fiore* رئيس حزب القوى الجديدة *Forza Nuova* (إيطاليا):

...لا بكل قوة لدخول تركيا إلى الاتحاد الأوروبي، يجب علينا الحفاظ على الطبيعة المسيحية والرومانية واليونانية لأوروبا، إن فكرة تركيا في أوروبا مستهجنة، فتركيا لا تنتمي أبدا إلى أوروبا بل كانت دائما ضدها، كما أنها ستجلب لنا مشكلة كبيرة هي مشكلة الهجرة، لأن الأتراك في تزايد متواصل، هم الآن سبعون مليون، يضاف إليهم الكازاخستانيون والتركمان وغيرهم، وبعبارة أخرى فإن أوروبا ستجد نفسها في قلب آسيا، وآسيا في قلب أوروبا. [42]

إن هذا القول يرجّح ما يلاحظ من ميل أوروبي إلى فكرة النادي المسيحي، وكما قال الرئيس التركي الأسبق تورغوت أوزال*Turgut Özal* :

...سجل تركيا بالنسبة لحقوق الإنسان سبب ملفق لعدم قبول طلب انضمامها إلى الاتحاد الأوروبي، السبب الرئيسي هو أننا مسلمون وهم مسيحيون، ولكنهم لا يقولون ذلك. [43]

إن هذه التوجهات مثلا ولّدت إدراكا عاما بين المسلمين عموما والأتراك خصوصا، أن الغرب لا يرى مكانا لتركيا مسلمة داخل أوروبا، غير أن هذا الرفض لابد أن يطرح الموضوع أيضا على مستوى مسلمي أوروبا، وكذلك على المسلمين وهم يطالبون بحرية التدين، حيث هناك ازدواجية للخطاب عند عدد من الإسلاميين الذين تحميهم العلمانية بكونها النظام الأفضل ملاءمة وحفظا



لحقوقهم في الغرب، غير أن جزء منها –وبخاصة عدد من الدعاة والمسلمين الجدد ينحون نحو المناداة بأسلمة مجتمعات هي في الأصل غير مسلمة، دو تبيان خطط ذلك، فقط مكتفين بشعار "الإسلام هو الحل".

خـــاتمـــة

تتزايد النظرة السلبية للإسلام ومعتنقيه في الغرب، مع ما يتبع ذلك من تأصيل العداء نحو كل ما يتصل بهذا الدين، وترسّخ نظرة اختزالية للإسلام كدين وكثقافة، حيث يجري تصوير الإسلام كمجموعة محدودة وجامدة من العقائد التي تحض على العنف والرجعية والنظرة السلبية للآخر، وترفض العقلانية والمنطق وحقوق الإنسان، وهي كلها أحكام جعلت الرأي العام في الدول الغربية معاديا ومرعبا من الإسلام والمسلمين والعرب، ووفق الصور النمطية التي قُدمت له؛ أصبح يؤمن بأن عدو الإنسانية هو الإسلام والمسلمين والعرب، وتكونت هذه الصور عن الإسلام ونبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم، طوال أكثر من ألف عام ، مشكلة في معظمها من أساطير وخرافات وأكاذيب لا تمت بصلة إلى الحقيقة، وتصاعدت حدة سلبية تلك الصور في مدركات الغربيين بالنسبة الإسلام والمسلمين ، نتيجة النظرة الدونية المرسومة في أذهانهم، بالاقتران بتهمتين ترددان في الغرب ضد الإسلام، كدين عنف وككتلة عدائية من جهة، ودين النظرة المتدنية للمرأة.

دعمت الإسلاموفوبيا زيادة حالة الإرباك واليأس لدى الأفراد في الغرب بشأن أمنهم وهوياتهم ، وهي الحالة التي تدفع غالبا إلى تدهور القدرة على فهم وجهة نظر الآخرين ، والقدرة على مقاومة إغراء إنهاء تحليل الموقف عند نقطة معينة، مع ما يتبع ذلك من درجة عالية جدا من الإثارة والانفعال النفسي، ولا يمكن الاكتفاء بتشريح الخريطة الإدراكية للنخب الغربية بشأن الإسلام والمسلمين، ولا بقراءة الإسلاموفوبيا من وجهة نظر اجتماعية– نفسية، نابعة من التوظيف الإعلامي والسياسي والإيديولوجي لعدة أطراف مستفيدة، بل من الضروري متابعة آليات إدارة المواجهة معها، والأسلحة الناجعة للقدرة على التأثير في الرأي العام وكبح الاستعمال الشعبوي الرخيص لها، لذا يفترض امتلاك الجرأة للنظر إلى التجمعات الإسلامية المنظمة وأساليب عملها ودعاتها، فهناك أطراف إسلامية سياسية تخوض معركة شيطنة الآخر بنفس الوسائل ونفس الخطاب الإسلاموفوبي معكوسا، بما يقتضي من باب الانصاف أيضا الدفع بالقيم الصحيحة للإسلام وإزاحة المسيئين له من واجهة الخطاب الديني والاتصال السياسي، وكذا تمثيل الوجود الإسلامي في الغرب.

الهوامش

(1)- نصر محمد عارف، ***ابستيمولوجيا السياسة المقارنة***، (القاهرة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1997)، ص 21.

(2)- تمثل الخريطة الإدراكية موضوعا مشتركا بين عدة علوم ، فعلماء النفس ركزوا أبحاثهم حولها من خلال مسألة التعلم ***Learning***، أما علم الاجتماع فيركز على مسألة التكيف مع المجتمع ***Adaptation*** في حين ركز علم الأنثروبولوجيا على التأقلم الثقافي ***Acculturation***. أنظر:

Bahgat Korany et collaborations- ***approches :Analyse des relation internationales*** ***:,concepts et données*** (CANADA Centre québécois internationals, Gaëten Morin,1987), p14 .

(3)- فايز صالح محمود اللهيبي، ***إشكالية الخوف من الإسلام: بين الرؤية الغربية والواقع الإسلامي***، (سوريا: حلب، دار النهج للدراسات والنشر،2009)، ص: 29.

(4)- محمد العربي فلاح، **الإسلاموفوبيا أو الخوف المرضي من الإسلام**، (الجزائر، دار هومة، ط0، 2007)، ص54.

(5)- علاء بيومي، ***صعود الإسلاموفوبيا في المجتمعات الغربية***، 2006/10/12، اطلع عليه بتاريخ 2017/05/09، متوفر على:

https://goo.gl/TEBf2Y

(6)- إلسي أبي عاصي برنامج: مراسلو الجزيرة، قناة الجزيرة الفضائية، عنوان الحلقة: ***طفل أميركي سوداني يعيد جدل الإسلاموفوبيا***، تاريخ البث: 2015/10/20.

(7)- محمد الباهلي، ***الغرب والاسلام***، جريدة الاتحاد، الامارات العربية المتحدة، 2007/08/31.

(8)- قناة الجزيرة الوثائقية، ***أوروبا والإسلاموفوبيا: هولندا***، يمكن الاطلاع عليها ، واستعادتها على الرابط الإلكتروني: https://www.youtube.com/watch?v=aOiVeUDeVg8

(9) -Jervis, ***Perception and Misperception in international politics***, (New Jersey : Princeton University Press, 1976), p203.

(10)- نبيل شبيب، **اليمين المتطرف ومستقبل المسلمين في أوروبا**، مقال بتاريخ 2004/10/03، اطلع عليه بتاريخ، 2017/08/31، متوفر على الرابط الالكتروني: https://goo.gl/ujo1hr

(11)- محمد الباهلي، **الغرب والاسلام**، جريدة الاتحاد، الامارات العربية المتحدة، 2007/08/31.

(12)- عبد الباقي خليفة، **لا لاستجداء الاعتذار من بابا الفاتيكان نعم للمواجهة الفكرية: ما الجديد الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم .. الجهاد والحروب الصليبية**، جريدة الوسط، تونس، 2007/07/16.

(13)- قناة الجزيرة الوثائقية، **أوروبا والإسلاموفوبيا: إيطاليا**، يمكن الإطلاع عليها على الرابط الإلكتروني:

https://www.youtube.com/watch?v=kocLE-rhrgI

(14)- نفس المرجع السابق.

(15)- قناة BBC الإخبارية، خيرت فيلدرز يصف بعض المهاجرين المغاربة في هولندا "بالحثالة"، تقرير اخباري بتاريخ:2017/02/18، متوفر على الرابط:

http://www.bbc.com/arabic/world-39017559

(16)- قناة الجزيرة الوثائقية، **أوروبا والإسلاموفوبيا: هولندا**، مرجع سابق.

(17)- هيثم مناع، **الاسلاموفوبيا والعلمانية الديمقراطية**، مقال بتاريخ2010/02/23، أطلع عليه بتاريخ 2017/06/05، متوفر على الرابط الالكتروني: https://goo.gl/pZX7uE

(18)-محمد قيراط، **فوبيا الإسلام والعنصرية المنظمة**، صحيفة البيان ، الإمارات المتحدة، 2011/08/19.



(19)- حازم أبو وطفه، برنامج: المرصد، قناة الجزيرة الفضائية، عنوان الحلقة: **إعلام الغرب بين هستيريا إيبولا وفخ الإسلاموفوبيا**، تاريخ الحلقة: 2014/11/3.

(**20**) - Robert Jervis, **perception and misperception,** document sur internet, vu le 15-08-2017, sur :

http://www.piercelaw.edu/risk/vol9/spring/sjoberg.pdf

(21)-قناة الجزيرة الوثائقية،أوروبا والإسلاموفوبيا: إيطاليا، مرجع سابق.

(22)- محمد العربي فلاح، الإسلاموفوبيا أو الخوف المرضي من الإسلام، (الجزائر، دار هومة، ط0، 2007)، ص55.

(23)- صامويل هانتنغتون، **صدام الحضارات**، ترجمة طلعت الشايب(القاهرة: دار الكتب المصرية، 1998) ص 321.

(24)-برنارد لويس، **لغة الإسلام السياسي**، ترجمة عبد الكريم محفوظ، (سوريا: دمشق، دار جفرا للدراسات،2001)، ص: 119.

(25)-قناة الجزيرة الوثائقية، **أوروبا والإسلاموفوبيا: هولندا**، مرجع سابق.

(26) -ياسر أبو شبانة، **النظام الدولي الجديد بين الواقع الحالي والتصور الإسلامي**، (مصر: القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر، ط03،2004م)، ص: 98.

(27) -قناة الجزيرة الوثائقية، **أوروبا والإسلاموفوبيا: هولندا**، مرجع سابق.

(28)-علاء بيومي، **صود الاسلاموفوبيا بالمجتمعات الغربية**، مقال بتاريخ2006/10/12، أطلع عليه بتاريخ 2017/06/05، متوفر على الرابط الالكتروني:

https://goo.gl/eC6X14

(29)- جوزيف .س. ناي ، ***المنازعات الدولية: مقدمة للنظرية والتاريخ***، ترجمة أحمد أمين الجمل ومجدي كامل (القاهرة: الجمعية المصرية لنشر العلم والمعرفة والثقافة العالمية، ط01، 1993).، ص 53.

(30)- قدري علي عبد المجيد، ***اتصالات الأزمة*** ، (القاهرة:دار الجامعة الجديدة، ط01، 2006). ص27.

(**31**)- Alice Aslan, **Islamophobia in Australia** ,(Australia : Sydney, Agora Press, 1st ed ,2009), p148.

سليمان البدور، **من عمان إلى أوريانا فلاتشي ...للأسف**، جريدة الرأي ، الأردن، 2005/07/27.

(32)- للتعمق أكثر في أنماط الاتساق الإدراكي، أنظر:

: -Robert Jervis ,***Perception and Misperception in international politics***, (New Jersey Princeton University Press, 1976),

(33)- شريف عبد العظيم، **حرية التعبير في الغرب من سلمان رشدي إلى روجيه غارودي**، (القاهرة، دار نهضة مصر،1998)، ص: 09.

(34)- محمد نمر المدني، **أعداء الغرب**، (سوريا: دمشق، دار رسلان للطباعة والنشر، ط01، 2009)، ص270.

(35)- تساءلت أوريانا فلاتشي في هذا الصدد: **إننا في حرب.. هل أدركنا ذلك أم لا؟** وأدانت ما تسميه مهزلة ما يسمى التسامح والكذب واندماج المسلمين في المجتمعات الغربية، وسألت فلاتشي البابا السابق بنيدكتوس السادس : Benedictus XVI

هل تعتقدون حقا أن المسلمين يقبلون الحوار مع المسيحيين أو غيرهم من الديانات الأخرى أو الملحدين مثلي أنا؟ أتعتقدون حقا أن بإمكانهم أن يتغيروا ويتوبوا ويتوقفوا عن زرع القنابل؟ أنظر: محمد الارناؤوط، **أوريانا فالاتشي بين إيطاليا وألبانيا**، جريدة المستقبل، 04 تشرين الأول 2006 - العدد 2406، ص 19.

(36)- أدى التفجير الذي قام به *تيموثي ماكفي* Timothy MeWeigh لمبنى حكومي في أوكلاهوما في 1995/04/19م، إلى قتل 168 من الموظفين الحكوميين والمدنيين، وإلى إصابة ما يزيد على 500 آخرين، وصنف على أنه عمل لدائرة ضيقة من الأشخاص ذات ميول يمينية.



أنظر: كاثلين تيلر، **غسيل الدماغ: علم التحكم بالتفكير**، تر: سامر الأيوبي وعبد القادر عيسى، (السعودية: الرياض، مكتبة العبيكان، ط01، 2017)، ص48.

(37)-حازم أبو وطفه، مرجع سابق.

(38)- إدريس بوسكين، **أوروبا والهجرة: الإسلام في أوروبا**، (الأردن: عمان، دار الحامد للنشر والتوزيع، ط2013،01)، ص101.

(39) -محمد.27/10/2010 خيراتب ،ةيرئازجلا يمويلا قورشلا ةديرج ،**زايتماب ايبوفوملاسلإا رصع** ،طارية

(40)- قناة الجزيرة الوثائقية،**أوروبا والإسلاموفوبيا: إيطاليا**، مرجع سابق

(41)- أحمد منصور، **مستقبل مسلمي أوروبا وسط تصاعد الكراهية والعنصرية**، برنامج بلا حدود، قناة الجزيرة الفضائية، تاريخ الحلقة 2015/01/28.

(42) -قناة الجزيرة الوثائقية، **أوروبا والإسلاموفوبيا: إيطاليا**، مرجع سابق.

(43) -صامويل هانتنغتون، مرجع سابق، ص238.

توجهات السياسة الغربية:
بين الإسلاموفوبيا (*ISLAMOPHOBIE*) والإسلاموفيليا (*ISLAMOPHILIE*)

د. بوستي توفيق
أ. عبد الغاني دندان
جامعة 8 ماي 1945- قالمة- الجزائر

مقدمة:

ساعدت بعض التصرفات غير المسؤولة من بعض المسلمين على ظهور ونمو الإسلاموفوبيا حسب الفكر الغربي. كما أدت العولمة إلى خلق مخاطر وفرص بالنسبة للمستقبل السياسي للمسلمين، ووضعت الغرب في حالة قصوى من الترقب، التأهب واليقظة تجاه هذه التحولات.

هل الإسلام منغلق أو منفتح على الآخر، أم أنه حبيس الجدال حول "صدام الحضارات"؟! كلها نقاشات جعلت من الغرب ينتهج سياسات تتراوح بين المعاداة للإسلام والمسلمين (الإسلاموفوبيا) وكل ما يتعلق بهم، أو المحاباة ودمجهم في المجتمع الغربي (الإسلاموفيليا)، وذوبانهم على أساس أن ديمقراطياتهم –أي الغرب– قامت على مبدأ حرية التعبير وحرية المعتقد.

وبين المؤيد والمعارض لهذا الجانب أو ذاك؛ تنامت المخاطر التي تهز استقرار المجتمعات الإسلامية منها أو غير الإسلامية، وتهدد الأمن والسلم الدوليين، نتيجة بعض الانعكاسات السلبية لظاهرة الإسلاموفوبيا، واكتساحها معظم البلدان الغربية وسعيها إلى فرض نماذج سياسية وثقافية تقوم على القوة والهيمنة، وترفض التمايز والاختلاف، بدل ترابط العلاقات بين الشعوب والتفاعل بين الثقافات والحضارات، وبين التعايش وتقبل الإسلام.

فهل يمكن اعتبار الإسلام –كدين/سياسة/حضارة– محددا لتوجهات السياسات الداخلية (تركيا مثلا)، والخارجية للدول الغربية (الولايات المتحدة الأمريكية كنموذج) في الآونة الأخيرة؟ وما هي المكاسب والخسائر التي سيجنيها الغرب في حالة تبنيه للإسلاموفوبيا أو الإسلاموفيليا على مستوى الفكر والممارسة على حد سواء؟

تحديد المفاهيم:

الإسلاموفيليا: (حب الإسلام والمسلمين): لفظ جديد ومصطلح مصطنع، استعمل من قبل العديد من السياسيين وعلماء الاجتماع والصحافيين، لوصف حالة الافتتان Engouement بقيم الإسلام، وعموما إبداء الإعجاب بالحضارة الإسلامية.

وقد استعمله الصحفي Julie Burchill في صحيفة The Guardian بتاريخ 18 سبتمبر 2001، أين عرض فكرة الإسلاموفوبيا والإسلاموفيليا، واستنتج أن الإسلاموفيليا تولدت نتيجة لبعض الشعور بالذنب أو الجرم نحو زملائه الذين تعرضوا لابتزاز لأنهم ذوي أصول إسلامية.(1)

الإسلاموفوبيا: (العداء للإسلام والمسلمين): (إنجليزية:Islamophobia) أو رهاب الإسلام هو لفظ قديم نسبيا ترجع أصوله للتبعية الإسلامية Mouvance Islamique، يشير إلى التحيز والكره والمعادة ضد الإسلام والمسلمين، استخدم المصطلح في صيغة صفة Version adjectivale سنة 1921 في فرنسا لما قام كلا من Etienne Dinet و Slimar Ben Brahim في مؤلفهما الجنون أو "الهيجان الإسلاموفوبي" (Le délire islamophobe)، بعد سرد سيرة النبي محمد –صلى الله عليه سلم– لكاتبها الأب (القسيس) Jésuite Lammens. استعماله بقي نادرا في نهاية الثمانينات خاصة من طرف الملآ الإيرانيين في الحديث عن النساء الرافضات لاحترام شعائر الشريعة الإسلامية. وبعدها إصدار كتاب "الآيات الشيطانية" (Les Versets Sataniques) لسلمان رشدي في 1988 حين عالج الإسلاموفوبيا.

واستعمل أيضا من طرف الإسلاميين في المملكة المتحدة في التسعينات من القرن العشرين. قبل أن تتبناه حركة المسلمين الاجتماعيين أثناء رؤيتهم عدم الاحترام حيال دينهم، ودعمت هذه الإرادة من طرف منظمات مضادة للعنصرية والتهجير مثل (INSED, SOS Racisme، وكذلك تم التطرق له في اجتماعات منظمة المؤتمر الإسلامي (OIC)، قبل أن يشهد المصطلح انتشارا سريعا بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر عام 2001.(2)

I– أفول الإسلاموفيليا وتنامي الإسلاموفوبيا

تجدر بنا الإشارة إلى أن الجانب الذي يعنينا هنا هو سمة الإنصاف للإسلام والمسلمين خصوصا في مرحلة تشهد تدهور العالم الإسلامي سياسيا وحضاريا، بغية كسر حلقة العداء



الصريح والمعلن والمستبطن الذي تتضمنه الرؤيا الإستشراقية التقليدية الموروثة عن الكنيسة المعادية للإسلام والمسلمين.

1- الإسلام بين العالمية والعولمة:

يقول Arnold toynbee في كتابه A Study of History: "إن الأخوة الإسلامية بين مختلف الأعراق ليست مجرد دعوى نظرية بل هي واقع عملي في المجتمع المسلم؛ حيث الزنجي المسلم يقف على قدم المساواة مع الأبيض أو الأحمر أو الأصفر، وهنا في هذا التصور النبيل، الأخوة البشرية ليست مجرد فرضية بل حقيقة تثبتها اكتشافات العلم الحديث؛ فالعلم الحديث يتقبل إلى أدق التفاصيل التصور الإسلامي للوحدة البشرية".(3)

واليوم تبقى صور الأخوة الإيمانية التي لا تخلو منها مجتمعات المسلمين (مع ما تتعرض له هذه الأخوة من صور الكيد لإضعافها وإذابتها لتحل محلها روابط تنزل بالإنسان من عرش الكرامة والمساواة إلى مستنقع العنصرية، والحزبية، والقومية المتعصبة المقيتة ..) تبقى هذه الصور من الأخوة مصدر نور وسعادة لمجتمعات المسلمين الأمر الذي شد غير المسلمين إلى الإقرار بأهميتها وفضلها، قال المستشرق البريطاني H.A.R.GIBB: "الإسلام لا يزال قادرا على أن يمنح خدمة جلية للهدف الإنساني، إن لدى الإسلام تقليدا رائعا من التعاون والتفاهم بين مختلف الأعراق، لا يوجد مجتمع آخر كالإسلام كان له مثل سجله في النجاح في أن يوجد في المساواة في المركز الاجتماعي والفرص في العمل والنجاح مثل هذا العدد والتنوع من الأجناس البشرية"(4)، وقال دراپير: "الإسلام لأول مرة قدم للعالم المساواة الاجتماعية التي لم تعرف قبل في أي حضارة قديمة، الإسلام فقط هو أول من قدم هذا المعنى للمجتمع الإنساني".(5)

* الإسلام مثلا؛ ضمن للمرأة حق الحياة والكرامة الإنسانية: جاء الإسلام فرفع من مكانة المرأة وأعاد لها كرامتها ومنع عنها الظلم، وجعل لها حقوقا وواجبات يجب أن تؤدى لها !

وهذه المكانة العالية، والمنزلة الرفيعة أعطاها الإسلام للمرأة بنتا، وأختا، وزوجة، وأما، في حين أن كثيرا من الكتابات أو المنابر الإعلامية اليوم غالبا ما تسلط الضوء على المرأة الزوجة مغفلة حقوق المرأة عندما يتعلق الأمر بموقعها كأخت أو أم أو ابنة، فمن هذا التكريم الذي حظيت به المرأة في الإسلام.

قبل منتصف القرن المنصرم كان العالم الإسلامي –باستثناء أجزاء قليلة منه– خاضعا للسلطة السياسية والعسكرية لدول غير مسلمة، وفي خلال ذلك لم تتأثر قدرة الإسلام على الانتشار ومقاومة القوى المعاكسة مما حمل المستشرقة الإيطالية Laura Veccia Vagliere على أن تتدافع على لسانها في دهشة وانبهار هذه الأسئلة:

– ما هي القوة المعجزة الخفية في هذا الدين؟

– ما هي القوة الداخلية للإقناع الممتزجة بهذا الدين؟

– من أي أعماق الروح الإنسانية تثير جاذبيته كل هذه الاستجابة لندائه؟ (6)

لقد كان منهج الفاتحين المسلمين "لا إكراه في الدين" هذا ما أمر به القرآن، وبناء على ذلك فإن المسلمين لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام فالمسيحيون واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع صور للتعصب الديني وأفظعها سمح لهم جميعا دون أي عائق يمنعهم بممارسة شعائرهم الدينية، وترك لهم المسلمون بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأدنى أذى.

أوليس هذا من التسامح؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال ومتى؟ ومن ذا الذي لم يتنفس الصعداء بعد الاضطهاد البيزنطي الصارخ وبعد فظائع الأسبان واضطهاد اليهود؟ فهذا بطريرك بيت المقدس يكتب في القرن التاسع لأخيه بطريرك القسطنطينية عن المسلمين: إنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة، وهم لا يستخدمون معنا أي عنف".(7)

إنه الإسلام شريعة ربانية يريد الله من المؤمنين أن يطبقوها في السلم والحرب؛ لذلك وجدت قبولا من الناس عندما رأوا الإسلام واقعا مشاهدا في حياة الفاتحين فشدهم صدقهم وإخلاصهم، وسعدوا بعدلهم، وجذبتهم أخلاقهم، وأسرتهم تعاليم دينهم .

يقول المستشرق درايير: "الإسلام ناصر الحرية والمساوة التي كانت في الحقيقة نسيت على أرض الحضارات التي تغلب عليها، مع أن كثيرا من الديانات والمذاهب الأخلاقية دعت إلى المساواة بين البشر فإن الإسلام وحده فيما يبدو وحتى الآن هو الذي نجح في غرس هذه التصور في تفكير وسلوك المؤمنين به الواعين لحقيقته".(8)

ويقول المفكر الهندي Sir. p. Ramaiwamylyer: "أعتبر وكل العقلاء يوافقونني على ذلك أن الإسلام لا غير هو العقيدة الديمقراطية في العصر الحاضر، أنا هندوكي ومتشدد في



الالتزام بديني، ومع ذلك أجدني مجبرا على الاعتراف أن ديني بالرغم من فلسفته الأساسية قد فشل في أن يضع موضوع التطبيق وحدة الإنسانية، لا يوجد دين مهما كانت نظرياته قد طبق علميا الفكرة الأساسية لمساواة البشر أمام الله غير الإسلام".(9)

أ/ أهداف العولمة الدينية:

1- القضاء على التعليم الديني والثقافة الإسلامية.

2- التشكيك في المعتقدات الدينية، وطمس المقدسات لدى الشعوب المسلمة لصالح الفكر المادي اللاديني الغربي، أو إحلال الفلسفة المادية الغربية محل العقيدة الإسلامية. ويمكن الإشارة إلى الوثيقة المسماة "الإستراتيجية المشتركة للاتحاد الأوروبي في المتوسط"، والتي أصدرها مؤتمر قمة الاتحاد الأوروبي في جوان سنة 2000. وتشير الوثيقة صراحة إلى سعي الاتحاد إلى تغيير بعض القيم الدينية في الدول العربية المطلة على البحر المتوسط بحيث تتوافق مع القيم الأوروبية.

3- استبعاد الإسلام وإقصاؤه عن الحكم والتشريع، وعن التربية والأخلاق وإفساح المجال للنظم والقوانين والقيم الغربية المستمدة من الفلسفة المادية والعلمانية البراغماتية. ومن آثار العولمة في هذا الجانب: التحدي الخطير الذي تواجهه الشريعة الإسلامية من القوى المحلية العلمانية التي تتلقى الحماية الدولية المعنوية والمادية باسم الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، ولقد انتشرت الجمعيات الأهلية المدعومة غربيا، التي تقوم بمحاربة الهوية الثقافية الإسلامية، وإثارة الشبه والشكوك حول النظم والتشريعات الإسلامية وخاصة فيما يتعلق بالعلاقة بين المرأة والرجل وقضايا المرأة المسلمة، وتطالب بعضها جهارا نهارا الحكومات والمجالس البرلمانية إصدار القوانين وفق مواثيق الأمم المتحدة المتعلقة بحقوق الإنسان بعيدا عن النظم والتشريعات الإسلامية.

4- تحويل المناسبات الدينية إلى مناسبات استهلاكية، وذلك بتفريغها من القيم والغايات الإيمانية إلى قيم السوق الاستهلاكية، فعلى سبيل المثال: استطاع التقدم العلمي والتقني الحديث أن يحول شهر رمضان–شهر الصوم والعبادة والقرآن–وعيد الفطر خاصة من مناسبة دينية إلى مناسبة استهلاكية.

ب/ سمات عالمية الإسلام:

تقوم عالمية الإسلام على نوعين من القيم: (10)

أولا: قيم عامة تدخل بها المجتمع البشري، وهي:



1- العدل: بالإيمان وحدة النوع البشري في أصله ومصيره.

2- السلام: بالإيمان بحق الحياة للفرد، وللمجتمع البشري.

3- الحرية: بالإيمان بالكرامة الإنسانية.

ثانيا: قيم خاصة تلتزم بها في المجتمع الإسلامي، وهي:

1- وحدة الإله المعبود، ووحدة الدين، ووحدة الأمة.

2- الأخوة الإسلامية: وصورتها الاقتصادية:التكافل الاجتماعي.وصورتها السياسية: الشورى والبيعة.

3- الجهاد إيمانا بضرورة تبليغ الدعوة، وضرورة حماية دولتها، وواجب صيانة القيم العامة.

ومن سمات عالمية الإسلام:

أن الإسلام دين يتميز بالعالمية. والعالمية تعني:عالمية الهدف والغاية والوسيلة، ويرتكز الخطاب القرآني على توجيه رسالة عالمية للناس جميعًا، قال تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)** الأنبياء 107، وقال تعالى:**(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)** سبأ:28، ووصف الخالق عز وجل نفسه بأنه "رب العالمين"

إن الحضارة الإسلامية قامت على القاسم المشترك بين حضارات العالم، فقبلت الآخر، وتفاعلت معه أخذا وعطاء، بل إن حضارة الإسلام تعاملت مع الاختلاف بين البشر باعتباره من سنن الكون، لذلك دعا الخطاب القرآني إلى اعتبار الاختلاف في الجنس والدين واللغة من عوامل التعارف بين البشر. اتساقا مع نفس المبادئ، إن الإسلام يوحد بين البشر جميعا رجالا ونساء، في قضايا محددة:أصل الخلق والنشأة، والكرامة الإنسانية والحقوق الإنسانية العامة، ووحدانية الإله، وحرية الاختيار وعدم الإكراه،ووحدة القيم والمثل الإنسانية العليا.

ومن هنا تظهر الاختلافات جلية بين مفهوم عالمية الإسلام ومفهوم "العولمة" فبينما تقوم الأولى على رد العالمية لعالمية الجنس البشري والقيم المطلقة، وتحترم خصوصيته، وتفرد الشعوب والثقافات المحلية، ترتكز الثانية:على عملية نفي أو استبعاد لثقافات الأمم والشعوب ومحاولة فرض ثقافة واحدة لدول تمتلك القوة المادية وتهدف عبر العولمة لتحقيق مكاسب السوق لا منافع البشر([11]) .



فالدولة الإسلامية احترمت عقائد رعاياها من غير المسلمين من أهل الذمة، وكفلت لهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية، ووفرت لهم حق الحماية؛ فدماؤهم وأموالهم مصونة، وحرياتهم وكراماتهم محترمة، ولم تصل الإنسانية إلى إقرار هذه الحقوق في ظل القوانين الوضعية إلا في القرن العشرين.

2- الأسباب السياسية لتزايد العداء وتناقص الحب تجاه الإسلام والمسلمين:

بالرغم من ثقل العالم الإسلامي جغرافيا وديمغرافيا، فضلا عن أهميته الإستراتيجية وميزانه الحضاري، إلا أن النظرة التقليدية تجاه هذه الحقيقة تبقى تقر بأن الحضارة الإسلامية مجرد نقل ومحاكاة عن الأنموذج الغربي([12]). واستبعاد استيعاب تراث الإسلام في سياسات منصفة لحل مشكلات العالم الإسلامي.

- **ظاهرة التطرف الديني Radicalism:** ينظر إلى ظاهرة التطرف الديني الإسلامية باعتبارها نتيجة ظروف وضغوط اقتصادية واجتماعية صعبة أسهم الغرب في خلقها نتيجة سياسته الاحتكارية الاستغلالية. بالرغم من أن ظاهرة التدين عند المسلمين مرتبطة رباطا وثيقا لنزعة إسلامية متسامحة. وبالتالي فالغرب يرى من الفتوحات الإسلامية أنها ارتكنت إلى السيف، وأهمل المآثر الحضارية المشعة التي أسهمت في إخراج أوربا المظلمة إلى عصر النهضة مثلا.

- **الإستشراق Orientalism:** من بين أفكار الإستشراق الرأسمالي الغربي أن الإسلام مسؤول عن تكريس الإقطاعية اقتصاديا، والإثنية اجتماعيا، والطائفية عقيديا. وكذا وصف الحضارة العربية الإسلامية بالركود والانغلاق. وأن العالم الإسلامي لم يشهد تحولات وثورات برجوازية تقدمية بقدر ما شهد من سيادة النظم الاستبدادية المنبعثة –حسبهم– أصلا من تعاليم الإسلام. والنتيجة أن حل مشكلات العالم الإسلامي مقترن فقط باندماجه في النظام الرأسمالي العالمي.

- **الإسلام الجديد NeoIslamism:** يعتبر الغرب أن الإسلام الجديد يشكل الآن الخطر الأول المهدد لمصالح الغرب الإمبريالي، وذلك قبل انهيار الشيوعية العالمية. وهذا ما يفسر انشغال الدوائر الغربية بمراجعة موقفها ومناهجها تجاه هذا الخطر الداهم، وبالتالي حاولوا الاستعانة بالحركات العلمية الإسلامية عبر إجراء دراسات مشتركة مع مراكز البحوث والدراسات الأوربية والأمريكية عن واقع المجتمعات الإسلامية المعاصرة. وهناك الكثير –للأسف– من الأكاديميين

العرب والمسلمين ممن تورطوا في التعامل مع هذه الدوائر المشبوهة. وإلا كيف نفسر التحام صفة الإرهاب أو ذكر ملما تعلق الأمر بشأن يخص الإسلام والمسلمين.

كما تورطت الكثير من المؤسسات الدينية في العالم الإسلامي بذات الدور حين تبنت مخططات إمبريالية تنادي بضرورة أسلمة العلوم Islamisation des sciences، بهدف تطويق الإسلام وتطويعه وتوظيفه في تكريس التبعية والتخلف، من خلال إصدار سلسلة من الكتب تقدم الإسلام بصورة مشوهة.(1[3])

العلمانية / اللائكية Laicism : عقدت 15-5-1648 في، معاهدة "واستفاليا" التي وضعت نهاية لحرب الثلاثين سنة التي دمرت واربا مثلما لم تدمرها حرب قبلها أو بعدها. أساسا، كانت الحرب بين البروتستانت (الألمان وحلفائهم في دول اسكندينافيا) والكاثوليك (الفرنسيين وحلفائهم في ايطاليا واسبانيا). وكانت هناك عوامل أخرى ثانوية: سياسية وعسكرية واقتصادية.

كان أساس اتفاقية "واستفاليا" هو منح الحرية للأمراء والإقطاعيين في المناطق المتنازع عليها أن يختاروا ما بين البروتستانتية والكاثوليكية. وبصورة أو أخرى، فصلت بين الدين والعلاقات الدولية. وكانت تلك بداية العلاقات الدولية العلمانية كما نراها اليوم.

عندما كتب علماء السياسة الدولية العلمانية عن اتفاقية "واستفاليا"، ركزوا على نظرية "فصل الدين عن العلاقات الدولية". لكنهم نسوا، أو تناسوا، "الغزو الإسلامي". وذلك بسبب توسعات الأتراك العثمانيين، الذين كانوا احتلوا اليونان وبلغاريا، ووصلوا إلى البوسنة والصرب. في الحقيقة، كان "الخطر الإسلامي" في أوربا في ذلك الوقت سببا رئيسيا لنهاية حرب الثلاثين سنة (توحيد كلمة المسيحيين لمواجهة المسلمين).

II- الإسلام كمحدد للسياسات الداخلية في الدول الغربية

قد يعتبر البعض أن اعتبار الإسلام من محددات السياسة الداخلية للدول الغربية أمر غريب، لكن الدارس والمتطلع لحقيقة الأمر يجد نماذج واقعية لدول حققت ازدهارا وتطورا نتيجة انتهاجها للدين الإسلامي عل المستويات الثلاثة (دين/حضارة/سياسة) ومن بينها أندونيسيا وماليزيا، لكننا ارتأينا إلى اختيار النموذج التركي لأنه أصدق تعبيرا عما يصطلح بتسميته الإسلاموفيليا أو حب الإسلام والمسلمين، مع أننا لا ننكر أنه إذا كانت هذه الدول تؤمن بأن مسألة الإسلام مقدسة



وتضعها قيد الحسبان في سياستها الداخلية؛ توجد دول تعتبرها محرمة وممنوع الخوض فيها بأي شاكلة كانت.

حين ظل العلمانيون المتطرفون يخوضون معركتهم ضد الحجاب في تركيا، ويتشبثون بميراث الكمالية التي عفا عليها الزمن، فإن فكرة الجمهورية الثانية لتجديد النظام التركي والنهوض به كانت تكبر وتكسب المزيد من الأنصار. وتزامن ذلك مع ظهور حزب العدالة والتنمية بمشروعه الذي كان يصب في نفس الوعاء. وكان من الطبيعي أن يلتقي المشروعان، وأن يعتبر منظرو الجمهورية الثانية أن حزب العدالة هو القوة السياسية التي يمكن الاعتماد عليها لتحقيق هدفهم المنشود. ونجح التوافق بين المشروعين لثلاثة أسباب رئيسة هي:(14)

- أنهما أصبحا يمثلان استجابة للظرف التاريخي الداعي إلى التغيير في تركيا.
- أن الطرفين تعامل بعضهما مع بعض بغير عقد, فدعاة الجمهورية الثانية – وهم علمانيون بامتياز يصنفون ضمن المعتدلين– لم يجدوا غضاضة في التوافق مع الحزب بخلفيته الإسلامية وموقفه المعتدل. وكانت المصلحة الوطنية هي القاسم المشترك الأعظم بينهما. ومن ثم تحلل الطرفان من العقد المسكونة بالخوف والتوجس الشائعة في عالمنا العربي.
- أن رموز الطرفين ينتمون إلى جيل الوسط الآتي من خارج دائرة السياسيين المحترفين، الذين تلوثوا بممارسات ودسائس وفساد المرحلة السابقة.

ومع أن المنظمات العسكرية السرية قد ألغيت في جل البلدان، وخاصة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، إلا أنها بقيت موجودة ونشطة في تركيا، وكثيرا ما تقوم بعمليات "إرهابية" وباغتيال أشخاص معينين، وتنسب هذه العمليات للمسلمين. مثلا تقوم باغتيال كاتب أو صحفي ملحد أو شيوعي، وتثور الصحافة معلنة أن خطر "الإرهاب الإسلامي" موجود في تركيا، وأنه يريد جر تركيا إلى ظلام القرون الوسطى، لذا يجب تصفية النشاطات الإسلامية لأنها المنبع الذي يفرغ هذا التعصب والإرهاب.

هذا هو باختصار شديد الجو الموجود في تركيا.. فكيف يستطيع أي قائد لحزب إسلامي العمل في مثل هذا الجو؟ وكيف يسمح له بالعمل تحت شعارات إسلامية ؟! بعد يومين فقط تقوم المحكمة الدستورية بحل ذلك الحزب ومصادرة أمواله.. هكذا بكل بساطة.

نجح أردوغان فعليا ورفاقه في تحقيق نسبة لا بأس بها من الأهداف المنشودة، والعمل من أجل الملايين من المسلمين الذين يعانون من الفقر والجهل والمرض في تركيا، ومن أجل تقوية



تركيا سياسيا واقتصاديا وعلميا وتكنولوجيا وصناعيا، وكذا زيادة الثقل السياسي لتركيا في العالم، وهو كسب كبير للإسلام ولجميع المسلمين في العالم.

إن العمل على رفع العوائق الموجودة حاليا أمام التعليم الديني وأمام الحريات الشخصية للمسلمين في تركيا، وتخليص الاقتصاد التركي من قبضة العلمانيين المتطرفين، والعمل على إنهاء هيمنة العسكر على السياسة، وإنهاء عهد الانقلابات العسكرية التي أخرت البلد عقودا عديدة ومنعت انطلاقها وتقدمها، وترسيخ الديمقراطية في تركيا وحقوق الإنسان.. وأعتقد شخصيا أن هذه الأهداف تقع في قلب النهوض الإسلامي، ولا يظن أحد أن هذه أهداف صغيرة أو هينة؟ أليست أهدافا إسلامية يجب العمل على تحقيقها، حتى وإن لم تكن هناك "لافتة" أو شعار إسلامي عليها؟ هذا هو باختصار ما يسعى أردوغان ورفاقه لتحقيقه.

لم تقتصر المشاركة السياسية للجماعات الدينية في تركيا على الجماعات أو التيارات الدينية التي شكلت أحزابا سياسية؛ ففي ظل حكم الإسلام المعتدل ازدهرت جمعيات المجتمع المدني، في حين الذي بقيت فيه الأحزاب السياسية الأخرى ضعيفة، عرفت تركيا الحديثة عدة مراحل أساسية حتى اليوم في المشاركة المباشرة للتيار الإسلامي التركي في العمل السياسي، وهكذا فإنه على الرغم من النواقص والعثرات ما كانت الديمقراطية في تركيا أقوى مما هي عليه اليوم.(1[5])

يمكننا من خلال ما تقدم أن نرصد بعض الدلالات حول وضع تركيا الإسلام كمحدد لسياستها الداخلية وتحقيق تفوقات تتجاوز التوقعات على المستويين الداخلي والخارجي كالآتي:

- تعرف الأحزاب التي تصنف إسلامية في تركيا من خلال الشعارات التي ترفعها، أو من خلال تدين قادتها وأنصارها، وأيضا من خلال الأنشطة والمشروعات التي تطرحها، وليس من خلال مشروع التأسيس للحزب أو الأدبيات التي تنشر عنه، لأن الدستور التركي يمنع تأسيس أحزاب ذات مرجعيات دينية أو عرقية.
- إن مسألة أسلمه الدولة غير مطروحة كشعار أو مشروع لدى التيار الإسلامي التركي، لكنهم يتفقون جميعا على العمل من أجل أسلمه المجتمع من دون التصريح بذلك.
- القيادة العسكرية والكمالية تدرك أن الحركة الإسلامية تيار وطني قومي أيضا، وغير مرتبط بتيارات خارجية.
- التيار القومي التركي (إسلامي بالضرورة) ويمكنه التحالف مع التيارات الإسلامية الليبرالية.
- التيار الإسلامي التركي قوة اقتصادية، ويكفى أنه يمتلك ما يزيد على خمس فضائيات وعشرات



من المحطات الأرضية، بالإضافة إلى المئات من الإذاعات، وعددا من الصحف اليومية والأسبوعية والمجلات، ومراكز الأبحاث المتخصصة، ونشط أيضا في تأسيس المدارس الخاصة والجامعات ودور النشر، وتحول إلى قوة اقتصادية هائلة، حيث تمتلك بعض الجماعات مصارف إسلامية، واستثمارات في مجال الصناعة والسياحة والفندقة، ويوجد للتيار الإسلامي ما يزيد عن خمس جمعيات لرجال الأعمال، والتنظيمات المهنية كالنقابات، ويدير التيار الإسلامي آلافا من الأوقاف الخيرية والتعليمية والصحية، وجمعيات الدفاع عن حقوق الإنسان والمرأة والطفل والبيئة وغير ذلك.

إن مطالبة أمريكا بالتدخل والتوسط لدى أوربا يظهر حالة "التكالب" الظاهري على الدخول للاتحاد الأوربي، والمعروف أن أمريكا تطالب أوربا بذلك لاسترضاء تركيا في هذه اللحظة، واستعدائها على العراق، وهى أيضا محاولة لاستئناس ظاهرة إسلامية ربما تكون هي النموذج الإسلامي–العلماني الأمريكي، الذي تود أمريكا تعميمه في العالم الإسلامي! وأيضا فإن دخول 66 مليون مسلم بتركيا في النسيج الأوربي هو عبء سياسي أمني تتحمله أوربا من دون أمريكا!!

تلف عالم الإسلام غيوم قاتمة، حاكتها أيادي الانحطاط وتجارب التجديد الفاشلة المرتبكة، أورثت المسلمين مسلسلات من المصائب والنكبات وضروبا من الاستبداد والفساد والتمزق والتفرق والمحن المتكررة.. الظاهرة الإسلامية التي ولدت وانتعشت على أنقاض الهزائم المتكررة التي منيت بها أيديولوجيات اليمين واليسار على المستوى العسكري، حيث قادت الهزائم إلى الاستسلام المتكرر للإمبريالية الصهيونية وحلفائها. وعلى المستوى السياسي "غدا الاستبداد والقمع كأنه قدر هذه الأمة"، وعلى المستوى الاقتصادي برز "الارتباط المذل بالاقتصاد الرأسمالي، وتفقير الشعوب رغم الثروات الطائلة"، وعلى المستوى الأخلاقي والثقافي تجلى "انتشار التحلل والتخدير والتجهيل والانتقائية".. فكان انتعاش العمل الإسلامي واندلاع ثورات الإسلام في إيران، وأفغانستان، وسوريا، وفى المغرب العربي، أنبل ظاهرة انبثقت. إلا أن هذه الظاهرة بقدر الآمال التي عقدتها الجماهير عليها فسارعت إلى الالتفاف حولها، بقدر الأخطار المحدقة بها من كل مكان، بقدر ما يشقها من أزمات حادة من خصام وتوتر وبطالة وعنف وارتباك وتآكل. وهى ظواهر لئن اختلفت حدتها من جماعة إلى أخرى إلا أنها تمثل قاسما مشتركا بين جميع المسلمين أينما وجدوا، مما شكل المعوق الأساس لنموها وفعاليتها وقدرتها على مواجهة تحدياتها، والتصدي لخصومها، مما بدت معه لبعض الناس أن خشية إجهاض ذلك الأمل أمرا واردا جدا([16]) ، إذا لم يقع الوقوف على حقيقة

الأزمة الداخلية التي تعيشها الحركة الإسلامية وإيفاؤها حقها من التحليل والدرس من أجل التشخيص الجاد وتحديد العلاج النافع.

II- الإسلام كمحدد للسياسات الخارجية في الدول الغربية:

صدر عن مطبعة جامعة برنستون Princeton، كتاب "العلمانية في السياسة الخارجية" الذي كتبته إليزابيث هيرد، أستاذة علوم سياسية في جامعة نورث ويسترين (بالقرب من شيكاغو). وملخصه أن أساتذة العلوم السياسية والعلاقات الدولية في الدول الغربية تجاهلوا، لأربعمائة سنة تقريبا، دور الدين في السياسة الخارجية. وكرروا أن الدين شيء خاص، وقالوا: مثل فصل الدين عن الدولة في الداخل، يجب فصل الدين عن السياسة الدولية في الخارج.

لكن بعد هجوم 11 سبتمبر سنة 2001 على الولايات المتحدة الذي شن باسم الإسلام والمسلمين، وبعد دخول الحكومة الأمريكية في مواجهة قاتلة مع شخصيات ومنظمات إسلامية، ربما في كل مكان في العالم، اهتزت العلاقة بين الدين والسياسة الدولية، من ناحيتين:(1[7])

- أولا: صارت الأصولية الدينية والاختلافات والمواجهات الدينية جزءا من السياسة الدولية، والأمن القومي.
- ثانيا: فاجأت هذه المسألة علماء وخبراء السياسة الدولية في الغرب، والذين ظلوا منذ بداية دراسة العلاقات الدولية، قبل أربعمائة سنة تقريبا يقولون العكس.

فمن جهة قلص علماء السياسة الدولية العلمانية دور الدين، وقلص علماء السياسة الداخلية دور الدين أيضا. ونظروا إلى الدين كمنظمات دينية، متطرفة، أو معتدلة، ربما لها دور في السياسة الداخلية أو الخارجية، وربما ليس لها دور. وورد في هذا الكتاب أيضا أنه في نظر، توجد منظمات دينية، ومنظمات إرهابية تستعمل الدين، أو تستغل الدين. لكنها تعلب دورا هامشيا بالمقارنة مع المصالح الإستراتيجية والاقتصادية والأمنية، ومع موازين القوي، وأمن الأوطان.

ومع تغير مجرى الأحداث، عاد الدين، علنا وواضحا، إلى العلاقات الدولية. لكن، لا يريد كثير من الطائفتين الاعتراف بذلك: علماء العلاقات الدولية؛ والسياسيون.

وعلى صعيد آخر هناك ثلاث دول إسلامية محتلة احتلالا مباشرا من قبل الدولة العبرية والولايات المتحدة الأمريكية الوريث الشرعي للإمبراطورية البريطانية؛ كما قال هنري كيسنجر في مقالة له عن النظام العالمي الجديد. وهذه الدول هي فلسطين وأفغانستان والعراق، وهناك دول



إسلامية انشطرت بسبب الولايات المتحدة الأمريكية ومساعيها، وهي إندونيسيا التي استقلت عنها تيمور الشرقية، والصومال، كما أن هناك جمهوريات إسلامية تقبع تحت الاحتلال الروسي كالشيشان والتي لم تأخذ حظها من الاستقلال، على الرغم من أن الجمهوريات الكاثوليكية في الإتحاد السوفياتي السابق نالت استقلالها بدعم من الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد أصبحت الدوائر الأمنية في العواصم الغربية تعيش هاجسا أمنيا لا مثيل له ويتمثل في دراسة هذه الدوائر لكافة الاحتمالات حول تفاعل العرب والمسلمين في الغرب، خاصة بعد الحملة الشرسة التي شنتها الولايات المتحدة الأمريكية خصوصا على كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين رمزا وعقيدة، دينا أو سياسة. ومع وضع السيناريو الأمريكي تحسبا لأي جديد قد يفرزه الغضب العربي والإسلامي في العواصم الغربية من شأنه أن يخل بالأمن القومي الغربي؛ ستلجأ الولايات المتحدة الأمريكية إلى تفكيك كافة المرجعيات القانونية والسياسية الدولية، باعتبارها باتت تعتبر نفسها صانعة القانون وراعية العلاقات الدولية، كما ورد في كتاب الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون، أمريكا والفرصة التاريخية والذي قال فيه نيكسون: "على أمريكا أن تحكم العالم".([18])

نجد أن مفهوم القوة الذي تستعمله الولايات المتحدة الأمريكية في سياستها الخارجية تجاه الإسلام والمسلمين أفراد أو جماعات أو دول، هو أبرز رقم في معادلة السياسة وتركيبة القرار الأمريكي، وفي مفردات الثقافة الأمريكية أن هذه القوة ضرورة ومشروعة لبسط سلطة العدل ومحاربة الأشرار –طبعا العدل على المقاس الأمريكي–، وفي كتابه الشهير الديمقراطية في أمريكا والذي ألفه في سنة 1840 قال توكفيل: "إني لا أعرف شعبا يحتل فيه حب المال حيزا كبيرا في قلوب الناس أكثر من هذا الشعب الأمريكي شعب يشكل تجمعا من المغامرين والمضاربين".([19])

فعندما كتب علماء السياسة الدولية العلمانية عن هجوم 11 سبتمبر سنة 2001، وإعلان الرئيس بوش الحرب ضد الإرهاب، تبنوا نظرية بوش: نظرية "الإرهاب". ونسوا، أو تناسوا، أن الموضوع له خلفيات دينية، بل يكاد أن يكون كله موضوعا دينيا. لهذا أخطأ علماء السياسة الدولية العلمانية لمرتين:

أولا، لأنهم تجاهلوا العامل الإسلامي في تحليلاتهم للوضع الحالي، وثانيا؛ لأنهم تجاهلوا دور الأديان، كل الأديان، خلال أربعمائة سنة تقريبا من تحليلاتهم، ونظرياتهم، وفلسفاتهم، وأطروحاتهم.



وضعت الإدارة الأمريكية مخططا كاملا وإستراتيجية متعددة الأبعاد تجاه الإسلام والمسلمين لإعادة تأهيل العالم الإسلامي ثقافيا وتربويا وعلميا، وكل دولة إسلامية تحاول الانطلاق من مقوماتها الذاتية وتعمل على احتكار أسرار التقنية، وتحديدا تكنولوجيا السلاح فإنها تدرج في خانة الدول المتمردة Rogue States /Failed States وبالتالي هناك كم هائل من القوانين لمعاقبتها.

وبعد الحادي عشر من سبتمبر 2001، خرجت أمريكا من دائرة الرغبة في بسط الاحتلال السياسي والاقتصادي والثقافي إلى الاحتلال العسكري، ومثلما كان العالم الإسلامي في بداية القرن الماضي عرضة للاستعمار والاحتلال فإنه دشن بداية قرنه الحالي باحتلال أمريكا لدول مفصلية إستراتيجيا وجيوسياسيا في الجغرافيا الإسلامية وما زالت شهيتها مفتوحة إلى درجة أنها أعادت عسكرييها المتقاعدين إلى الخدمة وفي العالم الإسلامي !(2[0])

تاريخ سوء التفاهم بين الغرب والإسلام قديم جدا، مع أن سوء الفهم تجاه الإسلام وأهله دون مبرر، وهذا الخوف من المستقبل على أوروبا وأمريكا لتزايد قوة الإسلام فيهما، لأن الإسلام الدين الإلهي الختامي، وما الذي يضير أوروبا إذا تزايد المسلمون فيها وهم طاقة إنتاجية لا تتكر، وكذلك إبداعية !؟.

خاتمة:

لا تذهب اليوم (في الغالب) إلى أي مجال تعليمي، أو اقتصادي، أو صحي، أو سياسي، أو اجتماعي، أو رياضي أو فني أو... في أي دولة من العالم إلا وتجد فيها حضورا (أفرادا، أو مؤسسات) للمسلمين، إنهم يشاركون في بناء مجتمعاتهم التي يعيشون فيها، ويسهمون في مسيرة حضارة الإنسان اليوم وبكل قوة ! لكنهم يشاركون بصفتهم مسلمين يمثلون أثر الإسلام في الحياة، فيكونون خير دعاة بواقعهم إلى حضور الإسلام في واقع حياة البشرية اليوم، وأن سعادتهم مرهونة بإتباعه.

حتى على مستوى الدول الإسلامية ذات السيادة المستقلة، تلحظ العمل المتواصل للأخذ بأسباب التقدم والرقي، وتلحظ سعي الجميع إلى وحدة الأمة وتلاحمها، والمنظمات الإسلامية التي تسعى لجمع كلمة المسلمين، وتوحيد مواقفهم السياسية للوقوف مع إخوانهم المسلمين في كل مكان، وتوحيد جهودهم الاقتصادية، وقيام المنظمات والمؤسسات الإسلامية بمد يد العون والإغاثة للمسلمين المستضعفين، وحتى غير المسلمين من المنكوبين خير دليل على فاعلية الإسلام في



الحياة .وهاهي الأقليات الإسلامية تعمل جاهدة في تكوين تكتلات مؤسسية تعمل على خدمة مصالحهم في البلدان التي يعيشون فيها، والمحافظة على هويتهم الإسلامية، والمطالبة بحقوقهم.

إن المسلم اليوم رغم ما يجده من كيد أعداء الإسلام الذي لم يقف عند غزوه الثقافي والفكري من خلال الآلة الإعلامية الضخمة التي يملكها، بل تعداه إلى الغزو العسكري لبلاد المسلمين، إنه ليجد في الإسلام ما يغذي فيه روح التفاؤل ويبعد عنه اليأس والقنوط {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }آل عمران139؛ ويجد في الإسلام ما يغذي فيه الصبر والثبات رغم اشتداد الكيد {.. وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } آل عمران120، لذلك هو دائما يتطلع إلى مستقبل مشرق غدا، روى الإمام أحمد – رحمه الله– في مسند الشاميين عن تميم الداري – رضي الله عنه – قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: " ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزا يعز الله به الإسلام وذلا يذل الله به الكفر ".

إن تدافع الأحداث في بؤرة الصراع مع الحملة الصهيونية الأمريكية يجب ألا يشغلنا عن الانتصارات التي تحدث في الدوائر المحيطة والأوسع والتقدم الذي أحرزته القوى الإسلامية في تركيا والمغرب والبحرين وباكستان...الخ، وصراعنا مع الغزوة الصهيونية الأمريكية ليس صراعا مسلحا فحسب، بل هو صراع حضاري شامل، ولابد من مواجهته بكافة الأدوات والأشكال وفى كافة المجالات، ولا شك أن إصلاح الأوضاع الداخلية للأمة الإسلامية أمر جوهري، لأن الهدف – في نهاية المطاف هو أن نقيم حضارتنا المستقلة وفق أسس عقيدتنا، وبناء على مصالحنا الوطنية والقومية. ولأن إصلاح أوضاعنا الداخلية يمكننا من المواجهة المباشرة مع العدو المتربص بنا، ولا شك أن ما حدث في باكستان وتركيا كان الحدث الأبرز.

ويهمنا في الأخير أن ننوه ببطلان مزاعم بعض المعادين للصحوة الإسلامية الذين أكدوا في السنوات الماضية بظاهرة تراجع الحركة الإسلامية، والواقع أن الصحوة الإسلامية تعرضت لحركة قمعية مضادة طوال العقد الماضي، ولم تتعرض لانفضاض جماهيري كما يزعمون، وأن القمع يؤتى ثماره في المدى القصير، ولكنه ينكسر تحت إرادة الجماهير وتيارها التاريخي، في أواخر الثمانينيات وفى أوائل التسعينيات كانت الانتصارات الإسلامية تتلاحق في السودان والجزائر والبوسنة ومصر والأردن واليمن وأفغانستان وماليزيا وتونس والشيشان ولبنان وفلسطين وتركيا.



وبما أن هذه السياسات الداخلية أو الخارجية المناوئة للإسلام والمسلمين والتي يتبناها الغرب بعد اعتناقه للمسيحية أو دين آخر، إنما ناجمة عن مستوى أرقى من الصراع ينم عن خلفيات تستمد من بؤر التاريخ الغابر؛ ألا وهو صراع الحضارات. والذي جعل من الإسلاموفوبيا أو الإسلاموفيليا وجهين لعملتين مختلفتين في توجهات السياسات الغربية، يدخلنا في دوامة أخرى أو متاهة غير منتهية من الإشكاليات حول مستقبل الإسلام والمسلمين، في ظل المتغيرات الدولية الجديد على الأقل في الأجل المنظور.

الهوامش:

1- For more information about this subject see: **http://www.insted.co.uk/debates.html**
2- ECLJ, Commentaires sur le concept «d'Islamophobie» à l'occasion de l'examen par l'Assemblée Parlementaire du Conseil de l'Europe du projet de résolution et de recommandation n°12266 sur **«l'islam, l'islamisme et l'islamophobie en Europe»** inscrit à l'ordre du jour du mercredi 23 juin 2010, pp 02-04.

3- د. صالح الرقب، "**بين عالمية الإسلام والعولمة**"، بحث مقدم لمؤتمر التربية الأول بعنوان: "التربية في فلسطين ومتغيرات العصر"، فلسطين، 2004، ص 15.

4- نفس المرجع، ص 18.

5- عبد الله بن جار الله الجار الله، "**كمال الدين الإسلامي: حقيقته ومزاياه**"، على الموقع التالي: **www.islamhouse.com**

6– **«Un chercheur inquiété pour islamophilie»**, sur LeMonde.fr, 10 juin 2009.
7- JANKELEVITCH , «**l'Europe entre islamophobie et islamophilie– le pur et l'impur**», Actualités Unitariennes, Par Jean-Claude Barbier, Publié dans : l'islam en Europe, Samedi 11 septembre 2010.
8– Volpi Frédéric, **Islam and democracy, The failure of dialogue**, 1st published, Pluto Press, London, 2003, p 115.

9- طارق البشري، **في المسألة الإسلامية المعاصرة: الملامح العامة للفكر السياسي الإسلامي في التاريخ المعاصر**، الطبعة الأولى، دار الشروق، القاهرة، 1996، ص 48.

10- Pénélope Casandra, **"Les journalistes idiots utiles dopés à l'islamophilie"** (IDIOTS UTILES DE TOUS BORDS DOPES A L'ISLAMOPHILIE VERSUS LA PSEUDO EXTREME DROITE DOPEE A L'ISLAMOPHOBIE), Riposte Laïque, N° : 168**,** lundi 25 octobre 2010.

11- د. عبد العزيز بن عثمان التويجري، **العولمة والحياة الثقافية في العالم الإسلامي**، مجلة الإسراء، العدد43، سبتمبر-أكتوبر2002، ص 95، ونشرته أيضا المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة-أيسيسكو- الرياض،2002، وهو موجود على موقع أيسيسكو-شبكة المعلومات الدولية.
12- Anne-Marie Delcambre, «**Islamophilie et culpabilité**», 10/05/2005, in **Debriefing.org**



13- د. محمود اسماعيل، **الإسلام السياسي بين الأصوليين والعلمانيين**، مؤسسة الشراع العربي، الطبعة الأولى، جويلية 1993، ص 125.

14- المديني محمد العادل، "**الإسلام المعتدل يدخل تركيا في عصر جديد**"، مجلة منبر الشرق، العدد 25734، المركز العربي للدراسات، القاهرة، 2007، ص 79.

15- مجدي أحمد، "**حول الحركات الإسلامية في تركيا**"، مجلة منبر الشرق، العدد 25734، المركز العربي للدراسات، القاهرة، 2007، ص 94.

16-Yucel Bozadaglioglo, **Turkish Foreign Policy and Turkish Identity : A constructivist approach**, Routledge, New Yourk & London, published in 2003, p 41.

17- SMEARCASTING: « **How Islamophobes spread fear, bigotry and misinformation** », FAIR (Fairness & Acuuracy In Reporting), p 03 to 24, October 2008, in : **www.fair.org**

18- يحي أبو زكريا، الغارة الأمريكية الكبرى على العالم الإسلام، أنظر ملخصات الكتاب على موقع، إسلام أون لاين، ص 09-32.

19- توكفيل الذي ولد في سنة 1805 وتوفي سنة 1859 هو كاتب وسياسي فرنسي, درس في الولايات المتحدة الأمريكية وعاد إلى فرنسا بكتاب الديمقراطية في أمريكا، حيث عين في فرنسا وزيرا لخارجية فرنسا.

20- Mustapha Chérif, **L'Islam Tolérant ou Intolérant**, Odile Jacob, Paris, Mars 2006, p 207.

صعود اليمين المتطرف في أوربا: تعبير عن عداء سياسي أم مجتمعي للإسلام؟

د. رابح زغوني
جامعة08 ماي 1945 قالمة- *الجزائر*

مقدمة:

عرفت السنوات الأخيرة ،خاصة مع بداية عقد التسعينيات، نجاحات لافتة وغير متوقعة لأحزاب أقصى اليمين Far Right – أو ما يطلق عليها أحيانا بأحزاب اليمين المتطرف Extreme، الراديكالي Radical أو الشعبوي Populist– في أغلب دول أوربا الغربية، خاصة في النمسا، النرويج، الدنمارك، هولندا، سويسرا وفرنسا، سواء في انتخابات المحافظات المحلية أو في الانتخابات البرلمانية والرئاسية، وحتى في انتخابات البرلمان الأوربي. وقد تفاوتت النتائج التي أحرزها أقصى اليمين هناك بين الوصول إلى الحكم أو المشاركة في تشكيل الحكومات أو على الأقل المنافسة الجدية و الاقتراب من تحصيل السلطة، ما جعل هذه الأحزاب تنتفض على ماضيها كمجرد أحزاب مناسبات، لتصبح فاعلا مِؤثرا ومنافسا ضمن الحركية السياسية الأوربية، وترتقي لتكون أحد البدائل السياسية الجديرة بثقة الناخبين عن القوى السياسية التقليدية ضمن اليمين واليسار.

اللافت في هذا الصعود أنه قد اقترن بظاهرة أخرى متزامنة، هي تصاعد الكراهية ضد ،أو بتعبير أدق، العداء للمسلمين في أوربا و المعبر عنها بظاهرة الاسلاموفوبيا. وهي ظاهرة فكرية بدأت تتقوى وتستشري في المجتمعات الأوربية لتصبح أيديولوجية ترتبط بنظرة اختزالية وصورة نمطية للإسلام ومعتنقيه من المهاجرين في أوربا، كمجموعة مغلقة على ذاتها ومحدودة تؤمن بقيم رجعية تلك التي تحض على العنف والاختزال والنظرة السلبية للآخر وترفض العقلانية والمنطق وحقوق الإنسان.

هذا التزامن لا شك انه يؤشر لوجود علاقة بين الظاهرتين، ويبرر بالتالي طرح إشكالية ارتباط صعود اليمين المتطرف الأوربي– وحضوه بالقبول لدى الناخب الأوربي– بالعداء للإسلام والمهاجرين المسلمين في برنامجه السياسي. فرغم تعدد المقاربات لظاهرة صعود اليمين المتطرف، إلا أن قليلا منها ضمن الأدبيات الغربية استقصى حول هذه العلاقة.



يقترح هذا المقال تحليل هذه العلاقة من خلال محاولة المقاربة لإشكالية طبيعة الصلة بين هذه الحملة المعادية للإسلام في أوربا التي يقودها اليمين المتطرف، وتحصيله مزيد من الشعبية والأصوات لدى الناخب الأوربي. بالتساؤل عما إذا كان العداء للإسلام مجرد خطاب يميني سياسي سائد على غرار خطابات أخرى، أم أنه تعبير عن حملة بمرجعية مجتمعية سائدة تجسد خوفا لدى المجتمعات الأوروبية (المسيحية) من فقدان هويتها ؟

بعبارة أخرى، هل صعود أحزاب اليمين المتطرف على الساحة السياسية الأوربية هو نتيجة تبنيها خطاب سياسي بسيط ومباشر يصل المواطن الأوربي على نحو مباشر، خلافا للخطاب السياسي الكلاسيكي الذي فقد مصداقيته لليمين واليسار؟ أم أن هذا الصعود هو مجرد نتيجة حتمية لاحقة لعداء مجتمعي سابق وليس سياسي مستشري لدى غالبية الغربيين حكام أم مواطنين، وجد طريقه للظهور من خلال هذه الأحزاب؟

1/ ماهي أحزاب اليمين المتطرف؟

لا يوجد اتفاق واضح بين الذين تناولوا موضوع أحزاب أقصى اليمين حول تعريف جامع لليمين الراديكالي، رغم الاتفاق الحذر حول خصائصها المشتركة وسمتها المتطرفة، بحيث لا يزال هناك استعمال لمفردات قريبة في اللفظ لكن بعيدة في المعنى كمترادفات مع أقصى اليمين ومن أمثلة ذلك "**اليمين الجديد**" و"**المحافظون الجدد**"[1]، رغم انه تعبير عن نسق فكري مختلف؛ فأما الأولى فتستعمل للإشارة لمتبني أفكار الليبرالية المتطرفة التي تدافع عن تحييد تام لدور الدولة في الاقتصاد مع خوصصة كثيفة وسوق مفتوح. بينما تشير الثانية للذين يحملون مشروعا تدخليا في السياسة الخارجية الأمريكية يرتبط فيه الاعتقاد الديني بالمصالح السياسة.

أما أقصى اليمين، فيكاد يكون هناك إجماع بين الباحثين في الشأن على أنه مقترن بالإيديولوجية الفاشية، بل يتم تصنيفه منتسبيه أحيانا تحت مسمى الفاشيون الجدد. وتتسم الفاشية عموما بكونها تلك الأيديولوجية التي تنكر قيم الليبرالية، العقلانية، الحداثة، الحرية والمساواة، كما ترفض الرأسمالية، الشيوعية والديمقراطية، وتعتقد بمثالية الدولة وحتمية الصراع لتقدم التاريخ، وتؤمن بمبدأ القيادة البطولية والالتفاف حول القائد[2]. و يختصر بييرو إغنازي Piero Ignazi الخصائص المعرفة للفاشية في مايلي[3]:

- الاعتقاد بسلطة الدولة على حساب الأفراد.



- التركيز على فكرة المجموعة الطبيعية.
- الشك في النظام التمثيلي والترتيبات البرلمانية.
- الحد من الحريات الفردية والجماعية.
- القبول بمبدأ الهرمية في التنظيم الاجتماعي.

ورغم أن بعض أحزاب اليمين المتطرف في أوربا لا تعتنق مبادئ الفاشية كما هو حال "الجبهة الوطنية" في فرنسا، ولأن جميع الأنظمة السياسية في أوربا تمنع الأحزاب التي تتبنى أفكار هتلر أو موسوليني، فإن هذه الأحزاب تتبنى بصورة شكلية أفكار الديمقراطية والتقدم في تسمياتها دون أن تتبناها فعليا.

و رغم وضوح الخلفية الإيديولوجية، يجد الباحث عن تحديد واقعي دقيق لما هو اليمين المتطرف مقاربات مفاهمية مختلفة.

ف **بييرو إغنازي**[4] مثلا يقترح ثلاث معايير لتصنيف أحزاب اليمين المتطرف. أولها، أنها يجب أن تتموقع في موقع بعيد عن النقاش التقليدي يمين –يسار. ثانيها، أنها يجب أن تمتلك روابط بالفاشية. ثالثها، أنها لا بد أن تدافع عن قضايا وقيم وسياسات مناهضة للديمقراطية والرأسمالية؛ أي أنها يجب أن تكون ضد النظام Anti-System .

ويقدم **هانز جورج باتز** [5] Hanz-George Betz مقاربة اقل صرامة وأكثر اتساعا لليمين المتطرف، التي يطلق عليها أحزاب جناح اليمين الشعبوية، هذه الأحزاب حسب باتز هي تلك التي تنتقد السياسات الاقتصادية والاجتماعية للديموقراطيات الغربية دون مهاجمة أسسها؛ بحيث ترفض المساواة الفردية وتركز على التجانس الإثني وتمقت المهاجرين. وهي أحزاب بمركزية عالية ونظام هرمي مرتكز حول شخصية القائد الكارزماتية، وتستعمل الشعبوية كأسلوب فعال للتسويق السياسي.

أما **مات غولدر** [6] Matt Golder فيميز بين ما يسميه الأحزاب الفاشية الجديدة والأحزاب الشعبوية، أما الأولى فهي أكثر تصورية في طبيعتها وبرامجها. أما الثانية، فهي شعبوية بسبب تركيزها على المسائل المادية مثل الربط بين الهجرة والبطالة. ويرى غولدر أن الأحزاب الشعبوية وليست الفاشية الجديدة هي التي حصلت على نجاحات انتخابية مؤخرا.

ويجادل **كاس ميد** Cas Mudd [7] أن الأسس الإيديولوجية المشتركة لليمين المتطرف الأوربي هي اربعة: القومية أو الانتماء للوطن Patriotism، العداء للأجنبي Xenophobia، حفظ القانون والنظام، النظرة الشوفينية للرفاهية Welfare chauvinism ؛ بحيث يجب على الدولة أن تضمن من خلال سياستها الاجتماعية رفاهية أفراد الأمة دون الأجانب.

غير أن أكثر المقاربات التي حضت بالإجماع حول الخصائص المشتركة لأحزاب اليمين المتطرف الأوربي هي التي قدمها **مايندرت فينيما** [8] Meindert Fennema ، بحيث تنظر لهذه الأحزاب كنسق فكري موحد، من خلال برنامجها المعادي للهجرة والمهاجرين، لذا يطلق عليها أحزاب ضد الهجرة Anti-Iimmigration Parties. فرغم بعض الاختلافات في الأولويات المحلية، فان جميع الأحزاب في أقصى اليمين الأوربي تشترك في موقف موحد تجاه الحد من الهجرة وخطر المهاجرين، بحيث تصور المهاجرين كأهم مشكلة في أربع صور مختلفة[9]؛ كتهديد للهوية الاثنو-وطنية، كسبب للبطالة، كسبب رئيسي للجريمة ومظاهر أخرى للاأمن الاجتماعي، و كسوء مستغلين لما توفره دولة الرفاه. وهذا ما يؤكده الواقع، بحيث أكدت دراسة مقارنة في نتائج سبعة أحزاب يمينية متطرفة في انتخابات البرلمان الأوربي سنتي 1994 و 1999 أن العامل المرجح في التصويت لصالح هذه الأحزاب هو موقفها من سياسات الهجرة ودعوتها لتقييدها[10].

إذن يشكل العداء للأجانب، ورفض الأقليات وفكرة التعددية الثقافية، والدفاع عن هوية اثنو-وطنية وعن التقاليد القومية التاريخية، والدعوة للحد من الهجرة، القاعدة المشتركة لأي برنامج سياسي لحزب يميني متطرف، وهذا ما يبرر - رغم بعض الاختلافات- المقاربة لها بشكل جماعي ضمن سياق السياسة الأوربية والإشارة لها كيمين أوربي متطرف.

دون إنكار وجود قواسم مشتركة أخرى في برنامج أقصى اليمين، أهمها انتقاد سياسات الديموقراطية الاجتماعية لليسار وتشجيع الفردية لليمين، ورفض الاندماج الأوربي، والدعوة لتقليص الضرائب ولتشديد عقوبات الجرائم، و رفض سياسات المساواة للنساء وحماية البيئة، تشترك أحزاب اليمين الجديد نظريا في الاعتقاد بمفهوم **الاستعلائية**، وهو فكر إقصائي بأن التفوق والدونية حقيقة جبلية بين الأفراد والمجتمعات، مع رفض مطلق لمعيار المساواة الاجتماعية. و تؤيد عمليا هذا الاعتقاد ببرنامج سياسي ومجتمعي قوامه التمييز العنصري الواضح من خلال



التبني الصريح لمفاهيم عنصرية أهمها: Xenophobia "كره الاجانب"، Nativism "الانتماء للوطن"، Racism "التمييز العنصري"[11]. في هذا السياق ما هي صورة المهاجرين المسلمين لدى أقصى اليمين؟

2/الاسلام والمهاجرين المسلمين في خطاب وفعل أقصى اليمين:

الملاحظ أن أكثر الخطابات والسلوكيات تطرفا لدى اليمين تجاه المهاجرين الأجانب، هي تلك الموجهة ضد المهاجرين المسلمين ودينهم الإسلام من خلال برنامج سياسي يركز على إشاعة الخوف والسلبية تجاه المسلمين في المجتمعات الغربية، و تقديم صورة "الآخر" الإسلام بوصفه عقيدة جامدة، متطرفة، قمعية، تحمل العداء للغرب. وقد أكد **زيكيت** J. P Zuquete في دراسته "اليمين الأوربي المتطرف والإسلام" ما يعتبر أصلا حقيقة شائعة من أن هذه الأحزاب معادية للإسلام Anti-Islam ، وأنه طوال العشريتين الماضيتين كانت أحد أهم انشغالاتها ما تعتبره التهديدات المنبعثة من الإسلام والمسلمين المقيمين في أوربا[12].

هذا الموقف نتلمسه بشكل مباشر وصريح في برامج بعض الأحزاب اليمينية الأوربية المتطرفة أو مواقف بعض قاداتها كما يلي [13]:

* الجبهة الوطنية الفرنسية: أول حزب استخدم الإسلاموفوبيا في دعايته السياسية وحملته الانتخابية للتخويف من الإسلام والمسلمين.

* الحزب النمساوي اليميني الشعبي: وصف الإسلام بأنه "العدو الأول للأمة النمساوية، لأوروبا والعالم أجمع.

* الحزب الدنماركي التقدمي: دعا إلى إيجاد "منطقة حرة للمسلمين"، وحذر من أسلمة أوروبا.

* الحزب اليميني الشعبي الدنماركي: حذر الجماهير في أثناء حملته الانتخابية من الإسلام كمصدر تهديد لأوروبا، علاوة على أنه ضد الحضارة الغربية.

* "أومبرتو بوسي" زعيم حزب –ليقا نورد– الإيطالي: وصف الإسلام بأنه أكبر مصدر لتهديد الثقافة الأوروبية، ودعا لضرورة للدفاع عن النصرانية الأوروبية.

* "خيرت فلدرس" زعيم حزب الشعب الهولندي: قارن الإسلام بالفاشية و القرآن بكتاب هتلر "حياتي"، واعتبر المسلمين متخلفين لذا وجب منع الهجرة من البلدان الإسلامية نحو هولندا[14].



* "تيلو سارازين" "الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني": اعتبر المهاجرين المسلمين يجعلون ألمانيا أغبى وأفقر؛ لأنهم جينيا أقل ذكاء، ولأنهم يزاحمون الألمان في الاستفادة من الموارد الاقتصادية[15].

وتمثل هذه التصورات أساسا لتصرفات تمييزية ضد المسلمين، قد تأخذ شكل المطالبة بسياسات تحد من حقوق وحريات المهاجرين المسلمين، أو تخضعهم لمراقبة متزايدة من قبل السلطات الأمنية، وقد تأخذ صورة حملات دعائية لنشر المشاعر السلبية تجاه المسلمين داخل المجتمعات الغربية كرفض بناء المساجد والمؤسسات المسلمة، وقد تنفجر أحيانا في صورة أحداث عنف وتمييز وجرائم كراهية ضد المسلمين.

وقد وجد ما يصدق ذلك واقعيا، بدءا بالصور المسيئة للرسول الكريم بالدنمارك والنرويج، ثم فرنسا التي منعت ارتداء الحجاب في المدارس والمعاهد تبعتها بلجيكا. ثم إقرار قانون يقضي بحضر النقاب في الأماكن العامة في عديد من الدول الأوروبية، وأشدها في هولندا مع زعيم حزب الحرية "خيرت فلدرس" الذي طالب بسن ضريبة سنوية على المحجبات تقدر ب 1000 يورو تخصص لدعم حرية المرأة ,ثم وصول الأمر إلى قانون حظر المآذن بسويسرا الذي رحبت به أحزاب اليمين المتطرف وطالبت بتعميمه على كامل الدول الأوروبية.

3/المداخل التفسيرية لصعود اليمين المتطرف:

طغت على المداخل التقليدية لتفسير صعود اليمين المتطرف في أوربا التفسيرات الاقتصادية والسياسية مع قليل اهتمام بالأبعاد الثقافية، بحيث لم يتم الربط بين الاسلاموفوبا وصعود اليمين المتطرف الأوربي إلا في حدود كون هذا الخطاب المعادي للإسلام وسيلة للتعبئة وكسب أصوات الناخبين مستغلا الإحباط الاقتصادي للمواطن الأوربي من المهاجرين والسياسي من السياسات الحكومية تجاههم. لأجل ذلك تحاول هذه الورقة تقديم وفحص تفسير آخر قائم على البعد الثقافي، ذلك الذي يقترح أن صعود اليمين الأوربي المتطرف يجد تفسيره في تبنيه خطاب معادي للإسلام والمسلمين، وهو بذلك استطاع أن يلامس طموحات ومشاعر الناخبين الأوربيين الذين هم أيضا معادون للإسلام، وبالتالي فصعود هذا اليمين هو مكافئة له على مواقفه السابقة.



3-1 مدخل الاقتصاد السياسي:

ركزت عديد الأبحاث مند ستينيات القرن الماضي على دراسة تأثير ديناميكية التغيير الاقتصادي والاجتماعي على القيم والتوجهات السياسية للناخبين. لعل أشهر تلك الدراسات هي التي قدمها **رونالد اينغلهارت** Ronald Inglehart عن **الثورة الهادئة** Silent Revolution، أين يقرر أن تغييرا تدريجيا حدث نحو بروز قيم ما بعد مادية أو فوق-مادية لدى طبقة الشباب والمثقفين وجيل المؤمنين ماديا عموما، بما ساهم في ظهور أحزاب الخضر.

غير انه من وجهة نظر مقابلة، فان نفس هدا التحول الاقتصادي والاجتماعي كان سببا لما أسماه **بييرو إغنازي** الثورة الهادئة العكسية Counter Silent Revolution، التي ساهمت حسبه في صعود اليمين المتطرف في الاتجاه المقابل[16]؛ حيث يفسر اغنازي الرواج المتزايد لخطاب اليمين لدى الناخبين في كون هدا الخطاب استطاع ملامسة الانشغالات المتغيرة لدى بعض أفراد المجتمع، والتي لم تستطع الاتجاهات السائدة اليمينية واليسارية مواكبتها. فصعود اليمين المتطرف هو نوع من رد الفعل الجماعي لطبقة معينة من الأفراد في المجتمعات الأوربية ما بعد الصناعية، والتي لم تستطع التكيف مع تحولات الاقتصاد المعولم الخدماتي أساسا والذي لا يعترف بالانتماء والجنسيات. حيث وجدت هده الطبقة نفسها في وضعية مهمشة مع تزايد نسب البطالة، تزايد الفشل ،الحرمان وتراجع الانسجام والتناسق المجتمعي. لذا فإن تزايد تدفق المهاجرين واستقبال طالبي اللجوء من دول العالم الثالث أساسا نحو أوربا أحيي لدى هذه الفئة مفاهيم العنصرية وكره الأجانب، وهذا ما خلق بيئة ملائمة للقوى السياسية المتطرفة وظهور قادة متطرفين بشعبيات متزايدة، الذين تبنوا برامج انتخابية للحد من الهجرة والبطالة والتشتت المجتمعي ومطالب أخرى للذين شعروا بالتهديد[17].

لقد لقي هذا الخطاب الشعبوي لأحزاب أقصى اليمين قبولا لدى فئة العمال(الياقات الزرق) وأصحاب المستوى التعليمي والثقافي المحدود وأفراد المجتمع الأكثر عرضة للمخاطر الاجتماعية، الذين وجدوا أنفسهم خارج الاقتصاد الصناعي، أو ضحايا الحداثة losers of Modernity بتعبير اغنازي[18].

3-2 مدخل المؤسسات السياسية:

تقترح بعض المداخل التفسيرية الربط بين الصعود المتزايد لأحزاب اليمين المتطرف الأوربي وعوامل متعلقة بالجانب الممارساتي والمؤسساتي للحياة السياسة، وبهذا الصدد نجد عديد المقاربات.

أولى تلك المقاربات هي نظرية التصويت العقابي أو الاحتجاجي، التي تفسر زيادة التصويت في مختلف الانتخابات الأوربية لصالح قوى اليمين المتطرف تعبيرا عن اتساع دائرة السخط وعدم الرضا عن سياسات اليمين واليسار خاصة، بما يؤدي إلى تشتت الموالاة التقليدية للأحزاب السياسية السائدة ويغير بالتالي قواعد الانتخاب الاعتيادية لدى جماهير الناخبين[19]. فيجد بذلك حصول اليمين المتطرف على مزيد من الأصوات تفسيره في رفض الناخبين لبرامج اليمين واليسار أكثر من كونه قناعة ببرامج أقصى اليمين.

تأكيد هذا الطرح عمليا يظهر حسب مؤيديه في عدد من المؤشرات الواقعية التي تؤكد حقيقة التشتت في آراء الناخبين، من بين تلك المؤشرات[20]: التغير السريع في الأنظمة السياسية الحاكمة، عدم الولاء في عضوية الأحزاب، التردد والتأخر في القرار التصويتي لدى الناخبين، تزايد محورية رؤساء الأحزاب على حساب البرامج في الحملات الانتخابية.

تفسير مؤسساتي آخر لصعود اليمين هو ذلك الذي يقدمه نوريس Norris[21]، بحيث يعزو هذا الصعود لاستفادة أحزابه في بعض الدول الأوربية من النظام الانتخابي الذي بإمكانه ضمان شروط متساوية للمنافسة الحزبية، حيث تشير المقارنة أن أحزاب أقصى اليمين حققت نتائج أفضل في الدول التي تأخذ في انتخاباتها بنظام التمثيل النسبي؛ أي نظام الحصص.

عموما، يعتقد متبنو المدخل السياسي أن اليمين المتطرف الأوربي استفاد من بعض الظروف السياسية والمؤسساتية التي ساهمت في ارتقاء قاعدته الانتخابية، خاصة ديناميكية النظام الحزبي والانتخابي. إضافة إلى ذلك، استفادته من الاهتمام البالغ الذي أضحى يوليه الإعلام الأوربي لنجاحات اليمين بما ساهم في دعاية عبر وطنية لأحزابه عبر أوربا.

3-3 المدخل الثقافي والحضاري:

لم تحض التفسيرات التي تقيم الصلة بين تزايد شعبية اليمين المتطرف، وتبنيه لخطاب معادي صريح للمهاجرين -وخاصة للمسلمين منهم- والدعوة لإحياء إلى التراث الثقافي التقليدي



للغرب، إلا بعد أحداث 11 سبتمبر، حيث بدأت مثل هذه التفسيرات تجد لها تأييدا واقعيا معتبرا.
و مثل ما يذهب إليه **جانس ريدغران** Rydgren, Jens ،فان اليمين المتطرف من خلال تبنيه لمواضيع جديدة سوسيوثقافية أساسا بدل المواضيع السوسيواقتصادية التقليدية فإنه تمكن من جذب جماهير الناخبين[19]، فالمعروف عن هذه الأحزاب أنها تروج لخطاب شعبوي مباشر دون أن تكون لها برامج عمل واضحة، فتلجأ إلى مواضيع كالخطر الإسلامي، وتهديد قيم الحياة الغربية وعبئ المهاجرين، وهذا ما جعل ميد كا Mudde Cas يصفها بأحزاب المسألة الواحدة (مسألة الهجرة).

فأهم ما يميز اليمين المتطرف الأوربي هو أنه استطاع النجاح حيث فشل اليمين واليسار التقليديين؛ أي التكيف مع التحولات الثقافية والاجتماعية التي فرضها نسق العولمة على المجتمعات الأوربية، والتي أدت إلى انكفاء الهويات القومية والحد من الخصوصيات الثقافية، ليعيش الخبرات، المواقف والاهتمامات القيمية للفرد الأوربي. وما ساعد أكثر على اقتناع المواطن الأوربي بخطاب هذا اليمين، أن الأخير أصبح مرنا بما فيه الكفاية ليتموقع ضمن السياق السياسي والثقافي، واستطاع أن يحرر نفسه من الخطاب التقليدي الذي يركز على الفوقية والدونية، الفروقات البيولوجية، العداء للسامية. ليتبنى خطابا جديدا يركز على الاثنو–قومية، الوحدة الثقافية والتقاليد الوطنية.

لقد استطاع اليمين المتطرف تحقيق نجاحات انتخابية لافتة؛ لأنه نصب نفسه مرافعا عن التميز الثقافي، الإثني والديني الأوربي، ونظرته للمجتمع من خلال ثنائية نحن وهم « Us versis Them »، ليصور مجموعات المهاجرين كتهديد للوحدة القومية والتماسك الوطني، وتحريف لنمط الحياة المحلية. مثل هذا الخطاب التقى مع مطلب مجتمعي واسع فجاءت النتيجة في شكل تصويت مكافئ من المواطن الأوربي لليمين المتطرف الذي استطاع تخفيض الخوف والقلق لدى الأفراد من خطر المهاجرين.

السؤال الجوهري الآن، هو كيف تظهر هذه العلاقة في سياق الوعي الجمعي الأوربي من الإسلام والمسلمين؟

4/ العلاقة بين العداء للإسلام في أوربا وصعود اليمين المتطرف الأوربي:

إن مثل الطرح السابق يحيل مباشرة نحو إمكانية اقتراح تفسير آخر لصعود اليمين المتطرف، ذلك الذي يفسر هذا الصعود كمجرد نتيجة حتمية لاحقة لعداء مجتمعي وليس سياسي،



مستشري لدى غالبية الغربيين سياسيين أم مواطنين، للإسلام ومعتنقيه يظهر في شكل نسق عقدي يصور الإسلام كأيديولوجية رجعية أدنى مرتبة من القيم الغربية، بربري، غير عقلاني، عدائي تجاه المرأة، داعم للإرهاب محرض على صراع الحضارات.

لقد أدى التطور الاجتماعي والسياسي بعد عصر التنوير وانفصال الدين عن الدولة في أوربا، إلى اعتقاد راسخ في وعي الأوربي بأن الحداثة تؤدي حتما إلى العلمانية، وانسحاب الدين من الحياة العامة. لذا على الرغم من أن أوروبا قد قبلت بالمهاجرين للمسلمين، وسمحت لهم بشكل كبير أن يصبحوا مواطنين ويستقروا فيها، إلا أن الواقع يشير إلى أن الساسة الأوروبيين، ووسائل الإعلام، والجماهير لم ينجحوا بنفس القدر في تقبل المسلمين كما هم بثقافتهم ودينهم.[22]

وبالتالي، فالحديث عن العداء للإسلام في أوربا، لا يندرج –كما يروج الغرب لذلك– ضمن حرية التعبير والنقد في عالمي الإسلام والحركة الإسلامية السياسية، بل هو اقرب لتكوين نمطي مسبق ينطلق من "مسلمات" تم تأصيلها في الثقافة الأوروبية السائدة[23]، أولى هذه المسلمات الصلة العضوية بين الإسلام والعنف, وثانيتها التعارض المبدئي بين الإسلام والديمقراطية, وثالثتها العداء المطلق بين الإسلام والعلمانية.

هذا الطرح تؤيده باستمرار وبشكل متزايد نتائج استطلاعات الرأي الأوربية حول موقف المواطن الأوربي من الإسلام والمسلمين، فعلى سبيل المثال في عام 2006 أظهر استطلاع للرأي قامت به مؤسسة "دويتشه فيله" الألمانية [24]؛ أن 83% من الألمان يوافقون على مقولة "أن الإسلام يقوم على التعصب"، وقال (71%) أنهم يعتقدون أن " الإسلام غير متسامح"، وكشف أحد أسئلة الاستطلاع وهو (بماذا ترتبط كلمة الإسلام لديك؟) عن النسب الآتية: قال 91% أنها ترتبط بالتمييز ضد المرأة، وقال 61% أنها تعني لهم عدم الديموقراطية.

خاتمة:

إن الارتباط الملاحظ بشكل متزايد بين العداء الصريح للإسلام والمهاجرين المسلمين في خطاب اليمين المتطرف الأوربي، وزيادة شعبيته ونسب التصويت لصالحه، يعتبر مؤشرا جديرا بالثقة للاهتمام بالتفسيرات الحضارية والثقافية لصعود اليمين. فمثل هذا الخطاب يلقى رواجا متزايدا لدى الناخب الأوربي ليس لأنه برنامج سياسي مقنع بقدر ما هو استجابة لنسق فكري وتصور نمطي في عقل الأوربي عن المسلمين في أوربا ترسخ أكثر بعد أحداث 11 سبتمبر– وان



ساهمت عوامل خارجية يتحمل المسلمين جزءا منها في تكوينه-. فالإسلام بهذا التصور هو تهديد لقيم الغرب في الحرية، العلمانية والعقلانية...وبالتالي، فهذا العداء للاسلام حين وجد طريقه للظهور في برامج وخطابات واليمين المتطرف جاءت النتيجة مزدوجة، صعود مميز للأحزاب اليمينية المتطرفة في مختلف الانتخابات الأوربية، وانتشار لظاهرة الاسلاموفوبيا على نطاق واسع.

الهوامش:

01 -Nathan Price, « **The Resurgence Of The Far-Right In European Politics: Analysis Of The French, Italian, Austrian, And Belgian Cases** », A Thesis Submitted to the Graduate Faculty of the Louisiana State University in partial fulfillment of the requirements for the degree of Master of Arts B.A., Miami University, 2004 August 2007,p.4.
02 -Lubomír Kopecek, "**The Far Right in Europe**", Central European Political Studies Review ,Volume IX, Part 4, p. 281.
03 - Nathan Price,Op.Cit.
04 - Lubomír Kopecek,Op.Cit.,p 284-285.
05 - Ibid, p. 286.
06 - Nathan Price,Op.Cit.,p.5.
07 - Lubomír Kopecek,Op.Cit.,p.287-288.
08 -Wouter van der Brug, Wouter van der Brug, "**The support base of radical right parties in the enlarged European Union",** Paper prepared for the EES Spring Meeting 2006 on The European Parliament election of 2004, Lisbon, 11-14 May, 2006. p2.
09 - Kristian Voss, Kristian Voss, " **Support for the Far Right: The Desire for Cultural Preservation in an Increasingly Globalized and Multicultural Europe**", Inter-University Consortium For Political And Social Research,2007. p.6.
10- Lubomír Kopecek, Op.Cit.,p. 287.
11- "**Far-right politics**", in: http://en.wikipedia.org/wiki/Far-right_politics.
12- Egdūnas račius, **"The far right in lithuania – on the margins of marginality**", Conference "Far right networks in Northern and Eastern Europe" Uppsala University, March 25-27, 2010,p.1.
13 - "الاسلاموفوبيا في اوربا"، في: http://www.al-hasany.com/vb/showthread.php?t=242533.
14 - "Threat of the far right in Europe", in: http://socialistworker.org/2010/10/07/threat-of-the-right-in-europe.
15 - **"Are Muslim immigrants making Europe "poorer and stupider"**, in: http://open.salon.com/blog/lost_in_berlin/2010/08/30/are_muslim_immigrants_making_europe_poorer_and_stupider.
16 - Lubomír Kopecek, Op.Cit.,p. 283.
17 - Idem.
18 - Kristian Voss, Op.Cit.,p. 8.



19 - Ibid, p. 9.
20 - Idem.
21 - Idem.
22 - Kristian Voss, Op.Cit.,p. 12.

23- ملخص لمقال طالب كوشكان "**الإسلاموفوبيا: المفهوم..الأسباب.. المقاومة**"، في:

http://www.islammessage.com/articles.aspx?cid=1&acid=91&pg=7&aid=12505

24– هيثم مناع،" **الإسلاموفوبيا وحقوق الإنسان** "، في :

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/B3BC9D64-6F2D-4F66-9B48-AE33996930C5.htm

25– ملخص لمقال طالب كوشكان "**الإسلاموفوبيا: المفهوم.. الأسباب.. المقاومة**"، مرجع سابق.



الجاليات المسلمة في أوربا ومدى اندماجها في العمل السياسي
في ظل صعود الأحزاب اليمينية المتطرفة

أ د. ناجي عبد النور
- جامعة عنابة- الجزائر

مقدمــة

يطرح وضع الجاليات العربية و المسلمة المقيمة بالبلاد الأوربية وتحولها من هجرة مؤقتة إلى هجرة الاستقرار، إشكالية تتعلق بالانفتاح على المجتمع المدني والاندماج فيه والمشاركة السياسية. وقد بذلت الجالية محاولات للقيام بعمل سياسي من خلال تأسيس تنظيمات وهياكل سياسية قائمة، أثبتت جدواها وفعاليتها حيث تمكن عدد من المسلمين من إدارة بعض البلديات وتسييرها في البلدان التي يقيمون بها، كما تمكن المسلمون من إيصال عدد من النواب المسلمين أو المتعاطفين مع الجالية المسلمة إلى المجالس التشريعية. ولاشك أنه سيكون لهذا الأمر عظيم الأثر في إسماع صوت المسلمين وأخذ مطالبهم الدينية والثقافية بعين الاعتبار، وأن يعمل على إدماجهم في النسيج الاجتماعي والسياسي لبلدان المهجر، لكن في المقابل شهدت أوربا في مطلع التسعينيات تنامي ظاهرة أحزاب اليمين المتطرف على المشهد الأوروبي ، وما يصاحبها من حدة في الانقسام الثقافي و الاجتماعي للمجتمعات الأوروبية إزاء الأقليات المختلفة ثقافيا ودينيا من المهاجرين العرب و المسلمين ،وقيام الأحزاب المتطرفة في التحريض ضد المهاجرين وربطهم بالجريمة و البطالة و الإرهاب و كل الإمراض و الآفات الاجتماعية التي تعيشها أوربا، هذه الدعوات والممارسات من شانها إحياء القومية المتعصبة و الاسلاموفبيا و يبعث على القلق.

الإشكالية

من هذا المنطلق تحاول هذه الورقة البحثية طرح التساؤل حول مصير الجالية المسلمة و العربية في حالة وصول أحزاب اليمين المتطرف السلطة؟ وكيف تتعامل الأحزاب مع المهاجرين و الأقليات وتأثير ذلك على العملية الديمقراطية وحقوق الإنسان في أوربا ؟

ودور الجالية العربية والإسلامية في العملية السياسية والانتخابية وفرض وزنها سياسي وفاعليتها في محيطها الاجتماعي والمدني؟ و كيف يتفاعل المهاجرون مع السياسة المحلية في كل دولة، وهل يتم الاعتراف بمشكلات المسلمين والإسلام ومؤسساته ومأسسته في الإطار الأوروبي, وما يرتبط بذلك من بروز ما صار يعرف بالإسلام الأوروبي المتولد من رحم الجاليات المهاجرة وتفاعلها مع



الفضاء الأوروبي, ودور القيادات الدينية في تطوير علاقة صحية بين المهاجرين والمجتمعات التي يعيشون فيها, إضافة إلى قضايا وأزمات الهجرة غير القانونية والتهريب وغير ذلك.

هيكل الورقة البحثية :

أولا: أسباب نمو ظاهرة العداء للإسلام والمسلمين (الإسلاموفوبيا)

ثانيا : الجالية الإسلامية والعربية في أوربا و تحدياتها.

ثالثا : الدور السياسي للأقلية المسلمة بهولندا

رابعا : أسباب صعود أحزاب اليمين المتطرف في أوربا وتداعياته

أولا: أسباب نمو ظاهرة العداء للإسلام والمسلمين (الإسلاموفوبيا).

إن فهم الأسباب الحقيقية الكامنة وراء نمو ظاهرة العداء للإسلام والمسلمين (الإسلاموفوبيا) في عدد من المجتمعات الغربية بشكل عام والأوربية بشكل خاص خلال السنوات الأخيرة ضرورة لا بد منها لتطوير خطاب إسلامي قادر على التعامل مع الظاهرة الخطيرة وعلاجها ففهم المشكلة مقدمة ضرورية لحلها،وعليه نتعرض لأهم أسباب صعود ظاهرة الإسلاموفوبيا في الغرب خلال السنوات الأخيرة والذي يتعلق بصعود الأحزاب الأوربية اليمينية الراديكالية الجديدة . الا ان هناك اسباب يمكن رصدها :

1. أحداث الحادي عشر من سبتمبر والممارسات المتطرفة لبعض الجماعات التي ترفع شعار الإسلام، والبيئة الدولية الراهنة وما تشهده من صراعات مختلفة تضع العالم الإسلامي في بؤرة الصراع، وتحيز بعض الأوربيين الثقافي والتاريخي الدفين ضد الإسلام والمسلمين
2. التحولات السياسية والاجتماعية الرئيسية التي تمر بها المجتمعات الغربية والأوربية ذاتها، بحكم أن هذه التحولات عميقة وداخلية ومعاصرة وقادرة على التأثير على حياة أعداد غفيرة من أبناء المجتمعات الغربية على مستويات مختلفة، تتمثل التحولات في ظاهرة صعود أحزاب اليمين الراديكالي الجديد بالدول الأوربية والغربية، وهنا يرصد كتاب "اليمين الراديكالي: الناخبون والأحزاب في السوق الانتخابي" الصادر عن مطابع جامعة كامبريدج الأمريكية في عام 2005 لبيبا نوريس أستاذة العلوم السياسية بجامعة هارفرد الأمريكية 43 حزبا يمينيا راديكاليا في 39 دولة ديمقراطية عبر العالم، بما في ذلك بعض أكبر الدول الأوربية مثل فرنسا وإيطاليا وألمانيا وبلجيكا وهولندا وسويسرا.

3. المناهج الدراسية الأوروبية تصور المسلمين باعتبارهم: (برابرة) (ووحوشًا) و(سفاكي دماء) .
4. عدم الاعتراف الأوروبي بالدين الإسلامي منبع الكثير من مشكلات الجاليات الإسلامية هناك.
5. مشكلات نابعة من واقع الجاليات
6. دور وسائل الإعلام الأوروبية في التحريض ضد المسلمسن
7. الاستشراق كأيديولوجية خاصة يراد بها ترويج تصورات مشوهة عن الإسلام.
8. غياب التنسيق وضعف التمثيل السياسي وقصور التعليم والإعلام الإسلامي.
9. التفجيرات التي تعرضت لها القطارات في العاصمة البريطانية لندن مؤخراً، وتلك التي سبق أن تعرضت لها العاصمة الإسبانية قبل سنتين، لمما يضع هذه الجاليات تحت الضوء ويضاعف من إلحاح فهم أوضاعها ومشكلاتها
10. الهجرة غير القانونية لأبناء دول الشمال الأفريقي إلى أوروبا هاجساً أمنياً، إذ كان هناك دائما ربطا بين المهاجر العربي المسلم و الإرهابي، فقد تزايد النظر إلى قضية الهجرة باعتبارها قضية أمنية في العديد من الدول الأوروبية.
11. تركز المهاجرين في المناطق الهامشية في عواصم تلك الدول و ما قد يؤدى إليه ذلك من مظاهر للعنف و التطرف، علاوة على تداعيات عدم الاستقرار المتزايد في العالمين العربي والإسلامي، و التي تجد صدى بين الجاليات العربية و الإسلامية المقيمة في دول الاتحاد الأوروبي.

ثانيا : واقع الجالية الإسلامية والعربية في أوربا و تحدياتها.

تعتبر الجاليات المسلمة و العربية في أوروبا مكون غير متجانس لا من حيث الانتماء الجغرافي ولا من حيث التكوين المهني والعلمي ولا من حيث التركيبة العمرية وعلاقتها بسن الهجرة والاغتراب. فالهجرة العربية إلى البلدان الأوروبية تعود إلى نهاية القرن التاسع عشر حيث كانت بأعداد قليلة للغاية ازدادت مع ازدياد النفوذ الاستعماري لبعض القوى الأوروبية في بعض من المناطق العربية كفرنسا في المغرب العربي وإيطاليا في ليبيا وإنكلترا في العراق. وقد جرى في مرحلة الحرب العالمية الثانية خصوصا تجنيد بعض العرب أو القادمين من دول عربية في الجيوش الأوروبية التي شكلت قوى الحلفاء في مواجهة النازية الألمانية والفاشية الإيطالية. ولقد سُجّلت لهم



مواقف بطولية، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، تعرضت الدول العربية و المسلمة إلى الاستدمار الأوربي، و هنا تجدر الإشارة إلى الدور الكبير الذي لعبته الجالية الجزائرية في فرنسا إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر في دعم المقاومة الجزائرية سياسياً ومالياً وتنظيمياً. فلقد استفادت هذه الجالية، وعلى الرغم من انتمائها إلى بلد محتل من قبل الدولة التي تقيم وتعمل فيها، من هامش مهم نسبيا من حرية الحراك السياسي وتضافر قوى اليسار الفرنسي مع نضالها "السلمي" ومع سعيها إلى رفع الاحتلال عن بلدها الأم .وشهدت باريس مثلاً تظاهرات ضخمة، لم تكن دائما سلمية المصير، ضمت أبناء الجالية إلى جانب مناصريهم من الفرنسيين. وقد لعب هذا النشاط دوراً هاماً ومؤثراً في إيصال صنّاع القرار الفرنسيين إلى الانصياع أمام إرادة الشعب الجزائري بالحرية وبالاستقلال.

بعد الاستقلال شهدت مرحلة الستينات والسبعينات من القرن المنصرم نشاطاً لافتاً للجاليات العربية أو القادمة من بلدان عربية، جاء الجيل الأول منهم إلى فرنسا في عقد الستينيات بعد إغراءات كثيرة كان الفرنسيون يقدمونها للمهاجرين بحياة أفضل ودخول أعلى، وذلك لسد النقص في الأيدي العاملة, كما هو حال الأتراك عندما قدموا إلى ألمانيا، بعد الاستقرار بأوروبا استفادوا من حرية التنظيم والاجتماع الموجود في بلدان الغرب الأوروبي، ونشط الحراك الاجتماعي و السياسي للمهاجرين ،على الرغم من الضغوط الهائلة التي تعرض لها من قبل العناصر المؤثرة الناشطة في السياسة وفي الإعلام.

مع التزايد الملحوظ في تعداد المسلمين في فرنسا، سواء الذين يهاجرون إليها، أو من بين أبنائها الذين دخلوا الإسلام، إلا أن فرنسا وبعض البلدان الاوروبية ومنذ سنوات قليلة ماضية كانت تتردد في الاعتراف بالإسلام كديانة محلية، ذات حق في الإقامة، وترفض سياسة احتفاظ المهاجرين بثقافتهم و لغتهم الخاصة، وتمنع بناء المدارس أو المعاهد الدينية، وعادة مع ترتبط موافقتها بشروط تعجيزيه يصعب على المسلمين تنفيذ بعض بنودها.

وبذلك أصبحت الجالية العربية و المسلمة في أوروبا تجتاز مرحلة مثيرة على جميع الأصعدة الثقافية والفكرية والسياسية والاجتماعية. وبدأت تستقطب انتباه الأحزاب من اليمين واليسار في المواسم الانتخابية، وتوجه صوبها أصابع الاتهام وهذا نتيجة، و اثر تنامي الجاليات

الإسلامية حذر الأوساط الأمنية الأوروبية لأنها تمثل في نظر الكثيرين طابوراً خامساً "إسلامياً" داخل أوروبا ذات الخلفية الثقافية المسيحية واليهودية.

وزاد الاهتمام بالظاهرة الإسلامية في أوروبا حدوث تغير نوعي كبير في الوجود الإسلامي في تلك القارة، كان أبرز مظاهره انتقال الهجرة المؤقتة للمسلمين إلى هجرة دائمة، وتغير نوعية المهاجرين من العمال البسطاء إلى هجرة العقول والكفاءات، إضافة إلى مظهر هام يتمثل في دخول أعداد كبيرة من الأوروبيين الإسلام، وانتشار الإسلام في طبقات مختلفة من المجتمع وعدم اقتصاره على إسلام بعض أفراد النخبة الأوروبية، وتشير الإحصاءات إلى أن عدد المسلمين من ذوي أصول أوروبية في الاتحاد الأوروبي أكثر من نصف مليون شخص. ورغم اختلاف الضغوطات الممارسة على الأقليات المسلمة من بلد أوروبي إلى آخر، واختلاف أنظمة الحكم والقوانين الناظمة لوجودهم، فإن الأقليات المسلمة لم تفتأ تلهج بولائها لمجتمعاتها الجديدة والتي نالت في معظمها حق المواطنة فيها رافضة دعوات الإقصاء والتخوين التي تتهدد وجودهم في البلدان الأوروبية. اللافت في هذا السياق أن الأقلية المسلمة في بريطانيا، وحسب دراسات غربية مستقلة، صنفت الأكثر وطنية في أوروبا، ولعل مرد ذلك طبيعة القوانين وتعامل الحكومة الرسمي معها، رغم أنها لا تجاهر بتبني النظام العلماني كما في دول أوروبية لا تتمتع الأقليات المسلمة فيها بما يتمتعون به في بريطانيا. فقد كشفت دراسة حديثة عن أن المسلمين في بريطانيا هم الأكثر وطنية في أوروبا، وهو ما فتح المجال أمام النقاشات المتعلقة بمسألة التنوع الثقافي في بلدان الاتحاد الأوروبي والسياسات الخاصة بهذه المسألة، بحسب صحيفة "الصنداي تايمز" البريطانية.

يعيش في فرنسا نحو خمسة ملايين مسلم. ولا يكاد يمر يوم دون أن يصدر عن النخبة السياسية الفرنسية العليا (وجميع المنتمين إليها مسيحيون بالطبع أو لا دينيون) تحريض بالأقوال أو الأفعال ضد المواطنين المسلمين، والتضييق عليهم في ممارسة قيمهم. هذا التحريض ينطوي على استفزاز بأعلى الدرجات.

ومع تراكم الاستفزازات عبر الزمن، فإنه قد تنشأ عنها ردود فعل عنيفة، ربما تؤدي مع التوسع في الاستفزازات وتصعيدها إلى احتكاكات جماعية بين المسلمين والمسيحيين، ربما بدورها تتحول إلى حرب أهلية شاملة خلال سنوات معدودات من الآن.. سواء قصدت الطبقة السياسية الحاكمة أو لم تقصد.



إن هناك جملة من المشاكل والمعوقات التي تواجه المسلمين والمؤسسات الإسلامية:

1. التمييز العنصري والديني :تنتشر بين شرائح المجتمع الاوربى ويؤدى إلى عدم استقرار الجالية وخوفها من المستقبل والتأثير على واقع الحياة الاقتصادية.
2. ضعف التواصل بين الأجيال: عدم قدرة الإباء على توريث الهوية والقيم الإسلامية لأجيالهم الجديدة
3. تأثير المجتمع الاوروبى المادية على المسلمين في أوروبا:

وخاصة على اجيالنا الجديدة (التفكك العائلى – الانحلال الجنسى – المخدارات.........).

4. الانعكاسات السلبية للخلافات العرقية والمذهبية للمسلمين في أوروبا.
5. وجود مجموعات وإفراد يحملون توجهات وأفكار متشددة
6. ضعف وغياب العمل المؤسسي
7. الوضع القانوني والاعتراف السياسي بهم وبموقعهم في المجتمع وخاصة فيما يتعلق بمسألة المواطنة والإقامة والعمل.
8. النظرة لمفهوم المواطنة ومفهوم الهوية ينعكس على نظرة الفرنسيين لأفراد الجالية المسلمة.
9. تمثيل المسلمين ومأسسة اهتماماتهم ومصالحهم والدفاع عنها، وكذا التحدث باسمهم مع الدولة الفرنسية نفسها.

ثالثا : صعود أحزاب اليمين المتطرف وانعكاساته غلى الأقلية المسلمة.

أرجعت دراسات أسباب تنامي ظاهرة الأحزاب اليمينية المتطرفة في أوربا إلى جملة من العوامل، بما فيها الاقتصادي و العامل الثقافي (الفاشي) و العامل السيكولوجي، وسيتم التركيز على العامل السياسي و الديني المتعلق بالمهاجرين وتزايد معدلات الهجرة و الخوف من ضياع الهوية الأوروبية، حيث يقوم الفكرالسياسي لهذة الاحزاب على :

1. رفض المساواة الفردية و الجماعية
2. رفض التعددية الثقافية و السياسية لاسيما مع المهاجرين و الاقليات
3. رفض المشاركة و الاندماج الاجتماعي للمهاجرين
4. الترويج لرهاب الاجانب و العنصرية و الاسلاموفوبيا



لقد استغلت أحزاب اليمين المتطرف هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001 وما تبعها من أحداث عنف ضربت مجتمعات غربية مثل إسبانيا وبريطانيا وشجعها على إطلاق حملات عدائية للإسلام بدأت بالصور المسيئة للرسول الكريم بالدنمارك والنرويج مروراً بفرنسا التي منعت ارتداء الحجاب في المدارس والمعاهد تبعتها بلجيكا السنة الماضية ثم إقرار قانون يقضي بحضر النقاب في الأماكن العامة في عديد من الدول الأوروبية , وأشدها في هولندا مع زعيم حزب الحرية "خيرت فلدرس" صاحب فلم فتنة الذي شبه الإسلام بالنازية ووصف النبي محمد بأنه قائد حرب همجي ووصلت به الإثارة أخيرا بمطالبة البرلمان الهولندي بسن ضريبة سنوية على المحجبات تقدر ب 1000 يورو تخصص لدعم حرية المرأة, ثم وصول الأمر إلى قانون حظر المآذن بسويسرا الذي باركته ورحبت به أحزاب اليمين المتطرف وطالبت بتعميمه على كامل الدول الأوروبية.

إن برامج الأحزاب اليمينية منحصر في الغالب في إشاعة الخوف و السلبية تجاه المسلمين في المجتمعات الغربية ولم تلامس مشاريعهم واهتماماتهم المشاغل اليومية للمجتمع (مثل الأزمة الاقتصادية الأخيرة أو وباء انفلونزا الخنازير الذي يهدد البشرية وغيرها من القضايا المهمة) مما جعل المواطن الأوروبي يشكك في أجندة هذه الأحزاب.

إن الأحزاب اليمينية مستاءة وغير راضية من تنامي الوجود الإسلامي في الغرب خاصة بعدما بدأت الأقلية المسلمة تكسر الحاجز بينها وبين شرائح المجتمع الأوروبي من خلال اندماجها وتعايشها وانفتاحها على كل مكونات المجتمع كمواطنين أوربيين يخدمون أوطانهم يهمهم أمنها واستقرارها دون أن ينسوا القضايا العربية الإسلامية العادلة

خاتمة :

إن الغرب ليس كله يمين متطرف ولكن ما يمتلكه اليمين من إمكانيات إعلامية ومالية وما يتلقاه من دعم خارجي وتغلغله في مواقع مؤثرة يعطي انطباعاً على أنه قوة شعبية، لذلك على الجالية المسلمة انتهاج الطرق القانونية التي تكفل حرية المعتقد وممارسة الشعائر الدينية ونتجنب ردود الفعل المتشنجة و المتهورة التي يوظفها اليمين في حملته لجر الأقليات المسلمة إلى معارك جانبية.

على المسلمين المساهمة في خدمة و تنمية المجتمع و تطوير المؤسسات التربوية والثقافية والإعلامية.



قائمة المراجع :

1. هيلة حمد المكيمي "صعود الأحزاب الشعبوية اليمينية المتطرفة وانعكاساتها على استقرار السياسي في اوربا" مجلة النهضة كلية الاقتصاد و العلوم السياسة القاهرة ، عدد 13/يوليو 2010.
2. هند هاني " الحماية الدولية للمهاجرين العرب : حالة المهاجرين المغاربة ، مجلة المستقبل العربي 2001/10.
3. هاينر بيلافيلد، "" حول حقوق الاقليات المسلمة في دولة القانون " مجلة المستقبل العربي عدد 2001/11.
4. مصطفى عبد العزيز مرسي "متغيرات سياسات الهجرة الى الغرب ووضع المهاجرين العرب " مجلة شوون عربية عدد ربيع 2010.
5. طارق رمضان ، دور الجالية العربية والإسلامية في أوروبا في التأثير على السياسة الخارجية الأوروبية تجاه القضية الفلسطينية " الورقة مقدم إلى مؤتمر من تنظيم مركز الزيتونة اكتوبر 2010.



الفصل الثالث:

قضايا رهاب الإسلام في الغرب:

دراسة نماذج.



ظاهرة الإسلاموفوبيا في أوروبا: دراسة لخصوصية وضع المسلمين في فرنسا

أ د. بومدين طاشمة
- جامعة تلمسان - الجزائر

المقدمة:

تحولت قضية المسلمين في أوربا منذ بداية العقد الماضي من قضية مهاجرين أجانب إلى قضية مواطنين أوربيين، وبدت أوربا تتفاعل مع هذه القضية باعتبارها قضية داخل وليس خارج، مما جعل الاقتراب منها يستدعي فهما أوليا للنماذج الأوربية المختلفة وآليات تفاعلها مع الإسلام والمسلمين وليس المقصود حديثا عن الثقافة الغربية أو موقفا من السياسات الأوربية الاستعمارية دون تقديم اهتمام يذكر بآليات عمل هذه النماذج من أجل فهم منطقها الداخلي. وبالتالي فإن هذا الاقتراب يحقق قدرة أكبر على فهم أوضاع المسلمين في أوروبا الذين بدأوا في أعقاب الحرب العالمية الثانية في التحول من مجرد مهاجرين مسلمين إلى مواطنين بدأوا مسلمين هويتهم أوروبية وديانتهم إسلامية.

وقد مثلت قضية الإسلام في أوروبا مادة خصبة لكثير من المعالجات النظرية والسياسية التي اقتربت من الموضوع، ويمكن في الحقيقة الإشارة إلى نوعين من الكتابات التي حكمت عملية قراءة واقع الإسلام وأوضاع المسلمين في أوروبا:

الأول: قراءة عربية وأوروبية ركزت على جوانب التمايز الخاصة بالمسلمين في أوروبا وتبنت خطابا يبرز خصوصية الواقع الثقافي لهؤلاء المسلمين وبصورة تؤكد على جوانب الاختلاف والتمايز عن المجتمعات الغربية التي يعيشون فيها، ولا تسهم في إبراز ثقافة العيش المشترك وقدرة هؤلاء المسلمين على الاندماج النقدي في المجتمعات التي يعيشون فيها، إنما تنحو في النهاية إلى عزلتهم عن الواقع الأوروبي وتدفع . ولو ضمنا . نحو ابتعادهم عن المساهمة في تشكيل الواقع الثقافي والسياسي الأوروبي.

الثاني: انتقل من الأحكام الثقافية المغلقة إلى التحليل الاجتماعي للتجمعات الدينية والعرقية المختلفة، ولقد اعترف بالخصوصية الثقافية ولكنه لم يعزلها عن الواقع الاجتماعي والسياسي المعاش أي الواقع الأوروبي، في الحقيقة سنجد أن هذه الكتابات جاءت أساسا من أوروبا سواء من داخل الأوساط العلمانية أو الإسلامية وتحدثت بمعان مختلفة عن الإسلام الأوروبي والإسلام على



الطريقة الفرنسية، ونظرت إلى المسلمين باعتبارهم كيان متحولا تتغير اهتماماتهم وهمومهم وأشكال التعبير عنها تبعا للبيئة الاجتماعية والسياسية التي يعيشون فيها.

ستحاول الدراسة إثارة الإشكالية الرئيسية التي سنحاول الإجابة عليها في هذه الدراسة ستتمثل في معرفة إلى أي حد يمكن للبيئة السياسية والاجتماعية المحيطة بالمسلمين أن تبني تعبيرات إسلامية مرتبطة بها، وكيف يمكن أن تنجح عملية دمج الإسلام في المجتمع الأوروبي كديانة جديدة وعلاقة التأثير ةالتأثر الناتجة عن هذا الاندماج.

أولا: المسلمون في ظل العلمانية الفرنسية:

حكمت علاقة المسلمين بالدولة والمجتمع في فرنسا مجموعة من الاعتبارات، بعضها يتعلق بنظرة المجتمع إلى هذا الدين الوافد من خارج السياق الثقافي للمجتمع الفرنسي، والبعض الآخر يتعلق بالنموذج الفرنسي نفسه وبخصوصية الحالة العلمانية الفرنسية والأسس التي وضعتها للتعامل مع الأديان وليس فقط الإسلام.

ولعل هنا تكمن أزمة كثير من المعالجات العربية لأوضاع المسلمين في فرنسا حيث نظرت إليهم بمعزل عن السياق الثقافي والسياسي الفرنسي باعتبارهم هم فقط المستهدفون من النموذج العلماني، وليس الكنيسة الكاثوليكية كما حدث في فترات سابقة حين استهدفها بالأساس قانون الفصل بين الدولة والكنيسة عام 1905، ويحدث الآن ولو بصورة مختلفة مع بعض المظاهر الإسلامية باعتبارها مصدر تباين مع السياق الثقافي العام وليس لكونها بالضرورة إسلامية.

ومن هنا فإن السؤال المحوري الذي يجب أن يطرح حين تناقش خبرة المسلمين في فرنسا يتعلق بالنظر إليها باعتبارها تمثل نسقا ثقافيا مغايرا للنسق السائد داخل المجتمع الفرنسي، وبالتالي من المهم أن يمتلك آليات تدمجه في السياق العام ولا تعزله عنه، وأيضا أن يمتلك وسائط ديمقراطية تؤثر في هذا السياق المحيط وتتفاعل نقديا مع بعض مكوناته [1].

والحقيقة أن فهم بعض جوانب النموذج الفرنسي تبدأ بمعرفة علاقة العلمانية الفرنسية بالكنيسة الكاثوليكية وبالأديان بشكل عام، خاصة بعد أن ترجمت قيم هذه العلمانية في نصوص قانونية بعينها وتحديدا منذ عام 1905 حين جرى الفصل بين المؤسسات العامة . المدارس والهيئات الحكومية . والدين بكافة مظاهره الثقافية وتكويناته الاجتماعية، على اعتبار أن الدولة الفرنسية هي دولة علمانية، وبالتالي لا يفترض أن تنفق من أموال الضرائب التي يدفعها المواطن . الذي اختار



بحريته نظامه السياسي . على المؤسسات الدينية، وأيضا لا يفترض أن تضع المؤسسات العامة التي تمثل هذا المواطن أي مظهر ديني على جدرانها [2].

ومن هنا سنجد أن المدارس العامة في فرنسا والمجالس البلدية ومقر العمد والهيئات الحكومية المختلفة لا تسمح بوجود صلبان أو صور للسيدة مريم أو للسيد المسيح على أي مؤسسة عامة، على خلاف معظم الدول الأوروبية التي تسمح بوجود مثل هذه المظاهر والتي لا ترى فيها تعارضا مع قوانينها الديمقراطية. كما أنه من المستحيل أن تبدأ هيئة عامة أو محلية في فرنسا حديثها بتلاوة بعض آيات الإنجيل أو إدخال أي أحاديث وعظية قبل بدء اجتماعاتها، كما يحدث في كثير من امجتمعات الأوروبية الأخرى التي كثيرا ما يبدأ السياسيون والقيادات المحلية حديثهم بذكر أحاديث دينية دون أن تثير أي حساسيات أو تبدو خارجة عن القواعد العامة.

وقد أدت معركة بناء النموذج العلماني الفرنسي مع الكنيسة الكاثوليكية إلى فك الارتباط بين الدولة والكنيسة، انتهى بأن انتصرت الجمهورية العلمانية وثبتت في دستور 1946 ثم في دستور 1958 مبدأ العلمانية باعتبارها ركيزة من ركائز الديمقراطية والنظام السياسي الفرنسي، وشددت عليها كقيمة عليا تحكم حركة المجال الاجتماعي والسياسي العام.

وقد توازى مع هذا النموذج العلماني قيم أخرى هي قيمة الاندماج ، فالنموذج الفرنسي ينطلق من ضرورة كسر التجمعات العرقية والدينية ويعطي لها هامشا أقل من التعبير الثقافي المستقل عن نفسها مقارنة بالنموذج الأنجلوأمريكي، فمن الصعب أن نجد في فرنسا كنائس مغلقة على السود أو على الآسيويين فقط، كما لا ينظر هذا النموذج بعين الراحة لهؤلاء المسلمين الذين يرتدون أزياءهم التقليدية أثناء ذهابهم إلى المساجد أو أثناء سيرهم في الشوارع ويعتبر أن التماهي وأحيانا التطابق مع قيم النموذج الفرنسي تكسر أولا الانغلاق العرقي والديني، وتعطي ثانيا فرصا أكبر لأبناء هذه الجاليات في الترقي داخل السلم الاجتماعي والسياسي بإعطائهم فرصا متساوية عن طريق دمجهم في قيم الجمهورية الفرنسية وليس من خلال بقائهم في تجمعات مغلقة.

ويمكن القول إن النموذج الفرنسي شيد نظاما علمانيا صارما بدا في كثير من الأحيان عاجزا على التطور والانفتاح على الواقع الجديد سواء في داخل فرنسا أو خارجها، وخلط بين قيمه المدنية والديمقراطية الإنسانية، وبين ميل نحو تقديس نصوص علمانية بدا أن استمرارها يحتاج إلى

قوانين جبرية تقيد من الحرية الفردية للأفراد التي هي جوهر أي نظام ديمقراطي، وتضعه في مفارقة تبدو مدهشة مع نماذج علمانية أخرى كتلك التي يحرسها الجيش في تركيا أو الشمولية في تونس.

ثانيا: خصوصية العلمانية الفرنسية:

الحقيقة أن جزءا كبيرا من الجدل الذي تشهده فرنسا حاليا حول الإسلام والمسلمين يمثل امتداد لنفس الطريقة التي حكمت جانبا كبيرا من الجدل الثقافي الخاص بحماية اللغة الفرنسية من هجوم اللغة الإنجليزية، وحماية الثقافة الفرنسية من غزو الثقافة الأمريكية، أي أن ثقافة "حماية الذات" من أخطار حقيقية أو متخيلة، وإصدار قوانين تمنع من استخدام الكلمات الإنجليزية وتمنع أيضا الرموز الدينية في المدارس الحكومية، عكست في الحقيقة أزمة "الخصوصية الفرنسية" قبل أن تكون عداء للإسلام [3].

ورغم أن النخب السياسية الفرنسية تتحدث عن الخبرة العلمانية الفرنسية الحديثة باعتزاز شديد وتؤكد نجاحها على مدار قرن من الزمن، إلا أن التحدي الحقيقي الذي يواجهها لا يتعلق بنجاحاتها السابقة، إنما في قدرتها على أن تساهم في الواقع العالمي الجديد، وهذا لن يتسنى إلا بمراجعة بعض جوانبها، وخاصة تلك المتعلقة بالهامش المحدود المعطى لحرية التعبير عن الاعتقاد الديني في النموذج الفرنسي.

فمنذ ما يزيد عن مائتي عام والجمهورية تبني وتجدد نفسها مرتكزة على الحرية التي يضمنها تفوق القانون على المصالح الشخصية والمساواة بين المرأة والرجل وتكافؤ الفرص والمساواة بين الحقوق والواجبات والتآخي بين الفرنسيين جميعهم أيا كانت أوضاعهم الاجتماعية أو أصولهم.

ورغم أن العلمانية الفرنسية اعتبرت نفسها محايدة تجاه كل المظاهر الدينية، وميزت نفسها عن الدول الاشتراكية السابقة التي اتخذت موقفا إلحاديا من الدين، أو دول أخرى إنحازت فيها إلى الدين الغالب داخل المجتمع إلا أن هذا لم يمنع أنها كثيرا ما تخلت عن حيادها ودخلت في معارك حول كتاب أو فيلم أو حجاب ومن ثن انغمست في الجدل حول قضايا استثمرت إعلاميا ووضعت مفهوم العلمانية في تحد [4].

ويمكن القول إجمالا إن تاريخ العلمانية في فرنسا كان تاريخا صراعيا، وكان نتاج معارك بين "فرنسيتين" Deux France الأولى فرنسا العلمانية، والأخرى فرنسا الكاثوليكية [5].

وقد خرج كتابان هامان عالجا كل جانب على حدة، الأول لـ Claude Nicolet عام 1982 وحمل إسم فرنسا العلمانية، والثاني لـEmile Poulat في 1987 عن فرنسا الأخرى المهزومة، أي فرنسا الكاثوليكية.

والحقيقة أن هذه العلمانية المحاربة في وجه الدين والكنيسة الكاثوليكية، لم يعد لها مكان في فرنسا المعاصرة، وأصبح عليها من الضروري أن تقبل التصالح مع كل ألوان الطيف الثقافي والسياسي، وأن استقرارها حاليا يرجع إلى عدم شعور قطاع كبير من الكاثوليك الفرنسيين أن العلمانية تستهدفهم. أما البروتستانت فيمكن القول إنه رغم تعاطفهم العام مع العلمانية إلا أن مواقفهم تميزت في كثير من الأحيان في البقاء داخل نقطة مفصلية على الحدود بين فرنسا العلمانية، وفرنسا الدينية بحيث إنهم كانوا حريصين على الحصول على قدر من الاعتراف الديني من الأغلبية الكاثوليكية، وفي نفس الوقت الدفاع عن العلمانية الفرنسية.

وقد نظر الكثيرون للعلمانية في فرنسا، قبل معركتها الأخيرة مع الرموز الدينية، باعتبارها "قاعدة مؤسسية" يجب أن تعطى لكل فرد الحق في أن يتحرك كيفما يشاء في الحيز الثقافي والأيديولوجي دون أن يسحق الآخرين، ودون أن تتحول هي في ذاتها إلى أيديولوجيا تساهم في بناء مشروع ثقافي شامل، وتصورات للعالم والكون، وعليه يمكن للعلمانية الفرنسية أن لا تكون فقط مرادفة للحياد، إنما أيضا للتنوع، وبالتالي هي لا تمثل معركة نضالية ضد المبالغة المجتمعية في التعبير عن المظاهر الدينية إنما هي "فن الحياة".

وقد قدم Jean Baubérot في كتابه "نحو ميثاق علماني جديد" فكرتين جديرتين بالاهتمام خاصتين بضرورة تجديد العلمانية الفرنسية من خلال أولا تبني فكرة الميثاق العلماني التي تعني القبول بالتنوع داخل هذا النسق العلماني بل والتناقض في بعض الأحيان، وطرح ثانيا ما أسماه بـ"مستويين لخط العلمنة"، وهنا يشير إلى عملية التداخل بين أخلاق العلمانية والأخلاق الدينية بل إن كثيرا من جوانب الأولى خرجت من عباءة الثانية [(6)].

والحقيقة أن هذه الأفكار التي طرحت في فرنسا منذ عقد الثمانينيات كانت في جانب منها محاولة فرنسية للرد على كثير من التساؤلات والهواجس التي طرحتها قطاعات متعددة من المجتمع والنخبة الفرنسية حول الحجاب والإسلام في فرنسا. ومع ذلك فإن المفهوم المنغلق للعلمانية هو الذي ساد في التعامل الفرنسي الرسمي مع قضية الحجاب في المدارس الحكومية.



فقد كشرت العلمانية عن وجهها الصراعي ودخلت في معركة أيديولوجية وثقافية مع غطاء الرأس الإسلامي، بحيث لم تنجح في بناء علمانية تقبل بالتنوع الداخلي مع أول اختبار حقيقي للتفاعل مع نسق مخالف، كما أنها من ناحية أخرى لم تلتزم الحياد المطلوب وتميز بين علمانية المؤسسة العامة والمجال العام، وبين حرية التعبير الشخصي عن الاعتقاد الديني بارتداء الزي المنسجم مع القناعات الشخصية والدينية لكل شخص.

والحقيقة أن معركة الحجاب في فرنسا تمثل هزيمة كبيرة لكل الأفكار التي حاولت أن تجدد في العلمانية الفرنسية وتقدم علمانية إنسانية متصالحة مع المجتمع والدين ومع التنوعات الثقافية المختلفة.

وعليه يمكن القول إن المشكلات التي ستواجهها العلمانية الفرنسية لن تكون أساسا مع الإسلام والمسلمين، إنما مع النموذج الأنجلوسكسوني الذي أعطى مساحة كبيرة للتجمعات الثقافية والدينية المختلفة لكي تعبر عن نفسها بصورة أكبر بكثير من العلمانية الفرنسية، ونجح في التأثير في محيط حضاري وثقافي واسع، وأعطى لنفسه فرصة أكبر لكي يقد وجها متعولما لمشروعه الثقافي قادرا على أن يستوعب التعبيرات الثقافية لمختلف التجمعات العرقية.

ثالثا: من الهجرة إلى المواطنة: الجدل حول الاندماج أم الاستيعاب

زادت أعداد المسلمين في فرنسا في العقود الثلاثة الأخيرة، وتغيرت أوضاعهم الاجتماعية والسياسية، بحيث أصبحنا الآن أمام رقم يتجاوز الأربعة ملايين مسلم منهم حوالي 2 مليون يحملون الجنسية الفرنسية، وتحولت قضية المسلمين من قضية خارج إلى قضية داخل، ولم تعد قضايا الإسلام في فرنسا تناقش باعتبارها قضايا مرتبطة بالخارج العربي أو الإسلامي كما كان في الستينيات، إنما تحولت إلى هم فرنسي وأصبح الجزء الأكبر من الجدل الدائر حول قضية الإسلام والمسلمين يتم وضعه في إطار المفهوم الفرنسي عن الاندماج، ويتم مقارنة أوضاع المسلمين بتجارب فرنسا مع البرتغاليين أو البولنديين في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، حين كانوا أكثر تدينا من كثير من الفرنسيين، وخاضوا صراعا مع العلمانية الفرنسية الناشئة على أرضية كاثوليكية، رافضين هذا الفصل الفرنسي القاطع بين الدولة والكنيسة.

وقد اختلف تفاعل المسلمين مع قضية الاندماج من جيل إلى آخر، فالجيل الأول من المهاجرين العرب والمسلمين كان يعتقد أنه سيعود إلى بلاده وأن بقاءه في فرنسا مؤقت، وبالتالي لم



تطرح فرنسا في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية قضية الاندماج بنفس الطريقة التي طرحت بها منذ عقدين، كما أن هؤلاء المسلمين لم يسعوا بدورهم إليها لأنهم كانوا ينظرون إلى وجودهم في المهجر بأنه وجود مؤقت.

أما الجيل الثاني فكان يسعى إلى تأكيد وجوده في البلدان الجديدة، ولكن مع إبراز اختلافه وتباينه، أما الجيل الثالث فقد اختار الاندماج ولكنه أكد على مشكلاته [7].

وعليه فإن قضية الاندماج لم تكن فقط مجرد أفكار نظرية، إنما كانت بمثابة الحل الفرنسي لمشكلة موجودة في الواقع وهي مشكلة مهاجرين أجانب يحملون ديانة مختلفة، صحيح أن هذا الحل أو هذه الطريقة الاندماجية، مرتبطة بما يمكن أن يسمى بخصوصية النموذج الفرنسي، ولكنها في النهاية أصبحت محل قبول من المسلمين الفرنسيين الذين أصبحوا يتحركون داخلها، ويحاولون في نفس الوقت التأثير فيها وتحويلها من محاولة للتطابق أو الاستيعاب Assimilation مع نسق القيم الثقافي العام إلى اندماج Integration يتضمن الاحتفاظ بحق الاختلاف كما سماه "برونو إيتيان"، والذي اعتبر أن الإثنين يجب أن يكونا متلازمين حتى لا يعني الاندماج في أعين المسلمين التماهي والتطابق الكامل مع المجتمع الفرنسي، وأيضا حتى لا يؤدي طرح شعار حق الاختلاف بمفرده إلى السقوط في فخ الانغلاق العرقي والديني [8].

أما "جيل كيبل" فقد ميز بين مفهوم الاندماج ومفهوم الاستيعاب واعتبر أن الأول يعني قدرة المجتمع الفرنسي على امتصاص أفراد من المسلمين ذوي الأصول الإسلامية عن طريق الاختلاط والمدرسة، والزواج، والعمل وتأدية الواجب الوطني، وهؤلاء الأفراد يمكنهم أن يمارسوا شعائرهم الدينية داخل الإطار الذي تحدده الدولة العلمانية أو يمكنهم هجرته أو تغييره.

أما الاستيعاب فيعني زرع تجمع من الناس في المجتمع الفرنسي على أساس غير نفردي، إنما جماعي وبصورة قد تكون عرقية أو دينية [9].

والحقيقة يمكن القول إن الصيغة المستقرة في فرنسا هي صيغة الاندماج، ومن الصعب القول إن نموذج الاستيعاب وفق المعاني الأنجلوسكسونية مطروح في فرنسا، وأصبح حتى نضال المسلمين وقطاع كبير من المنظمات الحقوقية ينطلق من هذا المفهوم ولكن مع إضافة حق الاختلاف كمفهوم مواز للاندماج.

وهنا في الحقيقة تكمن الإشكالية الحقيقية للمسلمين في فرنسا والذي اتضح على ما يبدو أنهم لم يحصلوا عليها بعد، كما ظهر مؤخرا في معركة الحجاب التي خسروها. وعبرت هذه المعركة عن أنهم لم ينجحوا بعد في الحصول على القيمتين" الاندماج وحق الاختلاف.

رابعا: خصوصية وضع الإسلام في فرنسا

تكمن خصوصية الإسلام في فرنسا في كونه دينا جاء من الخارج إلى الداخل، وليس نتيجة تفاعلات من قلب منظومته الثقافية، فلم يكن يتوقع المشرع الفرنسي وهو يفصل بين الدولة والكنيسة عام 1905 ويصدر قوانينه العلمانية أن يواجه بعد نصف قرن مشكلة ميلاد دين جديد بكل ما يحمله هذا الميلاد من تعقيدات قيصرية، أثرت على المجتمع الفرنسي، وبات كثير من القواعد التي حكمت علاقة الكنيسة الكاثوليكية بالدولة الفرنسية عاجزة عن أن تحكم علاقة الدين الجديد بالدولة.

ولعل أبرز هذه القضايا هي مسألة الإنفاق على دور العبادة، والمدارس والهيئات الدينية، فوفق القانون لا يسمح للدولة العلمانية أتنفق على بناء الكنائس ولا أي من دور العبادة الكاثوليكية في فرنسا، ولكن هذا القرار لم يؤثر كثيرا على أوضاع الكنيسة، التي امتلكت منذ قرون مئات الكنائس على امتداد الأراضي الفرنسية في بلد مسيحي أصلا، وكانت الكنيسة الكاثوليكية تلعب دورا اقتصاديا وسياسيا وثقافيا هائلا طوال قرون عديدة، وبالتالي فإنها ورثت أموال الأجداد ومعها منشآت ودور عبادة ممتدة، وهذا في الحقيقة على عكس الإسلام الناشئ في فرنسا، حيث لم يكن المهاجرين المسلمين الأوائل ينتلكون أي قدرات مالية تسمح لهم ببناء مساجد، فظلت أعينهم متجهة نحو الدولة الفرنسية، لتستثنيهم من قوانينها التي تمنع الإنفاق على دور العبادة، أو الخارج العربي والإسلامي ليمنحهم الدعم المادي اللازم لإتمام عمليات البناء.

وقد قدمت الدولة الفرنسية عمليا استثناء وحيدا حين قررت بناء مسجد باريس الكبير كأول مسجد يبنى في فرنسا ولاعتبارات أساسا سياسية خاصة بعد تزايد حجم الضحايا المسلمين في الحرب العالمية الأولى من جنود المستعمرات الفرنسية في إفريقيا.

وقد صدر قانون في 19 أوت 1920 حصل بمقتضاه المسلمون على دعم مالي من الدولة، ومن عمدية باريس من أجل إنشاء هذا المسجد، ومع حلول عام 1922 أصبح وجوده حقيقة واقعة[10].

وقد مثلت هذه القضية استثناء في تاريخ بناء دور العبادة في فرنسا، حيث استمر بعد ذلك الدعم الخارجي العربي والإسلامي في بناء كثير من المساجد في فرنسا والتي بلغت الآن أكثر من 1000 مسجد أكثريتها مجرد صالات مغلقة لا تحمل واجهتها الخارجية أي مظهر يدل على أنها مساجد إسلامية.

والحقيقة أن التطور الذي شهده حجم بناء دور العبادة الإسلامية، إضافة إلى عدد الجمعيات والمؤسسات الإسلامية،كان مذهلا، فقد زاد عدد المساجد والزوايا من 4 في بداية الستينيات إلى 33 في أوائل السبعينيات، ثم وصل إلى أوائل التسعينيات إلى حوالي 912، كذلك فإن الجمعيات الإسلامية قد زاد عددها بصورة كبيرة من 3 جمعيات عام 0969 إلى 635 في منتصف الثمانينيات، وتجاوزت 700 جمعية في التسعينيات (11).

وقد تحول الإسلام من كونه مجرد مرجعية لكثير من النشاطات الاجتماعية والإنسانية وعامل جامع في دور العبادة إلى كونه مرجعية حكمت فهم كثير من أبناء المغرب العربي سياسيا وثقافيا، فالمسلمون المهاجرون في الخمسينيات وخاصة الجزائريين منهم كانوا يتحركون على أرضية خطاب التحرر الوطني والاستقلال طوال تلك الفترة وليس على أرضية إسلامية، وكان عدد المنظمات الإسلامية محدودا للغاية (12).

وقد تواكب مع هذه المظاهر الإسلامية نمط جديد من الفهم والممارسة السياسية مارسه بعض المسلمين الفرنسيين، وبصورة لم تعتدها النخبة الفرنسية ولا المجتمع على السواء، وأصبحنا مع بداية الألفية الثالثة أمام إسلام ثقافي وسياسي وشعائري يعيش في أوروبا وبصورة لم تعرفها هذه المجتمعات من قبل (13).

لقد صار من المهم التعامل مع الإسلام في أوروبا على أنه في طريقه إلى التحول من إسلام عابر أو ضيف على القارة الأوروبية إلى إسلام شبه أصيل بدأ فيه المسلمون في التحول من مهاجرين إلى مواطنين، وأن قدرته على التأثير ستحتاج أولا إلى فهم هذا الواقع، ثم بناء مشروعه الخاص القائم على ضرورة الاندماج وحق الاختلاف.

خامسا: السياق الاندماجي للإسلام وهموم المسلمين:

لقد أثار السياق الاندماجي للإسلام وللمسلمين في بيئة مغايرة هموما خاصة بهؤلاء المسلمين بات من المهم إلقاء الضوء عليها خاصة وأنها تختلف بصورة واضحة عن تلك التي يتصورها كثير ممن في العالم العربي.

ولعل أول هذه الهموم هو كيفية الاحتفاظ بالهوية الإسلامية واحترام العلمانية على حد سواء، وهنا سنجد أن قضية الحجاب في فرنسا كانت نموذجا لهذه الرغبة من قبل قطاع من المسلمين في فرنسا بالاحتفاظ بهذه الثانية، وجاء صدور القانون الأخير الذي حظر الرموز الدينية في المدارس الحكومية وعلى رأسها الحجاب ليعطي صورة أكثر تشددا عن العلمانية، ولكنه في نفس الوقت دفع المسلمين الفرنسيين إلى مناقشة القانون على أرضية التمسك بالعلمانية، ولكن بصورة أكثر إنسانية وانفتاحا.

أما ثاني هذه الهموم فهي تكمن في ابتكار حيز فقهي خاص بالمسلمين الأوروبيين عرف باسم "فقه الأقلية"، وهنا تمحور جانب كبير من اجتهادات المسلمين الأوروبيين حول فكرة "المواءمة" وليس "المواجهة" مع المجتمع القائم، وبالتالي القبول بكثير من الاجتهادات التي يمكن أن تفسر في العالم العربي والإسلامي على أنها تنازلات عن تعاليم الإسلام الصحيح، وظلت هذه المساحة غير مكتملة حتى الآن ومن الصعب القول إننا أمام فقه أوروبي إسلامي جديد، كما من الصعب أيضا القول بأن الفقه الإسلامي الذي يحكم المرجعية الدينية في معظم بلدان العالم العربي ملائم في مجمله لأوضاع المسلمين الأوروبيين.

أما الهم الثالث فيتعلق بقدرة المسلمين الأوروبيين على صياغة خطاب إنساني مستمد من الإسلام ومن هموم المسلمين العامة وتحوبلها إلى قضايا مجتمعية تخاطب كل المواطنين الأوروبيين. فعلى عكس نجاح اليهود في وضع العداء للسامية كقضية مجتمعية ترفضها النظم الديمقراطية والقيم الإنسانية، وليس فقط اليهود، لم ينجح المسلمون بعد في بلورة رؤية إنسانية تخاطب هذه المجتمعات وتكون مستمدة من الإسلام.

هوامش الدراسة:

1 -Tarik Ramadan, les Musulmans d'occident et l'avenir de l'Islam, Paris : Sindbad, 2003, pp 18 -19.

2 . عمرو الشوبكي، مشكلات العلمانية الفرنسية، صحيفة الأهرام، 2004، ص 3.

3 . نادية محمود مصطفى، مسارات وخبرات في حوار الحضارات، القاهرة: كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، 2004، ص 165.

4 – jean Baubérot, vers un nouveau pacte laïque, Paris : Editions du Seuil, p 12.

5 – Ibid p 13.

6 – Ibid pp 14 -15.

7 – Mohamed Arkoun et remy leveau, l'Islam et les Musulmans dans le monde, Beyrout : centre culturel Hariri, 1993, p 37.

8 - Ibid p 47.

9 - Ibid p 48.

10 - Gilles Kebpel, les Banlieus de l'Islam, Paris : Editions du Seuil, pp 66 - 70.

11 - Ibid pp 229 - 231.

12 - Ibid p 95.

13 - Mohamed Arkoun, Islam et laicité en Islam d'Europe, Paris : Editions de l'aube, p76.



فرنسا العلمانية بين الانفتاح و الخصوصية.. الاسلاموفوبيا و حوار الهوية نموذجا

د. دندن عبد القادر
- جامعة عنابة - الجزائر

مقدمة:

دخل الإسلام أوروبا منذ فتح الأندلس، و وصول المسلمين إلى جنوب فرنسا في معركة "بواتييه"، وعاد ليدخل جنوبها و شرقها بعد فتح "أسد بن الفرات" لصقلية الإيطالية، و فتح العثمانيين لمنطقة البلقان و وصولهم إلى مشارف العاصمة النمساوية فيينا و حصارها مرتين.

و منذ ذلك الحين أصبح الإسلام و تواجد المسلمين مكونا رئيسيا في تاريخ أوروبا و حاضرها و عامل تأثير محتمل حتى على مستقبلها، و تعتبر فرنسا من بين أكثر الدول الأوروبية استقطابا للجاليات الإسلامية خاصة المغاربية منها، و يعد الدين الإسلامي اليوم الدين الثاني في البلاد بعد المسيحية، و أمام تصاعد المد اليميني و تنامي ظاهرة الخوف المبالغ فيه من الإسلام أو ما يصطلح عليه بـ "الإسلاموفوبيا"، تبنى الرئيس "نيكولا ساركوزي" فكرة إقامة حوار مطول و معمق حول ثوابت و مميزات الهوية الفرنسية من أجل سد الطريق أمام اليمين المتطرف الذي يتخذ من قضايا الإسلام و المهاجرين زادا له في حملاته الانتخابية و ضمن أجندة برامجه السياسية، و لكن المفارقة أن الحوار الذي أريد به تدعيم الوحدة الوطنية الفرنسية يتجه اليوم نحو خلق تصدعات في المجتمع الفرنسي، بسبب استغلاله في تنمية ثقافة الكره تجاه المسلمين خصوصا و تصعيد مستويات الإدراك السلبي تجاه الإسلام، و منه تدعيم موجة "الإسلاموفوبيا" التي تجتاح أوروبا عموما، و هذا ما توضحه قضية منع النقاب و التضييق على الحجاب، التي تتأرجح بين التأكيد على ضرورة احترام الطابع العلماني للدولة الفرنسية و بين مشاعر العداء للمسلمين و القيم الإسلامية الآخذة في الانتشار بين فئات واسعة من أجيال المهاجرين المسلمين، و حتى بين عدد من الفرنسيين أنفسهم.

لذلك فإشكالية المداخلة تدور حول الأبعاد و الأهداف الحقيقية لحوار الهوية في فرنسا، **فما هي الأهداف الحقيقية وراء إقامة حوار حول الهوية الوطنية في فرنسا بعد أكثر من قرنين من إعلان ميلاد الجمهورية و إرساء دعائم الدولة العلمانية؟**

هذه الإشكالية التي تتفرع عنها جملة من التساؤلات الضرورية في التحليل: هل إقامة مثل ذلك الحوار أملته فعلا رغبة صناع القرار الفرنسيين في تأكيد ثوابت الهوية الفرنسية لضمان تماسك المجتمع الفرنسي المتعدد الأطياف عرقيا و دينيا؟ كيف يمكن أن ينحرف هذا الحوار عن أهدافه المعلنة و يستغل سياسيا و يأخذ بعدا عنصريا؟ و هل يمكن النظر إلى هذا الحوار على أنه انعكاس لموجة "الإسلاموفوبيا" التي تجتاح الغرب عموما و فرنسا خصوصا؟ و هل لنا أن نصنف القرارات المتعاقبة بشأن الحجاب و النقاب ضمن سياسة منظمة تستهدف الإسلام في فرنسا بعد تنامي هستيريا التخوف من أسلمة البلاد؟

1- الخلفية التاريخية و الحضارية لواقع الإسلام و المسلمين في فرنسا: يعتبر الإسلام اليوم ثاني أكبر ديانة في فرنسا بعد المسيحية (رغم عدم وجود إحصائيات دقيقة حول عدد المسلمين في فرنسا، لأن إجراء إحصائيات على أساس ديني يعد ممنوعا في القانون الفرنسي، و لكن إحصائيات غير رسمية قدرت عددهم مطلع الألفية الجديدة بحوالي 4 ملايين نصفهم مواطنون فرنسيون حاصلون على الجنسية، و يقدر العدد اليوم بأكثر من 5 ملايين).

و مازال صعبا على عدد كبير من الفرنسيين اليوم تقبل هذه الحقيقة الديموغرافية، و غالبا ما يبدأ و ينتهي النقاش حول المسلمين في فرنسا باعتبارهم مشكلة إجتماعية، و السؤال الذي يطرح غالبا أيضا هو: هل يمكن للمسلمين الاندماج في المجتمع الفرنسي؟ و هذا السؤال منبثق من الاعتقاد السائد بالتعارض الموجود بين القيم الإسلامية و نظيرتها الغربية و بتشكيل المسلمين لفئة خطيرة[1].

هذا الإدراك السلبي للإسلام و المسلمين في فرنسا، مرده لتظافر عدة خلفيات تاريخية و حضارية على مستوى البيئة الخارجية (أوروبيا و دوليا) أو البيئة الداخلية الفرنسية، فالنظرة الفرنسية لتواجد الإسلام و جاليته على أراضيها لا يمكن فصلها عن حالة التخوف الهستيري من الإسلام التي تسود العالم، مع طرح "صامويل هنتنغتون" لأطروحته حول "صدام الحضارات" (The clash of civilizations)، و مع أحداث الحادي عشر من سبتمبر و ما انجرت عنها من عواقب وخيمة.

فبعد أحداث الحادي عشر سبتمبر "الإسلاموفوبيا" التي توصف بكونها نوع من العنصرية و الخوف من الإسلام، لم تسيطر على خطاب وسائل الإعلام فقط بل و على الحياة السياسية الأوروبية أيضا، و تميزت فترة ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر بإصدار العديد من القوانين الهادفة



لمنع الهجمات الإرهابية التي يقوم بها المتشددون الإسلاميون، و لكن بالرغم من تأكيدات المسؤولين الأوروبيين على استهداف تلك القوانين للإرهابيين و ليس للإسلام، غير أن اللغة المستعملة و الأعمال المنتهجة قادت المسلمين لتبني انطباع معاكس، فقد أدت أحداث الحادي عشر من سبتمبر إلى تقوية الوعي بأن القيم اليهودية – المسيحية التي قامت عليها أوروبا تختلف كليا عن القيم الإسلامية[2].

فالغرب يعتبر الإسلام دينا غريبا مختلفا كليا عن المسيحية و اليهودية رغم أنه موجود ضمن أغلب الدول الغربية، و الإدراكات الغربية ما تزال مبنية على الصورة النمطية للإسلام العنيف غير القابلة للتغيير المترتبة عن الماضي الاستعماري، و هي الصورة التي توفر القاعدة لسوء فهم الغرب للمواقف و الأحداث التي يكون المسلمون طرفا فيها، فصامويل هنتنغتون مثلا ظل مصرا على نظرته الستاتيكية للحضارة الإسلامية و الخصائص النفسية للشخصية الإسلامية التي لا تتغير بتغير الزمان و المكان، و عمله الموسوم بصدام الحضارات يبين كيف أن مثل تلك النظرة كفيلة باتخاذ الإسلام كتهديد جديد للغرب بعد نهاية الحرب الباردة... و الإدعاء بمعارضة الإسلام للحداثة[3].

وعلى مستوى الفضاء الأوروبي الذي تنتمي إليه فرنسا مباشرة، و أمام تزايد أعداد الجاليات الإسلامية و المسلمين من أصول أوروبية، يسود التخوف من تحويل الإسلام لما عليه أوروبا اليوم (أو ما يمكن أن تكونه في المستقبل)، مما أوقع أوروبا في حالة من التناقض و الصراع، فهي من جهة تدعو مسلميها ليكونوا مسلمي أوروبا (Muslims of Europe)، بعبارة أخرى المسلمين الذين يكيفون قيمهم الثقافية و الدينية ليكونوا مواطنين في أوروبا الجديدة التي تضم الإسلام أيضا، و لكنها في نفس الوقت تتصرف بطريقة توحي بأن المسلمين بإمكانهم البقاء فقط كمجرد مسلمين في أوروبا (Muslims in Europe)، بعبارة أخرى كغرباء و أجانب في بيئة مسيحية– أوروبية مركزية (Christocentric European environment)، و "الإسلاموفوبيا" جزء من هذا المسار الذي سيكون له تأثيراته الاجتماعية والسياسية[4].

أما على المستوى الفرنسي فهنالك "النسخة الفرنسية لصدام الحضارات" the French version (of the clash of cevilizations تقف وراء الإدراك الخاطئ المتسع و الواقع المتشعب للإسلام و المسلمين في فرنسا على حد تعبير "جوسلين سيزاري"، أين أخذت المخاوف تزداد من



التواجد الملحوظ للإسلام في فرنسا منذ الثمانينيات، و تزايد أعداد المسلمين الوافدين من دول إسلامية مختلفة كتركيا و السنغال و لكن أغلبهم ينحدر من دول شمال إفريقيا، و هم الذين يشكلون التحدي الأكبر لتقليد التجانس الفرنسي، و الصعوبات التي يواجهونها ناجمة عن الذكريات المريرة للحقبة الاستعمارية الفرنسية في شمال إفريقيا، مما جعل الكثير من الفرنسيين يتصارعون مع مشاعر متناقضة بين التفوق و الخزي أو تأنيب الضمير مع استقرار المسلمين في فرنسا منذ حرب استقلال الجزائر، و التاريخ يعيد نفسه بطريقة أخرى على الجانب الآخر من المتوسط مع تبادل للأدوار، فنفس الشعب الذي كان يشكل أقلية و يبحث عن حكم أغلبية جزائرية في شمال إفريقيا، يجد نفسه اليوم أغلبية تحاول أن تدمج أقلية جزائرية على أرضه الفرنسية.

الخوف و التوجس تجاه الإسلام في فرنسا يأخذ مستويات عليا لأن وصوله أشعل حنين قديم طالما عملت اللائكية على إخفائه من السطح، و المتمثل في المسار الصعب الذي قطعه الفرنسيون لإصدار قانون 1905 القاضي بفصل الدولة عن الكنيسة و مكانتها في الثقافة الفرنسية، لأن القانون لم يكن يسعى لتشجيع الحرية الدينية، بقدر ما كان يسعى لإضعاف النفوذ الكاثوليكي بوضع الكاثوليكية على قدم المساواة مع الأقليات الدينية في الشأن العام، عمليا كان القانون يهدف لحصر المعتقد الديني في الفضاء الخاص ليصبح شأنا شخصيا، أما غايته المثالية فكانت تتمثل في نزع التقدير عن القيم الدينية في جميع المجالات الشخصية و العائلية و الثقافية و السياسية، وعبر العقود حققت الجماعات الدينية الرئيسية – المسيحية و اليهودية – سلاما و تعايشا صعبا مع العلمانية بتكييف التعبيرات الدينية مع المجال الشخصي، و لكن استقرار المسلمين في البلاد هدد هذا السلام، و طرح إشكالا جديدا حول الحدود بين المجال العام و الشخصي و عاد ليجدد التصادم بين الحرية الدينية و التسامح السياسي (و هو التصادم الذي تعكسه اليوم قضايا الحجاب و النقاب و بناء المساجد و المآذن و غيرها)[5].

و رغم تفوقها العددي إلا أن الجالية الإسلامية تعد أقل تنظيما و تأثيرا مقارنة بالجالية اليهودية مثلا الأقدم و الأكثر تنظيما، فعند حدوث اعتداءات متزامنة على الرموز الإسلامية في فرنسا سنتي 2001 و2002 لم يستنجد المسلمون رسميا بالسلطات الفرنسية مثلما فعلت التنظيمات اليهودية، لأن المسلمين غير مهيكلين في إطار هيئة تحصي تلك الاعتداءات... و بالتالي لم تثر تلك

الاعتداءات على الإسلام و المسلمين نفس التعليقات و التنديدات التي أثارتها الاعتداءات على المعابد اليهودية مثلا.

إن قدم الجالية اليهودية في فرنسا يفسر جزئيا المشاكل التنظيمية التي يعاني منها المسلمون هناك، لأن محاولات وضع تنظيمات جامعة للمسلمين الفرنسيين على اختلاف توجهاتهم باءت بالفشل، و بالمقابل بادرت السلطات الفرنسية بعمليات لهيكلة الجالية المسلمة منذ عام 1989، بمبادرة من "بيير جوكس" و زير الداخلية آنذاك الذي أسس "مجلس التفكير حول الإسلام في فرنسا".

وفي 1993، أراد وزير الداخلية اليميني "شارل باسكوا" تأسيس "المجلس التمثيلي لمسلمي فرنسا" برئاسة "دليل أبو بكر" عميد مسجد باريس الكبير، ولكنه كان مجرد حبر على ورق وتبعته نزاعات داخلية بين المسلمين اختلطت بالأحداث السياسية والأمنية في سياق ميزته تفجيرات في باريس نسبت لـ "الجماعة الإسلامية المسلحة" الجزائرية، وعندما أصبح "جون بيير شفينمان" وزيرا للداخلية في حكومة "ليونيل جوسبان" الاشتراكية، قرر في 1999 إجراء استشارة واسعة وفرت لخليفته اليميني "نيكولا ساركوزي" أرضية عمل حقيقية سمحت له في ديسمبر 2001 بالإعلان عن انتخابات لتأسيس "المجلس الفرنسي للدين الإسلامي"، كانت انتخابات شكلية لأن رئيس المجلس الجزائري "دليل أبو بكر" عينه وزير الداخلية آنذاك "نيكولا ساركوزي"، و لم يتم انتخاب إلا نائبيه، وهما "فؤاد علوي" من (إتحاد المنظمات الإسلامية بفرنسا) المحسوب على التيار الإخواني، و"محمد بشاري" من (الفدرالية الوطنية لمسلمي فرنسا) الموالية للمغرب، و الملاحظ على تركيبة المجلس القيادية عدم تمتع رئيسها "دليل أبو بكر" بشعبية في أوساط الجالية المسلمة رغم ترؤسه لمسجد باريس إلا أنه لا يعد مرجعا دينيا و ورث المنصب عن والده، و بسبب استقباله لسفير إسرائيل بفرنسا في مكتبه أين تلقى منه التهاني بمنصبه الجديد، كما أن "المجلس الفرنسي للدين الإسلامي" الذي يجمع أهم التيارات التي تشكل الجالية المسلمة: الجزائر والمغرب و"الإخوان المسلمين"، أرادت به السلطات الفرنسية تكوين صورة أوضح عن تلك التيارات وتحركاتها، فأنشأت لها تنظيما يسهل التحكم فيه[6].

في ظل هذه الخلفيات التاريخية و الحضارية المتداخلة بين ما هو أوروبي و عالمي و ما هو شأن فرنسي داخلي، تعيش الجالية المسلمة في فرنسا محاولة فرض وجودها و تنظيم نفسها أمام سيل



"الإسلاموفوبيا" المتنامي، و تصاعد المد اليميني في فرنسا، و تحدي حوار الهوية الوطنية الذي تبنته السلطات الفرنسية.

2- بدايات حوار الهوية الوطنية في فرنسا: أعلنت "وزارة الهجرة و الاندماج و الهوية الوطنية الفرنسية" بقيادة الوزير "إريك بيسون" فتح ما أسمته (حوارا وطنيا كبيرا يتعلق بتحديد ماهية الهوية الوطنية الفرنسية)، و يعمل هذا الحوار الذي يدوم شهرين (جانفي- فيفري 2010) على الإجابة حسب البيان الرسمي للوزارة عن تساؤلين: الأول و هو: "**ماذا يعني أن تكون فرنسيا اليوم؟**" أما الثاني فهو: "**ماذا قدمت الهجرة بالنسبة لكم؟**"، كما يطرح الحوار إعادة فهم العديد من المصطلحات التي ارتبطت بالجمهورية الفرنسية، مثل: **الوطن- العلمانية- التضامن الوطني- إمكانية أن ينشد أطفال المدارس مرة في العام المارسياز** (أي النشيد الوطني الفرنسي)، و هو الحوار الوطني الكبير الذي يعقد في كل مديرية من مديريات المدن الفرنسية، و في المقاطعات الفرنسية لما وراء البحار في منطقتي المحيط الهادي و الكاريبي، بمشاركة مسؤولي المديريات و برلمانيين و ممثلين عن القوى السياسية و النقابات و منظمات المجتمع المدني و المجالس الطلابية و المثقفين و المواطنين العاديين[(7)].

ومنذ الإعلان عن بدء الحوار تم تنظيم أكثر من 340 لقاء في جميع أنحاء البلاد، وقد زار الموقع الخاص لهذا النقاش 750 ألف شخص، و خلال الأسابيع الأولى تسلم الموقع عدد هائل من ردود الفعل العنصرية، وقررت المعارضة الاشتراكية مقاطعة اللقاءات لأنها رأت أنها تسيء إلى المهاجرين والمسلمين كثيراً، و لم يتورع أعضاء من حزب "الإتحاد من أجل حركة شعبية" اليميني الحاكم عن الإدلاء برأيهم بشكل يفتقر للباقة، فأحد وزراء الدولة طالب الشباب المسلم بأن يسيروا في الاتجاه العام للمجتمع إذا كانوا يريدون إيجاد عمل على الأقل، واشتكى رئيس بلدية مرسيليا من نزول الكثير من المسلمين إلى الشارع بعد مباراة لكرة القدم، كما أدلى "جون ماري لو بان" زعيم حزب الجبهة الوطنية المتطرفة برأيه قائلا: "علينا أن نكون جريئين بتوجيه الأسئلة الحقيقية المتوارية خلف سطور هذا النقاش حول الهوية الوطنية، علينا بالأحرى طلب العون، فقد تم تهميش تقاليدنا وثقافتنا وهويتنا بسبب الهجرة"[(8)].

3- <u>دلالات فتح حوار حول الهوية الوطنية</u>: أثار قرار السلطات الفرنسية القاضي بفتح حوار حول الهوية الوطنية بعد أكثر من قرنين على قيام الثورة الفرنسية و تأسيس الجمهورية و تبني



المبادئ العلمانية تساؤلات كثيرة و مشروعة، تمحورت حول المغزى من طرح مثل هذا الإشكال في هذا الوقت بالذات، و الدافع وراء البحث عما تمثله الهوية الفرنسية و السعي نحو إعادة تعريفها بعد عقود من الحسم في هذه المسألة المعقدة.

ويبدو أن الكثير من الفرنسيين خاصة المثقفين منهم و المعارضين للحكومة و حتى من المواطنين العاديين، لم يقتنعوا بالمبررات التي قدمتها حكومة "ساركوزي" (بلورة برنامج عمل يرسخ الهوية و القيم الجمهورية، و يعزز افتخار الفرنسيين بانتمائهم للأمة الفرنسية)، و الأكيد أن للموضوع أبعاد و دلالات أخرى غير معلنة، يمكن تلمسها من خلال تحليل طبيعة الخطاب الذي ساد طيلة مدة الحوار، و ما أفرزه من تداعيات لاحظها المراقبون المهتمون بالموضوع، و أهمها:

3-1 تموقع الإسلاموفوبيا في قلب الحوار الهوياتي الفرنسي: إن التواجد الإسلامي المكثف في فرنسا و تمثيله لثاني ديانة بعد المسيحية، و تشكل أغلب أفراد الجالية المسلمة من المغاربة القادمين من المستعمرات الفرنسية السابقة في شمال إفريقيا و خاصة من الجزائر، أعطى الانطباع بأن المقصود من هذا الحوار هم المسلمون و ديانتهم الإسلامية بالدرجة الأولى.

فقد تحول النقاش من الإجابة عن السؤال المركزي "من هو الفرنسي؟" إلى المطالبة باندماج المسلمين بفرنسا و احترام القيم المسيحية للبلاد، و بالتالي كشف عن الوجه الحقيقي لغاية الحوار، كما شكل تحولا ينبئ بعدم براءة السؤال المطروح منذ البداية و النتائج الخطيرة التي يمكن أن يؤدي إليها... و تأكد ذلك مع المقال المطول للرئيس "نيكولا ساركوزي" على صفحات جريدة "لوموند" يوم 9 ديسمبر 2009، حيث ربط بين النقاش الجاري حول الهوية الوطنية و علاقة فرنسا بالإسلام، و رغم محاولة طمأنة المسلمين بقوله أنه: "سيبقى ضامنا لحرية ممارسة عقائدهم في أماكن عبادة لائقة بهم"، إلا أنه دعاهم إلى: "احترام القيم المسيحية و عدم استفزاز مشاعر المضيف"، على اعتبار أنهم قادمون من بعيد(9).

إن الوقائع تدل أن المستهدف من خلال إثارة الحوار حول" الهوية" هم العرب والمسلمون دون غيرهم، ذلك أن الأمر إن خرج عن هذا الإطار فسيكون "ساركوزي" ذاته المتضرر الأول بما انه ذو أصول مجرية تبتعد كثيرا عن المجال "الفرانكفوني" الذي تنتمي إليه الغالبية الساحقة من عرب ومسلمي فرنسا، و أن المحرك الأساسي للحوار الفرنسي حول الهوية ليس سوى ظاهرة "الإسلاموفوبيا" الصاعدة في الغرب عموما وفي القارة العجوز بشكل خاص، تلك الظاهرة التي



تغذيها الصهيونية العالمية بما تملك من ترسانة إعلامية ومالية في العالم، وكذلك بواسطة اللوبي الصهيوني الذي يخترق أغلب دوائر السلطة والنفوذ والقرار في العالم، ولا أدل على ذلك مما سبق هذا الحوار من ضجيج إعلامي حول قضايا مثل قضية "الحجاب" ومن بعده "النقاب"، ومهما كانت أسباب بروز وانتشار ظاهرة "الإسلاموفوبيا" سياسية كانت أو دينية أو إيديولوجية فإنها تبقى ظاهرة عنصرية عرقية بالدرجة الأولى، ومن هنا فلا يمكن أن يفهم خطاب الهوية في سياق هذه الظاهرة إلا بكونه خطاب صدامي غايته القصوى إثبات الذات بنفي الآخر[10].

ويؤكد المؤرخ الفرنسي الكبير "بنجمان سطورا" في حوار له مع صحيفة الإتحاد الاشتراكي المغربية غداة انطلاق الحوار حول الهوية، أن الإسلام في فرنسا أصبح هو محور النقاش الدائر، إذ يقول: "المشكل المطروح ليس هو النقاش الجاري حول الهوية الوطنية بفرنسا، بل المشكل هو المعنى الذي أضفي على الهوية بالإضافة إلى وتيرة هذه النقاشات، وبسبب سرعته تحول النقاش من حوار حول الهوية الى حديث عن الأجانب و الدين وعلى الخصوص الإسلام، ففي ظرف ثلاثة أسابيع تحول النقاش إذن من حوار حول مكانة الهوية إلى كلام عن مكانة الإسلام بفرنسا، أي أن الإسلام صار العنصر الأساسي في النقاش بينما هو مجرد مكون من مكونات بلد من المفترض أنه لائكي، بلد يندرج الانتماء الديني به في نطاق الحياة الخاصة هذا الانحراف هو الذي يطرح مشكلا في هذا النقاش".

ويذهب "بنجمان" في نفس الحوار إلى أنه من الطبيعي أن يشعر المسلمون و خاصة المغاربة بأنهم المستهدفون من كل هذه الضجة رغم التواجد المغاربي و الإسلامي في فرنسا منذ أزيد من قرن، فيقول بهذا الخصوص: "الحضور المغاربي في فرنسا يعود إلى زمن بعيد، وهو ما يجهله عدد كبير من الناس، وفي اعتقادي لا بد من أن يصبح وجود الإسلام أمرا جد عادٍ هنا، ذلك أن العمال المغاربيين حلوا بفرنسا منذ العشرينيات من القرن الماضي ، ومسجد باريس شيد سنة 1926، والمستشفى الفرنسي الإسلامي ببوبيني تم إنشاؤه في سنة 1935، والمقابر الإسلامية وجدت منذ سنة 1937، هناك إذن معركة حقيقية يجب خوضها من أجل أن يصبح الإسلام معطى عاديا جدا بفرنسا"[11].

وقد ساهم سوء الفهم و الإدراك الخاطئ في زيادة التوجس الفرنسي من الإسلام، و هو الشعور الذي بدأ يتزايد مع بروز مظاهر اعتبرت دليلا على تجدد و صحوة الشعور الديني لدى مسلمي



فرنسا في نهاية الثمانينيات، أين شرع المهاجرون المسلمون في بناء المساجد، و فتح محلات و قصابات بيع اللحم الحلال، و المطالبة بأراضي لتكون خاصة بمقابر المسلمين، فسيطر الشعور بالخوف من عودة الإسلام بين غالبية الشعب الفرنسي... كما ساهم في ذلك التوجس الفشل في إدراك الفروق الاجتماعية و الثقافية بين المسلمين، فالكثير من الفرنسيين ربطوا بين المظاهر الإسلامية المتزايدة محليا، و صعود الإسلام السياسي في العالم العربي و الإسلامي، فوضعوا المسلمين الفرنسيين المعتدلين في نفس المكانة مع الحركات الأصولية العنيفة[12].

وتجسد هذا الخوف المبالغ فيه من كل ما هو إسلامي في كثرة الاعتداءات و المضايقات التي أصبحت تتعرض لها الجالية الإسلامية و أماكن عبادتها و حتى مدافنها، من طرف جماعات متطرفة و عنصرية تعكس حالة الاضطراب و التوتر المسيطرة على المجتمع الفرنسي المنجرف شيئا فشيئا نحو "الإسلاموفوبيا" بكل ما تحمله من مخاطر، ففي تقرير "المركز الأوروبي حول العنصرية و كراهية الأجانب" (EUMC) التابع للإتحاد الأوروبي و المهتم برصد حالة العنصرية و كراهية الأجانب في دول الإتحاد، جاء التقرير السنوي الخاص بفرنسا و الذي وضعته "اللجنة الوطنية الاستشارية لحقوق الإنسان" (CNCDH) سنة 2005، ليبين العدد الكبير للاعتداءات على أساس عنصري و ديني التي تعرض لها المغاربة و المسلمون في بلد حقوق الإنسان سنة 2004، حيث بلغت 352 اعتداء منها 266 تهديد و عنف لفظي و 64 اعتداءات مادية أو جسدية عنيفة[13].

وهو ما يهدد السلم الاجتماعي في البلاد، لأن النظرة المتعالية و الاحتقارية للمسلمين و خاصة المهاجرين المغاربة منهم، كانت وراء أحداث الضواحي بعد خطاب وزير الداخلية الفرنسي آنذاك "نيكولا ساركوزي"، الذي استعمل فيه لفظ "الحثالة" لوصف شباب الضواحي المهاجرين، و موضوع الهجرة هنا لا يمكن فصله عن ظاهرة "الإسلاموفوبيا"، لأن الاعتقاد السائد في أوروبا أن حركة الهجرة هي السبب الرئيسي في توطن الإسلام في فرنسا.

فأحداث نوفمبر 2006 التي وقعت في مختلف الضواحي الباريسية و عمت حتى باقي التراب الفرنسي، أعادت النظر في صراع لم يتوقف أبدا، و أطلق من جديد الحوار حول الاندماج (L'intégration)... و أصبح تجديد تصاريح الإقامة مرتبط أكثر فأكثر بمدى الاندماج، و تم إصدار قانون في جويلية 2006 يوقف عمليات التسوية التلقائية للإقامة بمجرد مرور 10 سنوات

على التواجد فوق التراب الفرنسي، و في خطوة غير مسبوقة سارع "نيكولا ساركوزي" و بمجرد انتخابه رئيسا في 2007 إلى إنشاء وزارة لـ "الهجرة و الاندماج و الهوية الوطنية"، و هي خطوة مهمة في تطور سياسة الهجرة الفرنسية[14].

* **منع الحجاب و النقاب تتويج لظاهرة الإسلاموفوبيا:** لعل أكثر ما يبرهن على وقوف "الإسلاموفوبيا" المستشرية في المجتمع الفرنسي وراء فتح حوار حول الهوية الوطنية، هو ذلك التزامن بين بداية الحوار من جهة و مناقشة مشروع قانون منع النقاب من جهة أخرى.

فبعد أن تم سن قانون لمنع الحجاب في المؤسسات التعليمية الفرنسية باعتباره من الرموز الدينية، مع مرور مشروع القانون على المؤسسات التشريعية التي وافقت عليه، و إمضاء الرئيس الفرنسي الأسبق "جاك شيراك" على القرار في 15 مارس 2004، و دخوله حيز التنفيذ في 2 سبتمبر 2004 مع الدخول المدرسي الجديد، سيقت تبريرات عديدة للقانون، باعتباره لا يمس الحجاب فقط بل كل الرموز الدينية الأخرى سواء كانت مسيحية أو يهودية أو غيرها، و لكن أغلبية الملاحظين اعتبروه قانونا موجها نحو الحجاب الذي ترتديه الفتيات المسلمات في المدارس الفرنسية، و لذلك عرف في وسائل الإعلام الأجنبية باسم "قانون منع الحجاب"، و هو القانون الذي جاء بناء على توصية من لجنة تحقيق بقيادة "برنارد ستاسي" حول السبل الكفيلة بالتطبيق العملي لمبادئ العلمانية بأمر من الرئيس "جاك شيراك"، و إن كان الجدال قد تركز حول الحجاب فإن ذلك يعود لاعتباره من قبل اللجنة رمزا دينيا و منافيا لمبادئ العلمانية و للمساواة بين الذكور و الإناث، واعتباره من مظاهر القهر و التمييز ضد المرأة أو الفتاة المسلمة التي قد تدفع لارتدائه خارج إرادتها[15].

وهنا يبرز الإدراك السلبي للحجاب عند الغربيين، فكما يقول "غابريال مارونسي": "القضية الأساسية هنا ليست الحجاب في حد ذاته و دلالته الإسلامية، بل رمزيته و غايته المتخيلة من قبل الغربيين"[16].

وهذا الإدراك السلبي ليس وليد اليوم، فأول مواجهة لفرنسا العلمانية مع الحجاب كانت سنة 1989 فيما عرف منذ ذلك الحين بـ "قضية الخمار" (Scarf's affair)، أين رفضت فتاتان نزع خمارهما الذي يعبر عن هويتهما الإسلامية مما أدى إلى إقصائهما من إجراء امتحان الدخول للمدرسة العليا، فأعادت هذه القضية الصراع بين التصورين الإدراكيين للعلمانية، التصور الأول الذي يرفض أي إمكانية لارتداء الزي الإسلامي في المدارس، مما يتوافق مع النظرة المغلقة التي ترفض أي



مظاهر أو رموز دينية في المؤسسات العامة، و التصور الثاني الذي يدعو الجمهورية لعدم التخلي عن أبنائها إلا في حالة إتيانهم بما ينشر نفوذ الإسلام الراديكالي، و لكن في كلا الحالتين ظهور فتاتين باللباس الإسلامي اعتبر كعلامة على فشل نظام الاندماج الفرنسي، و هو الفشل الذي يمهد لإعادة أسلمة الضواحي(17).

منع الحجاب لم يكن إلا مقدمة لمنع النقاب في الأماكن العامة، و بغض النظر عن الجدل الفقهي حول مشروعية ارتداء النقاب من عدمها، فإن النظر إلى القضية من باب الحرية الشخصية يطرح إشكالا حول احترام الحريات الفردية في بلد الحريات، خاصة مع تزامن النقاش حول منعه مع بدء النقاش حول الهوية الوطنية.

فمن 8 جويلية إلى 26 جانفي 2010 جرت مداولات في إطار لجنة برلمانية مكونة من 32 نائبا بشأن فرض حظر على ارتداء النقاب أو البرقع في الأماكن العامة، فبالنسبة لمؤيدي الحظر الكامل لظهور النساء منقبات في الأماكن العامة، فإن هذا الأمر ضروري لحماية قيم الجمهورية، و المساواة بين الجنسين، و منع خطر انتشار الأصولية المضادة للقيم الفرنسية و المناهضة للبيض، أما بالنسبة لمعارضي القرار من المسلمين و المنظمات الحقوقية فارتداء النقاب قضية هامشية، و لكن اللجنة البرلمانية تعمل كأداة لصرف الفرنسيين عن مشاكلهم الحقيقية الاقتصادية و الاجتماعية و تشويه صورة المسلمين في فرنسا... خصوصا أن العمدة الشيوعي "أندريه جيرا" (André Gerin) المعروف بعدائه للمهاجرين المغاربة و الذي ترأس اللجنة البرلمانية المكلفة بدراسة الموضوع قد أعطى بعدا عنصريا و عدائيا للموضوع حين صرح قائلا: "هل يجب علينا أن ندع المجال لعقيدة التيار السلفي الأصولي الذي يقود صراعا ضد فرنسا و العنصر الأبيض"، يحدث هذا في الوقت الذي تفيد فيه تقديرات وزارة الداخلية الفرنسية أن عدد المنقبات لا يتجاوز الألفين، في حين أفادت تقديرات لأجهزة الاستخبارات أن عددهن لا يتجاوز 367 امرأة في كامل البلاد(18).

ونفهم هذه النقطة أكثر عندما نستظهر خطابات "ساركوزي" التي رفض فيها النقاب و قبل ذلك الحجاب مكرسا الكثير من تدخلاته الإعلامية لقدسية الجمهورية و قيمها، فكل الدلائل تشير إلى وجود حالة استنفار فرنسية ضد الرافد الثقافي الإسلامي، و محاولة إيقاف مؤشرات تغلغله في الهوية الوطنية الفرنسية، و هو تكتيك يتقاطع مع اليمين المتطرف، و يغذي مخاوف فرنسا من تعاظم الوجود الإسلامي فوق أراضيها، ويحفز دفاعها المستميت عن المسيحية من جهة و

العلمانية من جهة أخرى، رغم أن المظاهر الدينية التي يمارسها مسلمو فرنسا لا تتعد المجال الشخصي.

كما أن المتأمل في اقتراحات وزير الهجرة الفرنسي و التي قد تجد طريقها للتجسيد بعد نهاية النقاش حول الهوية، و المتمثلة في مشروع إنشاء عقد للاندماج الجمهوري يوقع عليه كل أجنبي يزور فرنسا أو يقيم فيها، إضافة إلى إخضاع منح الجنسية لشرط إتقان اللغة الفرنسية وهضم قيم الجمهورية والتمكن من أداء "المارسياز"، كل هذه الأفكار تنطلق من افتراض مفاده أن المسلمين في فرنسا هم خارج المتن الثقافي الفرنسي، وأن مصلحة فرنسا تكمن في إيقاف تيار هجرة المسلمين الذين تزايد عددهم أكثر مما ينبغي، وأصبحوا يشكلون عبئا سياسيا و اقتصاديا و ثقافيا على فرنسا، لذلك فإن إعلان فتح نقاش حول الهوية الوطنية يخفي في باطنه حيلة سياسية – أمنية للظفر بقوانين تتيح للسلطة حرية التصرف في النزيف الإسلامي داخلها، خصوصا أنه قبل سنوات قليلة أعلنت فرنسا أنها حولت وجهتها نحو هجرة النخب و المثقفين أي الهجرة الانتقائية التي تخدم مشروعها التنموي و الفرونكوفوني[19].

3-2 الخصوصية الفرنسية في مواجهة تيارات العولمة: وجد الكثير من المختصين صلة وصل بين الحوار الذي جرى حول الهوية في فرنسا و اشتداد تأثير تيارات العولمة على الخصوصية الثقافية و الهوياتية الفرنسية المهددة بفقدان مكانتها التاريخية كمركز تأثير ثقافي و تميز حضاري.

كان المؤرخ "إرنست رينان"، وهو أول من فكر في مسألة الهوية الوطنية في أعقاب هزيمة فرنسا في الحرب الفرنسية البروسية في العام1871، قد دافع عن الأمة باعتبارها "روحاً واحدة" مؤلفة من شقين: الشق الأول يتلخص في "الميراث الخصب من الذكريات" الذي يضرب بجذوره في الماضي، أما الشق الثاني الذي يرتبط بالحاضر وتمهيد الطريق إلى المستقبل، فإنه يتألف من الإرادة المشتركة من جانب المواطنين لبناء حياتهم المشتركة معاً، ولقد أعطى "رينان" أولوية كبرى لهذه الإرادة في الحياة المشتركة التي تسمو فوق أي تعريف عرقي وتضع الفكرة الفرنسية عن الأمة في تباين مباشر مع فكرة "أمة الشعب" التي تكاد تكون عنصرية، والتي هيمنت على التقاليد الألمانية.

واستناداً إلى وجهة النظر هذه فإن الهوية الوطنية تشكل "مفهوما روحانيا" يعتمد على التاريخ المشترك ومجموعة من القيم، وبعض هذه القيم راسخ في نوع من المسيحية العلمانية، وبعضها

الآخر في المعتقدات الثورية التنويرية المرتبطة بحقوق الإنسان و المساواة و اللغة الفرنسية و المدارس العلمانية، وفكرة مسؤولية الدولة عن المصالح المشتركة وتطبيق المبادئ الجمهورية.

وهذه النظرة إلى الهوية الوطنية التي تسمو على العرق واللون والأصل والدين هي التي أصبحت محلاً للنزاع الآن، وتتغذى أزمة الهوية التي تؤرق فرنسا الآن على اقتران وتزامن العديد من العوامل على رأسها، العولمة وما نتج عنها من شكوك، والإتحاد الأوروبي الذي يقلص من حريات الزعامات الوطنية، والهيمنة الإستراتيجية الأميركية التي أدت إلى تراجع الموقف الفرنسي في العالم، ونهوض القوى الآسيوية، وكل هذا يشكل تحدياً خطيراً للمفكرين الذين يستهزئون أحياناً بفكرة الأمة ذاتها، فيزعمون أننا نسكن الآن عالم "ما بعد القومية"، وهم يرون أن الهوية الوطنية لابد أن تُهجر لصالح الهوية الأوروبية، حتى لو لم يكن الشعور بالانتماء إلى أوروبا راسخاً بين شعوب الاتحاد الأوروبي[20].

ليس سؤال الهوية بالسؤال الجديد ضمن هواجس و انشغالات الفرنسيين، و لكنه يطرح اليوم ضمن سياق جديد و في ظل ضغوطات جديدة تمارسها العوامل البنيوية و النسقية التي يفرضها عصر العولمة، فحوار الهوية في فرنسا اليوم يرتبط إذا بكيفية تأثير العوامل البنيوية المرتبطة بسياق العولمة على تكييف سؤال الهوية كما يطرح في الساحة السياسية و الثقافية و الإعلامية اليوم.

فمن بين كل الدول الغربية المتطورة، تبدو فرنسا اليوم البلد الأكثر تأثرا وعلى نطاق واسع و غير مسبوق بالنتائج والانعكاسات العرضية للعولمة على المستوى الثقافي، وهي انعكاسات أشد وطأة على العقول والنفوس من تلك الحاصلة على المستويات الاقتصادية والمالية والتكنولوجية، إذ يجري في فرنسا اليوم بصورة عامة تمثل الديناميات الشمولية للعولمة كعوامل كاسحة، تخلخل وتهز بعنف ما ظل على امتداد عقود ممتدة وأجيال متلاحقة يرى كعناصر أساسية بل وتكوينية للهوية الفرنسية في مضامينها السياسية و الثقافية و الحضارية.

وقد لا حظ المتتبعون لأطوار المناقشات و السجالات بخصوص سؤال الهوية طابع الحدة الذي ميز طرح الإشكالات والأفكار والتحليلات والمواقف، كما وقفوا بالتأكيد على المستوى الذي كان يصله التهاب المشاعر كلما أثيرت على موائد الحوار قضايا تتصل بمفهوم الهوية في مجتمع ينحو بنيويا باتجاه التعدد الثقافي بكل تبعاته، بفعل معطيات موضوعية صنعتها تيارات الهجرة على مدى

زمني طويل، تعددية تسرع العولمة اليوم من وتيرتها ومن مداها، بصرف النظر عن الاختيارات المعلنة أو المرجعيات المذهبية للزعماء والقادة[21].

ويلخص الفيلسوف الكبير "مارسيل غوشي" حالة التخبط التي توجد فيها بلاده اليوم في رحلة بحثها عن هويتها وعدم قدرتها على استيعاب التغيرات الحاصلة، فيؤكد أن الخصوصية الفرنسية التي تتميز بقوتها تجد صعوبة اليوم في استيعاب نوع التغيير الذي تتطلبه العولمة كي تختصر عن نفسها المسافات، ففرنسا تشهد اليوم جمودا تاريخيا يشمل جميع المجالات، وإننا لا نبالغ على حد تعبير "مارسيل غوشي" إذا تحدثنا عن نوع من خيبة الأمل الجماعية، فالكثير من الناس لهم الانطباع بأنهم مسجونون داخل صيرورة معاكسة لاتجاههم بينما هم عاجزون على أن يفعلوا شيئا، علما بأن تلك الصيرورة تعني لهم الموت، أو أنها تعني موت ما هم متشبثون به سياسيا وثقافيا وحضاريا (الإرث التاريخي و الحضاري الفرنسي)... فقد داهم التطور العالمي الفرنسيين فأضحى كل ما يطلب منهم مناقضا لمكتسبهم التاريخي، و لم يعد بإمكانهم تأكيد نموذجهم التاريخي و السياسي[22].

مكمن الورطة التي تتخبط فيها الخصوصية الفرنسية في مواجهة العولمة، يتمثل في ذلك التناقض بين الرؤية التي يحملها الفرنسيين تاريخيا عن دور بلدهم كمركز أولي لبلورة قيم تتسم بالعالمية حسبهم (حقوق الإنسان و الحرية و العلمانية)، و بين اتجاه آخر مناقض تماما للتوجه الفرنسي أي اتجاه ديناميات العولمة التي ترفض كل إمكانية لتصور مركز واحد – مهما كانت له من عوامل النفوذ في الحاضر أو من عناصر الشرعية التاريخية في الماضي– له إمكانية تحديد المعايير و الأنماط و التوجهات، أي رفض فكرة المركزية الثقافية (و هي الفكرة التي طالما سعت الثقافة الفرنسية لمناقضتها و محاولة فرض نموذجها الثقافي و الدليل تاريخها الطويل في التعامل مع مستعمراتها حتى بعد استقلالها).

فإشكالية الهوية المطروحة في فرنسا اليوم هي انعكاس للتخوف من ضياع ما طبع الذاكرة الفرنسية منذ حوالي قرنين، أي موقع المركز العالمي الموجه على المستوى الثقافي، فتسارع وتيرة العولمة أصبح يهدد اليوم ثلاثة مبادئ موجهة للهوية الفرنسية، و هي الاندماج (في التعامل مع الهجرة) و العلمانية (في ضبط العلاقة بين ما هو ديني و ما هو دنيوي) و المرفق العام (في مجال تدبير الخدمة العامة)، في كل هذه المستويات يتعرض النموذج الفرنسي لضغوطات غير مسبوقة،



فمطلب الإندماج المفروض على المهاجرين خاصة غير الأوروبيين (من بينهم المسلمين) يفضي إلى إلغاء و تهميش حق الاختلاف، و اللائكية بالشكل الراديكالي المتشدد أبرزت مخاطر الانزلاق لخدمة دعاوى لا علاقة لها بالفصل بين الدين و الدولة، مثل قضية الحجاب (و بعدها النقاب)، و المرفق العام الذي يحيل إلى مفهوم معين للمساواة، دخل في تناقض مع مبدأ تكافؤ الفرص في مجتمعات متعددة التصنيف الاجتماعي كالمجتمعات الغربية[23].

الحوار حول الهوية الوطنية في فرنسا يمكن النظر إليه إذا كنوع من رد الفعل و الانكفاء على الذات وحول الهوية الثقافية وحول القومية الفرنسية أمام عولمة جارفة آتية على خصوصية الكيانات الوطنية، وتوضع القيم الإسلامية هنا في الاعتبار لدى الفرنسيين كعامل تهديد للخصوصية الفرنسية، لأن التخوف من أسلمة البلاد منتشر في فرنسا كما هو الحال في عموم أوروبا.

3-3 الاستغلال السياسي لحوار الهوية الوطنية: لم يخف على أحد الأهداف السياسية المتوخاة من فتح مثل هذا النقاش حول موضوع حساس بالنسبة للفرنسيين، فإثارة هذه القضية ترتبط بالإستراتيجية التقليدية لليمين الحاكم، الذي اعتاد التركيز على التخويف من المهاجرين لكسب أصوات أقصى اليمين على عتبة الانتخابات المحلية التي كانت مقررة في مارس 2010.

وفي السياق ذاته لفت "محمد حنيش" الأمين العام لإتحاد المنظمات المسلمة بشمال باريس، إلى أنه من الطبيعي أن يكون لهذا الجدل أهداف سياسية، خاصة أنه يأتي شهرا واحدا قبل الانتخابات الجهوية المقررة في مارس 2010، و تأتي هذه الانتخابات المرتقبة في الوقت الذي تواجه فيه حكومة "فرنسوا فيون" اليمينية مصاعب اقتصادية بسبب الأزمة المالية، فضلا عن الجدل الذي أثير بعد اعتزام الرئيس "ساركوزي" تعيين نجله على رأس أكبر مجمع اقتصادي في فرنسا، ثم عدل عن ذلك بسبب ضغوط المعارضة.

لهذا السبب أشار النائب المعارض عن حزب الخضر "نويل مامير" إلى أن: "فتح مثل هذا الحوار حول الهوية الوطنية هو عملية لتحويل الوجهة عن المشاكل الحقيقية التي يعاني منها الفرنسيون والمأزق الذي تعيش فيه الحكومة بسبب الأخطاء المتراكمة"، واعتبرت المعارضة الفرنسية بجميع تشكيلاتها أن الإعلان عن فتح مثل هذا الحوار "يراد منه جذب أصوات اليمين المتطرف استعدادا للانتخابات الجهوية القادمة"[24]



والواقع أن موضوع الهوية قد سيطر على الحياة السياسية الفرنسية، منذ أن فاجأت الحملة الانتخابية لرئاسيات 2007 المتتبعين بتربع قضية "الهوية الوطنية" على طليعة الحوار السياسي، بعد أن كانت القضايا الرئيسية في انتخابات 1995 تدور حول البطالة و التفاوت الاجتماعي، و العام 2002 كانت الأولوية للقضايا الأمنية، غير أن المرشحين الثلاثة في انتخابات 2007 ركزوا بشكل أو بآخر على موضوع الهوية، وبالأخص المرشح الذي كان أوفر حظا للفوز بالانتخابات "نيكولا ساركوزي"[(25)].

لقد قدم "ساركوزي" مقترح إنشاء وزارة للهجرة و الهوية الوطنية، كتتويج لمسيرته على رأس وزارة الداخلية أين أقر قانونا جديدا صارما للهجرة، كما تبنى سياسة أمنية محضة في تعامله مع الضواحي غاب فيها أي وجود للحوار، و يعود هذا إلى إيمانه بأن فرنسا ليست مجبرة على قبول هجرة مفروضة، بل من حقها اختيار من تريد استقبالهم، و إيمانه بأن الهجرة أصبحت تهدد الهوية الوطنية، مع تشويه اللغة الفرنسية في الضواحي حيث يستعمل المهاجرون المغاربة خصوصا لغة هجينة و بذيئة، إضافة لنمو التهديد الإرهابي و الخلايا الإسلامية بسبب الهجرة، و الحقد الدفين لدى المهاجرين المسلمين بالخصوص تجاه فرنسا، و هو ما عكسته أحداث الضواحي 2005، و التصفير على النشيد الوطني الفرنسي في مقابلة الجزائر و فرنسا... وهي الأحداث التي رأى فيها الكاتب الفرنسي "آلان فنكلكروت" عنصرية تجاه العنصر الأبيض في فرنسا، والعلمانية بدورها أصبحت مهددة من جراء الحضور المكثف للإسلام السياسي و لبعض التقاليد المنحدرة من الهجرة (الحجاب، النقاب، تعدد الزوجات و غيرها)... فالمتتبع للخطاب السياسي الفرنسي المؤكد على مفاهيم العلمانية و الجمهورية و حب فرنسا، يرى دائما ذلك الحديث عن الإسلام و المسلمين و عن صعوبة اندماجهم مع مبادئ الحداثة و العلمانية و مطالبة البعض بتغيير الإسلام، و كأن تغيير أي دين متوقف على قرار سياسي يتم اتخاذه[(26)].

"الإسلاموفوبيا" التي وجدت في التربة الفرنسية كل ظروف الاستقرار و التنامي، أصبحت مجالا للاستغلال السياسي خاصة من طرف اليمين المتطرف الذي يجد فيها استثمارا سياسيا حقيقيا، يضمن له أصوات المتوجسين من كل ما له علاقة بالإسلام و المسلمين و ما أكثرهم في فرنسا، فـ "جون ماري لوبان" زعيم الجبهة الوطنية الفرنسية، الذي وجد نفسه لأول مرة سنة 2002 منافسا في الدور الثاني للانتخابات الرئاسية الفرنسية، قدم نفسه في خطاباته الشعبوية و "سياسته



الإسلاموفوبية" (Islamophobic policy) باعتباره خط الدفاع الأخير ضد أسلمة فرنسا و أوروبا"[27].

<u>3-4 المأزق الفرنسي: البحث عن التجانس في مجتمع متعدد:</u> المجتمع الفرنسي مثله مثل أغلبية المجتمعات الغربية و نتيجة لعوامل تاريخية و ديموغرافية متعلقة بتيارات الهجرة بالخصوص، أصبح مجتمعا متعدد الأعراق و الثقافات و الأديان، و المفارقة أن هذه الخصوصية التعددية تتفاعل ضمن وأحيانا ضد خصوصية فرنسية معروفة تاريخيا وعالميا بقوتها وبرغبتها الدائمة في التميز والتفوق وفرض منظورها ونموذجها على الآخرين.

وحوار الهوية الذي تم في ربوع البلاد، عكس خطابا إقصائيا لا يتناسب أبدا مع مجتمع متعدد مثل فرنسا ورفع حدة التوتر إلى مستويات عليا، لأنه يضع المهاجرين أمام معادلة صعبة، أين تجد هذه الفئة الرئيسية في المجتمع الفرنسي نفسها حسب "برهان غليون" في مأزق صعب، فمثلا ما هو المطلوب من المسلمين حاملي الجنسية الفرنسية حتى يكونوا فرنسيين؟ وهل هناك درجات في المواطنة الفرنسية بحسب مستوى وقوة التماهي مع الثقافة الفرنسية وقيم الجمهورية؟ هل المطلوب أن يتجرد المتجنسون من أصول أجنبية من شخصيتهم الثقافية المعنوية والمظهرية وينحوا نحو الفرنسيين الأصليين في اعتقاداتهم وتصرفاتهم ولباسهم وأكلهم وشربهم حتى يحظوا بحماية الدولة وممارسة حقوقهم الأساسية؟ وما هي وضعية أولئك الفرنسيين الذين تركوا المسيحية ليعتنقوا الإسلام وهم فرنسيون بالأصل؟

ويواصل المفكر "برهان غليون" تشريح المأزق الفرنسي الحالي، قائلا: "ليست هناك هوية خاصة من دون ثقافة خاصة مهما كان وضع هذه الثقافة، وإذا تم ربط الهوية الفرنسية كليا بالثقافة الفرنسية الأصلية التي هي ثقافة الأغلبية، أو إذا كان شرط المواطنة الفرنسية تطابق الهوية الثقافية لجميع الأفراد مع الثقافة الفرنسية الموروثة... فمن المؤكد أن العرب والأفارقة لن يكونوا فرنسيين ولن يصبحوا فرنسيين، فهم ظلوا يحملون على مدى ثلاثة أجيال أو أكثر ثقافتهم العربية والإفريقية من حيث القيم والأذواق والمشاعر والاعتقادات الدينية، وربما سيستمرون لفترة طويلة غير راغبين في تقمص شخصية الفرنسيين وقيمهم الخاصة، في هذه الحالة يطرح سؤال أساسي: لماذا يضع القانون اعتناق الهوية الثقافية الفرنسية كشرط للحصول على الجنسية؟"[28].



والآن تطفو إلى السطح في فرنسا مشكلة الارتباط بين الهوية الوطنية والتعددية الثقافية، على نحو يكاد يكون متماثلاً في المملكة المتحدة وهولندا و الدنمارك وهي البلدان التي اختارت سياسة التعددية الثقافية منذ أمد بعيد، و على النقيض من فرنسا ففي الولايات المتحدة الدولة التي تشتمل على جاليات ضخمة من المهاجرين، نجد أن المجتمعات قادرة على صياغة هوية ثقافية قوية وحس وطني راسخ عميق وكانت هذه هي الحال في فرنسا التي شيدت بفضل موجات متعاقبة من الهجرة، إلا أن التكامل في فرنسا على النقيض من الولايات المتحدة لا يقوم على **الاستيعاب** بل على الرغبة في تعزيز **التجانس** حيث تتوحد الأمة في كيان واحد لا يتجزأ، اليوم وفي هذا العالم الذي تغير بفعل العولمة، تواجه فرنسا ذلك التحدي العصيب المفروض عليها من قبل المهاجرين الجدد، والذي يتلخص في صيانة المبادئ التي تشكل صميم الهوية الفرنسية من جهة، وفي نفس الوقت تلبية رغبة بعض مواطنيها الجدد في الاحتفاظ بهويتهم الخاصة والتي قد تتعارض في بعض الأحيان مع هذه المبادئ، إن الحوار القائم اليوم بشأن الهوية الوطنية ينبع في الأساس من هذا التوتر [29].

والاتجاه العام في فرنسا خاصة من قبل اليمين نحو إقصاء الآخر لاسيما المسلمين و التضييق على الدين الإسلامي بالخصوص و نشر هوس "الإسلاموفوبيا" بين الأجيال المتلاحقة، لا يخدم الوحدة الوطنية وتعزيز روح الانتماء للأمة الفرنسية الذي قام الحوار من أجله حسب الخطاب الرسمي و الذي كشف الواقع عكسه تماما، لأنه لا يمكن انتظار مطابقة كلية بين ثقافات الأقلية و ثقافة الأغلبية لأن مثل هذه المطابقة تعني فعليا محو الشخصية الجماعية و محو الأقلية كأقلية دينية وإثنية.

و هذا ما تهدف إليه الحملة الفرنسية باسم الهوية الوطنية، لذلك فبدل أن تقصر فترة التوتر وتسرّع الاندماج، فهي تهدد بتفجير نزاعات لا ضرورة لها، إنها تهيج مشاعر اليمين المتطرف الذي يحلم بإرجاع التاريخ إلى الوراء وتصفية الأقليات وطردها، وهذا هو مغزى تساؤل رئيس بلدية فرنسية : لماذا نأوي عشرة ملايين شخص لا يفيدون في شيء؟

ولن يقدم شحن مشاعر الكراهية وتعميق روح العنصرية أي فرصة لتوحيد الأمة الفرنسية ولا لترسيخ هويتها الوطنية، بقدر ما يقوض أخلاقيات شعوب أوروبية هي صاحبة الفضل الأول في التاريخ المعاصر في نشر أفكار الحرية وحكم القانون والمساواة السياسية والأخلاقية والقانونية بين



جميع المواطنين، فهوية فرنسا الوطنية كبقية الأمم والشعوب ليست محفورة في جينات الفرنسيين، لكنها ما يصنعه التاريخ ويحوره عبر التفاعلات الكثيرة على مستوى انتقال البشر والأفكار والأذواق والسلع والخدمات... و الذين يريدون بقاءها جامدة يحكمون على فرنسا بالموت و بخيانة قيمها الجمهورية التي يدافعون عنها[30].

الخاتمة: إسلاموفوبيا آخذة في التغلغل في أعماق الفرنسيين، و حوار حول الهوية الوطنية بعد كل هذا الزمن، و عجز عن ضمان التجانس المنشود في مجتمع فسيفسائي، و يمين متطرف صاعد، و تشتت بين الخصوصية المحلية و الانتماء الأوروبي و العولمة، هذه كلها سمات مجتمع فرنسي يعيد البحث عن هويته من جديد، بعد أن أصبح الإسلام الدين الثاني فيه، و تحول إلى مكون أساسي في ثقافة و أسلوب حياة قسم كبير من مواطنيه سواء كانوا فرنسيا في الأصل أو من أصول غير فرنسية.

بلد الحريات و حقوق الإنسان يعيش اليوم مفترقا تاريخيا حاسما، فإما إيجاد التوليفة القادرة على ضمان استيعاب الوجود الإسلامي و جعل الإسلام أمرا جد عاد في المجتمع الفرنسي على حد قول "بنجامين سطورا"، و الاعتراف بحق المسلمين في الحفاظ على هويتهم و تميزهم الحضاري مع احترام قيم المجتمع الذين يعيشون فيه، و القدرة على خلق روح الفخر بالانتماء للأمة الفرنسية في نفوسهم، و هو ما يتحقق بسياسة حكيمة لاستيعابهم و ليس فرض التجانس عليهم مع قيم علمانية كاثوليكية غريبة عنهم أو تهميشهم كليا في الضواحي الفقيرة، مع أن المسلمين أيضا مطالبين بالتفاعل الإيجابي مع المجتمع الذي يأويهم، وتقديم صورة حسنة عن الإسلام و الأخلاق الإسلامية القادرة على التكيف مع الحداثة دون فقدان خصوصيتها.

و في حال الفشل في الوصول إلى هذه التوليفة، فالمنظور اليميني السائد حاليا القائم على سياسة فرض التجانس و فرض القيم الفرنسية سيكون هو المنتصر، وهو ما لن يخدم فرنسا و سيشوه صورتها التاريخية، لأن سياسات الضغط والإكراه ونشر الكراهية تجاه الإسلام و المسلمين المتبعة حاليا لن تساعد على الاندماج و لا على تقريب الأقليات و خاصة المسلمة منها مع الأغلبية الفرنسية التي تمارس هذه السياسة، و لا علاج لانعزال الأقليات سوى تطمينها على حقوقها ووجودها واحترام شخصيتها واعتقاداتها، ومساعدتها على الاندماج في الحياة الوطنية، بما يعنيه ذلك من فرص مفتوحة لارتقاء أفرادها في السلم الاجتماعي ومن مشاركة متزايدة في المسؤوليات

العمومية، و احترام خصوصيتها و نشر قيم التسامح بدلا من تبني "سياسات إسلاموفوبية" كتلك التي يتبناها اليمين المتطرف، والتي راح حوار الهوية الوطنية ضحية لها وأصبح معبرا عن النهج ألإقصائي والعنصري تجاه الإسلام والمسلمين بالدرجة الأولى.

الهوامش:

1- Jocelyne Cesari, "**Islam in France: The shaping of a religious minority**", in: Yvonne Haddad-Yazbek (ed), Muslims in the west, from sojourners to citizen, Oxford university press, 2002, p. 36.
2- Gabriel Marrancie, **"Multicultularism, islam and the clash of civilizations theory: rethinking Islamophobia"**, culture and relegion: vol. 5, N° 1, 2004, p.p. 105,106.
3- Jocelyne Cesari, Op.Cit, p. 36.
4- Gabriel Marrancie, Op.Cit, p. 106.
5- Jocelyne Cesari, Op.Cit, p.p. 36,37.
6- عادل قسطل، "**المد الإسلامي في فرنسا بين التحجيم و التنظيم**"، عن موقع الجزيرة نت، بتاريخ 2004/10/3، في:
http://aljazeera.net/NR/exeres/AC4ABB43-2DA4-4288-B684-".
"CBEBB6CFCFCC.htm?wbc_purpose=%2f
7- هادي يحمد، "**فرنسا تبحث عن هويتها الوطنية**"، عن موقع إسلام أون لاين، بتاريخ 28 أكتوبر 2009، في:
http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&cid=1256034053250&pagen
."ame=Zone-Arabic-News%2FNWALayout
8- فرانك رينوت، "**النقاش الفرنسي حول الهوية ... نغمة ناشزة**"، تقرير إذاعة هولندا الدولية، بتاريخ 10 فيفري 2010، في: "http://www.rnw.nl/arabic/article/59861"
9- هادي يحمد، "**حوار عن هوية فرنسا أم هوية مسلميها؟**"، عن موقع إسلام أون لاين، بتاريخ 14 ديسمبر 2009، في:
"http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&pagename=Zone-Arabic-
News/NWALayout&cid=1260257947058#ixzz13GdY2bjF".
10- محمد كشت، "**سؤال الهوية من الفلسفي إلى السياسي**"، 10 جانفي 2010، في:
"http://www.awsatnews.net/?p=19931
11- بنجمان سطورا، "من النقاش حول مكانة الهوية الفرنسية إلى الحديث عن مكانة الإسلام بفرنسا"، جريدة الإتحاد الاشتراكي المغربية، 2010/01/26، في:
http://www.maghress.com/alhoudoude/327;jsessionid=F82E4D016CE3C545529BF6B
"662A479
12- Jocelyne Cesari, Op.Cit, p. 37.
13- Muslims in the European Union: Discrimination and Islamophobia, Annual report of The EUMC 2006, Austria: Printer MANZ CROSSMEDIA GmbH & Co KG, p. 73.



14- Catherine Wihtol de Wenden, Julie E. Bourgoint et Elisabetta Salvioni, **Mesurer l'intégration: le cas de France**. Rapport final, Sciences-po CERI, Paris, mars 2008, p. 26. **15- "French law on secularity and conspicuous religious symbols in schools"**, From Wikipedia, the free Encyclopedia, January 2009, available in:"http://en.wikipedia.org/wiki/French_law_on_secularity_and_conspicuous_religious_symbols_in_schools".

16- Gabriel Marrancie, Op.Cit, p. 111.

17- Camille FROIDEVAUX-METTERIE, "The Ambiguous Position of French Muslim Women: between republican integration and religious claims", University Pantheon-Assas Paris II, 2010, available in: "www.psa.ac.uk/journals/pdf/5/2010/1353_1271.pdf".

18- "The background to the French parliamentary commission on the Burqa and Niqab", Briefing paper N°. 3, April 2010. P. 1.

19- آمال موسى، "إنقلاب أبيض في فرنسا" صحيفة الشرق الأوسط، عدد 11319، 24 نوفمبر 2009.

20- رافائيل هاداس، "فرنسا و سياسات الهوية"، صحيفة الوقت البحرينية، عدد 422، 18 أفريل 2007.

21- عبد الرحمان العمراني، "نقاش الهوية في فرنسا بين إرث النزعة العالمية و ضغط العولمة"، جريدة الإتحاد الإشتراكي المغربية، 2010/6/1، في:

".http://ailmaroc.net/def.asp?codelangue=29&id_info=109046&date_ar=2010-6-2"

22- مارسيل غوشي، "**أزمة الهوية و الوعي الجماعي في الغرب: النموذج الفرنسي**"، ترجمة: سعيد الشطبي، جريدة الأحداث المغربية، 12 مارس 2006، نقلا عن صحيفة ليبريسيون الفرنسية، في:

http://www.imezran.org/mountada/viewtopic.php?f=22&t=712"

23- عبد الرحمان العمراني، مرجع سابق.

24- هادي يحمد، "فرنسا تبحث عن هويتها الوطنية"، مرجع سابق.

25- رافاييل هاداس، مرجع سابق.

26- عادل لطيفي، "الهجرة و الإسلام و الهوية الوطنية في الانتخابات الفرنسية"، عن موقع الجزير نت، بتاريخ 2007/1/12، في: https://goo.gl/1619BM

27- Gabriel Marrancie, Op.Cit, p. 112 .

28- برهان غليون، "**هوية فرنسا: الاستثمار الانتخابي لليمين**"، عن موقع الجزيرة نت، بتاريخ 16 ديسمبر 2009، في: "http://www.alittihad.ae/wajhatdetails.php?id=4970"

29- رافاييل هاداس، مرجع سابق.

30- برهان غليون مرجع سابق.



قضية الحجاب في فرنسا بين حماية العلمانية وتقنين الإسلاموفوبيا

د. بلخير آسيا
- جامعة قالمة - الجزائر

تقديم:

يعتبر مصطلح "الإسلاموفوبيا" "L'islamophobie " من المصطلحات حديثة التداول نسبياً في الفضاء المعرفي المعني بصورة خاصة بعلاقة الإسلام بالغرب. وقد تم نحت المصطلح الذي استعير في جزء منه من علم الاضطرابات النفسية للتعبير عن ظاهرة " الرهاب" أو "الخوف المرضي" من الإسلام. وهي في الواقع ظاهرة قديمة متجددة، قديمة قدم الدين الإسلامي نفسه، وإن كانت قد تصاعدت حدتها في عالم اليوم، وخاصة في دول الغرب بعد التفجيرات الشهيرة التي شهدتها الولايات المتحدة الأمريكية في الحادي عشر من سبتمبر 2001.

وربما كان من الممكن القول إن تلك الظاهرة تضرب بجذورها عميقاً في تاريخ قديم حافل بمسلسل طويل من العلاقات المضطربة بين الغرب و الإسلام، استقر فيه هذا الأخير في الذهنية الغربية بوصفه تعبيراً عن خطر داهم محدق يتهدد كل ما هو غربي، ربما انطلاقاً من الاقتران المتكرر الذي يمكن ملاحظته في مسيرة التاريخ، الذي يوحي وكأن هناك نوعاً من العلاقة الحتمية بين صعود نجم الحضارة الإسلامية وانحدار نظيرتها الغربية.

وقد تجلت ظاهرة الإسلاموفوبيا في مظاهر عديدة عكست الممارسات العنصرية ضد المسلمين، خصوصا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، التي أتبعها ما سمي "بالحرب على الإرهاب"، والتي رآها البعض حربا على الإسلام و المسلمين باسم الإرهاب، مستهدفة بالدرجة الأولى الجالية المسلمة في الدول الغربية التي لجأت إليها بغية إيجاد الأمن و الاستقرار منجذبة لشعارات الحرية و المساواة إلا أنها اصطدمت بواقع مغاير ينظر إليها على أنها مصدر تهديد لوحدة الدولة و أمنها.

ولعل ما عانته الجاليات المسلمة في أوربا مع مطلع القرن الحالي، يدرجه بعض الباحثين في إطار صدام الحضارات، و إن كانت قد أخذت أشكالا و أبعادا عديدة، كقضية الإساءة للرسول– صلى الله عليه و سلم– في الدنمارك، منع المآذن في سويسرا، و قضية حظر الحجاب في ألمانيا، تركيا، فرنسا،...الخ



لهذا ارتأينا أن تبحث هذه الورقة في مظهر من مظاهر الإسلاموفوبيا، ألا و هو قضية حظر الحجاب في فرنسا، والتي سنفصل فيها على النحو التالي:

أولا : الجذور التاريخية و الدينية للحجاب : الحجاب ليس حصرا على الإسلام

1/ تعريف الحجاب:

الحجاب لغة يدل على: السَّتر والحيلولة و المنع .

الحجاب شرعًا: هو ستر المرأة جميع بدنها وزينتها، بما يمنع الأجانب عنها من رؤية شيء من بدنها أو زينتها التي تتزين بها، ويكون استتارها باللباس وبالبيوت.

أما ستر البدن: فيشمل جَميعه، ومنه الوجه والكفان، كما سيأتي التدليل عليه في المسألة الثالثة إن شاء الله تعالى.

وأما ستر زينتها : فهو ستر ما تتزين به المرأة، إلا الاستثناء في قول الله تعالى: {إلا ما ظهر منها} [النور: 31]. أي: اضطرارًا لا اختيارًا.

أي بمعنى لا يستلزم النظر إليها رؤية شيء من بدنها، احترازًا من الزينة التي تتزين بها المرأة، ويلزم منها رؤية شيء من بدنها، مثل: الكحل في العين، فإنه يتضمن رؤية الوجه أو بعضه، وكالخضاب والخاتم، فإن رؤيتهما تستلزم رؤية اليد، وكالقُرط والقِلادة والسُّوار، فإن رؤيتها تستلزم رؤية محله من البدن، كما لا يخفى.

ويدل على أن معنى الزينة في الآية: الزينة المكتسبة لا بعض أجزاء البدن أمران:

الأول: أن هذا هو معنى الزينة في لسان العرب.

الثاني: أن لفظ الزينة في القرآن الكريم، يراد به الزينة الخارجة، أي المكتسبة، ولا يراد بها بعض أجزاء ذلك الأصل، فيكون معنى الزينة في آية سورة النور هذه على الجادة، إضافة إلى تفسير الزينة بالمكتسبة لا يلزم منها رؤية شيء من البدن المزين بها، أنه هو الذي به يتحقق مقصد الشرع من فرض الحجاب من الستر والعفاف والحياء وغض البصر، وحفظ الفرج، وطهارة قلوب الرجال والنساء، ويقطع الأطماع في المرأة، وهو أبعد عن الرِّيبة وأسباب الفساد والفتنة ما ستر البدن: فيشمل جَميعه، ومنه الوجه والكفان، كما سيأتي التدليل عليه في المسألة الثالثة إن شاء الله تعالى.(1)

و من الأدلة الشرعية على وجوب لبس الحجاب في القران الكريم ما جاء في قوله تعالى:



"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ المُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ" (الأحزاب 59)

وقال تعالى في سورة النور : (وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ) (النور 31) .

و أيضا : " يا أيها الذي آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلي طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا و لا مستأنسين لحديث إن ذلك كان يؤذي النبي فيستحي منكم و الله لا يستحي من الحق و إذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء الحجاب ذلكم اطهر لقلوبكم و قلوبهن و ما كان لكم أن تؤذوا رسول الله و لا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما "(الأحزاب 33-53) [(2)]

وقول النبي صلى الله عليه وسلم : " يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا . وأشار إلى وجهه وكفيه " رواه أبو داود

و كل ذلك دليل على أن المرأة المسلمة عليها أن ترتدي ملابس تغطي منطقة الصدر وأن ملابسها يجب أن تكون طويلة حتى القدمين، وذلك لأنه بعد آية إدناء الجلابيب التي لم يكن واضحا فيها حد الإدناء، نفهم من جزء (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) أن حد الإدناء يصل حتى القدمين، لأن زينة القدمين هي الخلخال ويوضع على الكاحل، أما الذراعين فلم يأت القرآن على ذكرها وكذلك الرأس أو الشعر.[(3)]

2/الحجاب في الحضارات القديمة:

لقد عرفت الأمم السالفة من الحضارات القديمة ظاهرة التحجب لما فرضته عليها عاداتها و طقوسها و طبيعة مناطقها. و لقد كان الآشوريون من أقدم الشعوب التي أخضعت نساءها للحجاب ،و هذا ما أكدته الدراسات حول هذه الحضارة حيث كانت الجارية إذا خرجت مع سيدها وجب عليها الحجاب ،و إذا أراد الرجل الزواج يحضر أصدقائه و يعلن أمامه أن هذه المرأة أصبحت زوجته و يتم حجابها، كما أكدت العديد من الحفريات التي تم إيجادها في آشور القديمة و التي كانت ترمز إلى حجاب المرأة و تحكي عن فرض قوانين ضد النساء اللواتي لا يرتدين الحجاب.

أما في العهد اليوناني فقد كان من عادة النساء اليونانيات القدامى أن يحجبن وجوههن بطرف مآزرهن أو بحجاب خاص،حيث يروي أن "بنيلوب" امرأة الملك "عويس" ملك جزيرة "ايتاك" كانت تظهر محتجبة و كانت الفينيقيات يحتجبن بحجاب أحمر،كما جاء في وصف حجاب المرأة



اليونانية أنه له ثقبان أمام العينين لتنظر منهما المرأة، و كانت نساء "ثيب" يحتجبن بحجاب خاص و هو عبارة عن غطاء يوضع على الوجه، كما دلت النقوش على أن النساء كن يغطين رؤوسهن و يكشفن وجوههن فقط،على خلاف امرأة "اسبرطة" التي كانت تظهر سافرة بسبب احتكاكها بالحياة العامة إلا أنها بمجرد أن تتزوج تتحجب، كما كانت الفتاة لا تغادر منزلها حتى يتم زفافها ، و لا ترى الزوجة وجه زوجها إلا ليلة الزفاف، كما كانت تختفي الزوجة من المنزل إذا دخل صديق زوجها،و كان حجاب المرأة اليونانية حجاب كامل لا يظهر منه إلا سوى العين، إلا انه ما لبثت المرأة اليونانية حتى خلعت حجابها بحجة حرية المرأة.

أما في العصر الروماني الذي يعتبر عصر المكاسب للمرأة، نظرا لما أعطاه من سلطة اختيار و تملك و ولاية للمرأة، إلا أن الحجاب كان معروفا في هذا العصر حيث كان نسائهن يرتدين خمارا يغطي الشعر و يخفين وجوههن، و استمر ذلك إلى غاية القرن 18 ميلادي حيث أخذت المرأة تخفف من التزاماتها بالحجاب إلى غاية نزعه. (4)

3/الحجاب في الديانات السماوية:

– **الحجاب في الدين اليهودي:** لقد احتل الحجاب جانبا كبيرا في الفكر اليهودي، و ذلك بإرجاعه إلى الجوهر النفسي للإنسان حيث قال علماء اليهود: " قال الله منذ اليوم الذي بنى فيه المعبد: الحشمة هي أمر مناسب"، حيث جاء في الشريعة اليهودية العديد من النصوص حول شكل و وجوب الحجاب فجاء في التوراة:" يحظر على المرأة ارتداء ثياب الرجل، كما يحظر على الرجل ارتداء ثياب النساء، لأن كل من يفعل ذلك يصبح مكروها لدى الرب إلهكم" كما جاء في سرد قصة سيدنا "آدم " و"حواء": "و كسا الرب الإله آدم و زوجته رداءين من جلد صنعه لهما" و دليل ذلك على الكسوة لما للإنسان من عورة واجبة الستر ،كما يستعمل اليهود كلمة " تصنيعوت" بمعنى "عفة"، وهي تدل على مجموع الأحكام الشرعية المتعلقة باللباس اليهودي الشرعي. كما كانت المرأة اليهودية المتزوجة تدان بالفساد الأخلاقي إذا كشفت مما جرت العادة على تغطيته لدرجة اعتبر كشف شبر من جسدها عملا إباحيا بمثابة الزنى ، ومن أدلة ذلك ما جاء في "سفر التكوين": فَنَزَعَت عَنهَا ثياب ترملها و تبرقعت و تلفعت ....لأنها كانت محجبة ..ثم قامت ومضت وخلعت برقعها وارتدت ثياب ترملها" كما جاء في رسالة "بولس" الأولى إلى "تيماوس" ما يلي:

" أريد أن تظهر النساء بمظهر لائق محشوم اللباس، متزينات بالحياء والرزانة، غير متحليات بالجدائل والذهب واللآلئ والحللِ الغالية الثمن بل بما يليق بنساء يعترفن علناً بأنهن يعشن في تقوى الله بالأعمال الصالحة !على المرأة أن تتلقى التعليم بسكوت وبكل خضوع ولست أسمح للمرأة أن تُعلمَ ولا تتسلط على الرجل .بل عليها أن تلزم السكوت ."

كما جاء في "رسالة بطرس الأولى " :

"وعلى المرأة ألا تعتمد الزينة الخارجية لإظهار جمالها بضفر الشعر والتحلي بالذهب ولبس الثياب الفاخرة وإنما لتعتمد الزينة الداخلية ليكون قلبها مزيناً بروح الوداعة والهدوء هذه الزينة التي لا تفنى ...وهي غالية الثمن في نظر الله !و بها كانت تتزين النساء التقيات قديماً" [5].

و من خلال ما سبق نجد أن الحجاب كان فريضة ربانية في الدين اليهودي، و خير دليل على ذلك هو لباس الراهبات الآن في الأديرة و الكنائس.

– **الحجاب في الدين المسيحي:** سار الدين المسيحي هو الآخر على خطى تعاليم الدين اليهودي ،حيث قيل عن لباس النصارى الأوائل أن الرجال كانوا يظهرون في الأماكن العامة برأس مكشوف ،و النساء كن يرتدين الحجاب ،كما ورد في الموسوعة البريطانية الالكترونية 2008 أن نساء أوربا في القرن 12 إلى غاية القرن 14 قد ارتدين خمارا يغطي و يلتف حول الرقبة و الخدين و الذقن، متأثرات بالمسلمات، كما جاء في النصوص التي تجل بالنموذج الشكلي لهيئة المرأة النصرانية(التقية) أنه المرأة قد منعت من كل زينة خارجية لإظهار الجمال، ظفر الشعر، الحلي الذهبي، الثياب الفاخرة، مؤكدة على حرمة تجمل المرأة أمام الرجال، فجاء في الدسقولية :" إن أردت أن تكوني مؤمنة و مرضية لله فلا تتزيني لكي ترضي رجالا غرباء" وأيضا "لا تشتهي لبس المقانع و الثياب الخفيفة التي لا تليق إلا بالزانيات..."و كذا" لا تزوقي وجهك الذي خلقه الله، فليس فيه شيء ينقص الزينة، لان كل ما خلقه الله فهو حسن جدا، و لا يحتاج إلى زينة، و ما زيد على الحسن فإنه يغير نعمة الخالق".[6]

و استمرت الدعوة إلى عفة المرأة و تحجبها من طرف آباء الكنيسة إلى غاية دعوة العلمانيين لفصل الكنيسة و الدين عن الحياة العامة و تزايد المناداة بحرية المرأة التي أفقدتها رمز عزتها.

وعليه فالحجاب في تاريخ المسيحية كان فريضة جاء بتأثير تمازج المسيحية و اليهودية، و لا تزال الكنائس لغاية اليوم تتمسك بالحجاب من خلال زي الراهبات ،و إن كان قد أصبح رمزا دينيا و



ليس فرضا دينيا ،و إن كان في القديم الحجاب هو خطوة نحو ارتقاء أعمق مع الله و مع الإنسانية ،كما لا تزال بعض الفرق النصرانية اليوم كالمينونيت* و الآمش** تحافظ على أمر ارتداء غطاء الرأس بأمر من رؤساء الكنائس على دعوى أن غطاء الرأس هو رمز خضوع المرأة للرجل و الرب.

– **الحجاب في الإسلام:** لقد اعتبر العرب الجاهلية الحجاب من السنن المحببة، فأخذ الحجاب عندهم صورا متعددة فمنها القناع، الخمار، البرقع، النقاب، الجلباب، العباءة، الدرع، الملحفة، الهودج و هو محمل المرأة، فكان من نساءهن من يلبسن الحجاب و يسترن بعض جسدهن عدا الصدر، و العنق و تزينهن بالحلي، و من هن يسترن كامل جسدهن لكنهن يجلسن مجالس الرجال، و منهن من يتركن شعورهن عارية، و أخريات لا يسترن إلا قليلا من أبدانهن، لذا جاء في قوله تعالى:" و قرن في بيوتكن و لا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى".

وعندما جاء الإسلام كآخر الرسالات السماوية، اوجب و فرض أيضا الحجاب على المرأة و جعل له حدا و حرم عليها التبرج و أباح لها الخروج من المنزل شريطة المحافظة على الحجاب ،و من أدلة وجوب الحجاب في القرآن الكريم و هي كثيرة منها: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ". وكذا قال تعالى: "وَ لَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ". وكذا قال تعالى: "وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى". وكذا قال تعالى: "وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ" و ما هذه الآيات إلا تأكيدا على فرض الحياء شرعا و عرفا و ضرورة احتشام المرأة. [(7)]

و من خلال ما سبق ،يمكن القول أن الحجاب الذي قدسه الإسلام و الذي أثارت الدراسات الاستشراقية عليه الحرب كان موجودا و لازما لكل امرأة و حتى الرجال في بعض المناطق لما فرضته عليهم قسوة الطبيعة، فوجود الحجاب قبل الإسلام كان بحكم الحاجة و من أساسيات الشخصية البشرية في كل زمان و مكان لتأتي الشرائع السماوية لتؤكد على ضرورة ستر المرأة و عدم تبرجها في اليهودية و النصرانية إلا أنه و نتيجة انحلال المجتمعات الغربية و ابتعادها عن

الدين تحت شعار العلمانية أصبح الحجاب رمزا و ليس فرضا ليأتي الإسلام بالحكم الشرعي للحجاب ليؤكد شرعيته و وجوبه لما فيه من حماية للمرأة و حفاظا على كرامتها.

ثانيا: موقف فرنسا من الحجاب: قانون حظر الرموز الدينية

- **جذور قضية حظر الحجاب في فرنسا:**

تعود قضية الحجاب في فرنسا إلى تاريخ 18سبتمبر1989 عندما أصرت ثلاث طالبات مغربيات على ارتداء الحجاب و الدخول به إلى معهد "كابريال هافار" بمنطقة "كخاي" بضواحي باريس، إلا أنهن لاقين الطرد من قبل مدير المعهد، لتثأر على إثرها حملة إعلامية ضخمة و جدل واسع على المستوى الحكومي و السياسي و الشعبي داخل و خارج فرنسا حول قضية الحجاب بين من يرى أن ارتداءه يدخل في إطار الحريات الشخصية، و بين معارض يرى أن ارتدائه يهدد علمانية فرنسا، لكن استطاع اليسار الفرنسي آنذاك من إقناع باقي الجهات بإدماج المحجبات في المجتمع الفرنسي، بينما رفض اليمين الفرنسي ذلك دفاعا عن علمانية فرنسا، حيث بلغ على إثرها حوالي 400 مشكلة حول الحجاب.

و استمر الوضع على حاله، إلى أن أعلن الرئيس الفرنسي السابق "جاك شيراك" على اثر زيارته لمدرسة فرنسية في تونس في إطار أشغال قمة5+5 بتاريخ 17 ديسمبر 2003 حظره للحجاب قائلا: "إنني أرى عدوانية في ارتداء الحجاب ،ليعلن بعدها بأيام قلائل "إن الحجاب رمز ديني لافت لابد من حظره في المدارس و الدوائر الحكومية حماية للعلمانية"، لتتشكل لجنة "برنار ستازي" التي تكونت من 20عضو من كبار الساسة و القانونيين و الشخصيات الثقافية الفرنسية لمراقبة تطبيق العلمانية لتطرح قانون يمنع الرموز الدينية في المدارس و الإدارات الحكومية و على رأسها الحجاب، الصليب، القبعة اليهودية، ليعرض على البرلمان الفرنسي الذي صوت عليه بالأغلبية مؤكدا على فرض عقوبات لكل من يخالفه، ليصدر القانون في شكله النهائي بتاريخ 15 مارس 2004.[8]

- **مبررات فرنسا حول قانون حظر الرموز الدينية:**

لقد بررت فرنسا سبب اعتمادها لهذا الإجراء بما يلي:

- إن الدليل الأساسي الذي استندت إليه فرنسا هو مبدأ العلمانية الذي قررته في دستورها سنة1946 و دستور1958 باعتباره ركيزة الديمقراطية و النظام السياسي الفرنسي، و الذي تبلورت



أبعاده منذ سنة 1905 مستهدفة الفصل بين المؤسسات العامة (المدارس و الإدارات الحكومية) و بين الدين بكافة مظاهره حيث جرت على اثر ذلك معركة مع الكنيسة الكاثوليكية تخللتها الكثير من المصادمات الفكرية و السياسية، ففرنسا ترى في المدرسة المنبت الأول للمجتمع العلماني، باعتبار أن المدارس لا دينية و لكنها تقدم تاريخ الأديان في شكل عام، و لا تتبنى أي كتاب سماوي و لا تناصر أي نبي، و هي غير معنية بتقديم إجابات عن وجود الله، لكنها معنية بتقديم المعرفة التي تجعل التلميذ أو الطالب مؤهل لان يختار عقيدته و طريقة حياته، و إن كانت العلمانية تقر بحرية الاعتقاد و حرية ممارسة العبادات، فالذي يدفع بفرنسا–بلد الحرية–إلى تجاوز هذا المبدأ.

– إن فرنسا ترى في وجود الرموز الدينية بالمؤسسات العامة عودة للخلط بين الدين و الدولة، و دمج المدرسة– التي هي منبت العلمانية– بالكنيسة، وهو ما يتناقض مع المبدأ العلماني للجمهورية الفرنسية القائم سياسيا على فصل الدين عن السياسة، وفلسفيا على فصل المعرفة(المدرسة) عن الإيمان(الكنيسة)و منه، فهي ترى في عودة الرموز الدينية للمؤسسات العامة تهديدا لبداية سيطرة الدين على السياسة وهو ما لا يمكن أن تسمح به فرنسا.

– جاء في قرار حظر الرموز الدينية: حظر الحجاب، القبعة اليهودية، الصليب المسيحي، و عليه فان هذا القانون لا يكرس التمييز بين الطلاب بل يكرس المساواة بين كافة الطلبة على اختلاف دياناتهم أمام المعرفة التي لا تميز بينهم على أساس ديني، و هذه المساواة هي جوهر مبادئ الدولة الليبرالية.

– بالقول أن الحجاب هو حرية شخصية، فإننا نجد أن مفهوم الحرية الشخصية في الدستور الفرنسي يستند إلى إرادة الفرد الحرة شريطة عدم تعارضها مع حقوق و حريات الآخرين، و الحجاب ليس إرادة فردية بل تكليف ديني واجب التنفيذ على كل امرأة مسلمة، فهو إلزاما و واجبا و ليس حرية، كما انه ليس شخصي خاص بامرأة معينة بل هو جماعي خاص بكل النساء المسلمات، و عليه فالسماح به قد يهدد باقي الحريات لما قد يمارسه لابسوه من ضغوط و دعاوي، و كما هو معروف أن حرية الفرد تقف عندما تبدأ حرية الآخرين.

– نظرة فرنسا للحجاب على انه ليس واجب ديني بل رمز للجماعات السلفية المتشددة، التي تفرض الحجاب قسرا، وهذا ما دعمته بعض الدول الإسلامية بفرض نزع الحجاب كتونس، مصر،

تركيا... والتي ترى في تلك الجماعات تنظيمات إرهابية وفي المسلمات اللائي يرتدينه أدوات لتنفيذ مخططات تلك الجماعات السلفية التي باتت تهدد أسس الدولة الفرنسية.

- إن هذا القانون قد حظر الرموز الدينية بما فيها الحجاب في المدارس و الإدارات الحكومية فقط، و لا يمنع المسلمات من ارتدائه خارج المؤسسات العامة، و هذا موقف دال على أن منعه في المدارس يأتي من باب حماية علمانية فرنسا، فحين أن عدم منعه خارج المؤسسات العامة يدل على التزام فرنسا بمبدأ حرية المعتقد الذي تكفله العلمانية.

- إن السماح بارتداء الحجاب في المدارس الحكومية دليل على قبول الدولة الفرنسية بالتزامات و تشريعات غير فرنسية نو هذا ما يعني انتهاك لسيادة و مبادئ الدولة و تهديم أسس دستورها، لذا فهي ترى انه من واجب المرأة التي اختارت الدراسة أو العمل في المؤسسات العامة–بغض النظر عن جنسيتها و عن توجهها الديني – أن تلتزم بقوانين الدولة التي تعمل فيها حتى يتم الاندماج و التجانس داخل المجتمع .

- مطالبة العديد من الحركات النسائية في فرنسا حظر الحجاب بحجة انه مظهر من مظاهر اضطهاد المرأة لا سيما بعد اعتراف عدة فتيات بأنهن اجبرن على ارتداء الحجاب مطالبين بحمايتهم.

- إن فرنسا تؤكد على الحرية الدينية، و نظرا لمبادئها العلمانية فقد حظرت تعليم الدين في المدرسة رغم توصياتها بالمعرفة الجيدة بالأمور الدينية، و ذلك خوفا من تتحول المدرسة إلى مكان للصراع بين التلاميذ على اختلاف توجهاتهم الدينية، متجاهلين هدفهم الأساسي و هو المعرفة العلمية. (9)

- تعقيب (الانتقادات):

- ما يمكن أن يؤخذ على موقف فرنسا هو أن نظرتها للحجاب على أنه رمز ديني تتباهى به المرأة المسلمة لتتميز عن غيرها، هي نظرة خاطئة سطحية لمبدأ التكليف الإلهي لوجوب ارتداء الحجاب للمرأة المسلمة، فارتدائها للحجاب هو استجابة لأوامر الله –عز و جل–،و هي لا تلبس الحجاب للتباهي لو للزينة للآخرين، بل تلبسه للحفاظ على نفسها من الآخرين من جهة و لتنظيم علاقتها الإيمانية مع ربها من جهة أخرى، الإيمان الذي هو عقد يقبل بكل حرية و اختيار و هذا ما يكرسه القانون اللائكي الفرنسي 1905 ،و لكن لكل اختيار مستلزماته و الحجاب من مستلزمات

الإسلام للمرأة المؤمنة، فالحجاب ليس رمزا يل له غاية تتمثل في ستر المرأة و الحفاظ على مكانتها، و عليه فان قرار الرئيس الفرنسي(جاك شيراك) بأن الحجاب رمز ديني حقيقة لا أساس لها في الإسلام، فما بنت عليه فرنسا افتراضاتها قائم على جهل بتعاليم الإسلام.

- كما أن استناد الرئيس الفرنسي على قانون العلمانية1905 في تبريره لقراراته متجاهلا أن نفس القانون ينص في البند الأول منه على" أن الجمهورية الفرنسية تضمن حرية المعتقد، و تضمن حرية ممارسة الشعائر الدينية"، و من خلال هذا النص نجد ان الحجاب هو فرض في المرجعية الإسلامية، و عليه هذا الفرض هو جزء من المعتقد و بنص واضح من القران الكريم و باتفاق جمهور العلماء المسلمين على مر التاريخ.

- كما أننا لا نجد أن الغاية من قضية حظر الحجاب هي إذابة المسلمين في الهوية الثقافة المسيحية و محاولة لإدماجهم و فرض انصياعهم لمبادئ العلمانية، و كل هذا يتأتى من خوفهم من الإسلام لا غير.

- كما أننا نجد أن نموذج الدولة العلمانية الذي بنته فرنسا و نافست به النموذج البريطاني و الأمريكي العلماني قد أعلن عجزه عن تحقيق الاندماج بين مختلف الفئات الدينية، كما اثبت فشله في التطور و في احتضان اكبر جالية تمثل نصف مجتمعه (خمسة مليون مسلم)بسبب تقديسه لنصوص القانون العلماني الفرنسي و الذي ثبت فيه بعض الثغرات التي تحتاج إلى قوانين جديدة لسدها و لعل قانون حظر الرموز الدينية احدها، و إن كان يتعارض مع أهم مبادئها و هو مبدأ الحرية الفردية.

و من خلال ما سبق نجد أن فرنسا تنظر للحجاب على أنه رمز للتفاخر الديني و لزرع الفوارق الدينية متجاهلة انه تكليف ديني شرعي واجب التنفيذ ،و انه احد الحقوق المدنية للإنسان، و عليه فإن فرنسا باعتمادها لقانون حظر الرموز الدينية قد اعتدت على الدين الإسلامي من جهة و على الفرد من جهة أخرى، و هذا دليل على استمرار الحملة الصليبية على الدين الإسلامي، كما أنها تنظر للإسلام على انه مصدر إرهاب نفسي و معتقدي على اعتبار أن المرأة المسلمة تخفي وراء حجابها تطرفا، و هذا راجع إلى تخوفها الدائم من الإسلام (الإسلاموفوبيا)، لكن فرنسا–و بشكل موضوعي– فهي تسعى إلى حماية مبادئها العلمانية لاسيما فصل الدين عن المدرسة ،و إلى لحماية وحدتها الوطنية.

لكن ما يمكن قوله هو أن علمانية فرنسا هي علمانية مخاصمة للدين قامت ضد طغيان الكنيسة الكاثوليكية، و هي ليست متصالحة كما تدعي ،كما أن إقرارها لهذا القانون قد ناقضت العديد من المواثيق و العهود الدولية التي كانت طرفا فيها، و أن الغاية من وراء إقرارها لهذا القانون هي تهميش و منع إدماج المسلمين في المجتمع الفرنسي الذي تقر مبادئه بأنه مجتمع متعدد الثقافات و الأديان و الغاية الأصلية من إثارة قضية الحجاب هي الهاء الرأي العام عن المشاكل الحقيقية التي تعانيها الجالية الإسلامية بفرنسا.

ثالثا : موقف الأمة الإسلامية من قضية حظر الحجاب في فرنسا

لقد خيم السكوت و الحياد من قبل الدول الإسلامية –كعادتها –في الدفاع على احد مقومات هويتها و حضارتها الإسلامية و المتمثل في حجاب المرأة المسلمة، بحجة أن فرنسا حرة في سن ما تراه مناسبا من القوانين و لا يحق لهم التدخل في شؤونها ،متجاهلين حياة خمسة ملايين مسلم في فرنسا يسعون إلى العيش بسلام، فلم تظهر أي ردود فعل مسلمة سوى بعض الفتاوى و التعليقات التي طرحها بعض الدعاة الإسلاميين كالداعية الإسلامي "يوسف القرضاوي" الذي رد قائلا :"أن اكبر خطأ أن يقال أن الحجاب رمز ديني "مضيفا أن "الرمز الديني هو ما ليس له وظيفة سوى الإعلان عن انتماء صاحبه الديني كالصليب ،و القبعة اليهودية، لكن للحجاب وظيفة ستر رأس المرأة و نحرها و عنقها، و حتى الرمز الديني حر بأن يضع الصليب على صدره أو لا يضعه، أما الحجاب فليس أمرا اختياريا، بل هو واجب" ،و رأى أن موقف فرنسا ضد الحرية و المساواة متهما فرنسا بمنع التعدد و التنوع، و إن هذه ظاهرة رجعية لأنها تحاول أن يكون هناك لون واحد و زي واحد "متسائلا أين التسامح الديني؟".

وكانت المتحدثة باسم رابطة المسلمات الفرنسيات، "نورا جاب الله"، قد ناشدت الرئيس شيراك أن يُقدّر وضع المسلمين الفرنسيين عند نظر القانون المقترح، والذي من المرتقب أن يمنع ارتداء الحجاب في المدارس الفرنسية. كما طالبت مسلمي فرنسا بإيلاء مزيد من الأهمية لمسألة الحجاب، وتنسيق جهودهم مع الجمعيات الفرنسية التي ترفض هذا القانون، مشيرة إلى إن سنَّ قانونٍ لمنع الحجاب هو ضد دستور البلاد الذي يحمي حرية التعبير الديني. وأشارت إلى أن بعض الجماعات تسعى إلى تشويه صورة الإسلام وتمارس ضغوطاً على السياسيين لتخويفهم من الوجود الإسلامي

في فرنسا، مضيفة أن هذه الحملة تسعى إلى ربط الإسلام بما يسمى الإرهاب، رغم وجود حوالي خمسة ملايين مسلم في فرنسا يريدون العيش في سلام.

كما استنكرت "جماعة علماء المسلمين في أوروبا" في بيان لها، قرار الرئيس الفرنسي اللّجوء إلى القانون لحظر الحجاب، معتبرةً أن مثل هذه الخطوة منافية للعلمانية ولمبادئها الأساسية، كونها قائمة على الحياد إزاء المعتقدات الدينية وممارساتها.

وبين رأي معارض مندد، يأتي رأي شيخ الأزهر"محمد سيد طنطاوي" الذي أعطى الحق لفرنسا في فرض قانون يمنع ارتداء الحجاب على المسلمات المقيمات بفرنسا،و أنهن مضطرات للتعامل مع القانون، كما قال أن الحجاب هو فرض الهي لا يستطيع أي مسلم أن يخالفه و لا يسمح لغيرنا بالتدخل فيه، لكن هذا إذا كانت المرأة المسلمة تعيش في دولة إسلامية، أما إذا كانت في دولة غير إسلامية كفرنسا، و أراد مسئولوها فرض نزع الحجاب فهذا من حقهم و لا يمكن الاعتراض عليه، و استجابة المرأة المسلمة لقوانين الدولة غير المسلمة، تكون من الناحية الشرعية في حكم المضطر مستندا في ذلك على قول الله–عز وجل–"إنما حرم عليكم الميتة و الدم و لحم الخنزير و ما أهل به لغير الله، فمن اضطر غير باغ و لا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم"، مضيفا انه كما لا نسمح لغير المسلم من التدخل في شؤوننا، فإنه يجب علينا إلا نتدخل في شؤون دولة غير إسلامية، معتبرا قرار فرنسا شانا داخليا لا يحق لأي واحد التدخل فيه و انه من حق أي دولة أن تصدر ما تراه مناسبا من القوانين. (10)

أما عن موقف حكومات الدول الإسلامية ،فلقد التزمت بالصمت ،بحجة عدم التدخل في الشؤون الداخلية لفرنسا، لكن السؤال الذي يطرح نفسه: كيف يمكن للدول الإسلامية أن تندد بحظر الحجاب في دول غير إسلامية فحين أن اغلبها تعمل على حظر الحجاب، كما هو الحال في عدد من البلدان الإسلامية مثل تونس وتركيا وغيرهما، وحتى الدول الإسلامية التي لا تحظر الحجاب رسميا فإنها تضيق على المتحجبات بطريقة أو بأخرى.

رابعا: ردود دولية حول قضية الحجاب في فرنسا: بين مؤيد و معارض.

في مقابل العالم الإسلامي نجد العديد من الدول الديمقراطية الغربية العلمانية قد وقفت إلى جانب مسلمات فرنسا في الوقت الذي تخلت فيه غالبية الدولة الإسلامية عن أبنائها و خاصة الدول المغاربية على اعتبار أن غالبية مسلمي فرنسا منها ،فنجد الو.م.أ التي أدانت بشدة موقف فرنسا



من حظر الحجاب مصرة على أن المجتمع الأمريكي هو مجتمع أكثر تعددي، على الرغم من أن الواقع يكشف عن العديد من المضايقات التي تتعرض لها المحجبة في أمريكا ،حيث أبدى المسؤول عن الحريات الدينية في الخارجية الأمريكية "جون هانفورد" أن حظر المظاهر الدينية في فرنسا "يشكل مصدر قلق مهم" للو.م.أ التي ترى أن الحجاب و غيره من المظاهر الدينية ينبغي أن يكون متاحا طالما لا يعبر عن رغبة بالاستفزاز أو الترهيب، مع الإشارة إلى أن أمريكا قد منعت الحجاب لفترة من الزمن ،لكنها تراجعت عن ذلك، لكن لا يزال الضغط على المحجبة في أمريكا لاسيما من قبل الإعلام الأمريكي الذي يرى في الإسلام دين إرهاب و تطرف خاصة بعد احداث11 سبتمبر 2001.

نفس النهج سارت عليه بريطانيا بالحياد عن ذكر اسم الدولة قائلة أن بريطانيا ستبقى مفتوحة لكل هذه الرموز سواء اتفقنا على أنها فرائض أم لا، ذلك لان العلمانية لا تقف موقفا معاديا للدين بل موقفا محايدا للدين، فجاء في تصريح وزيرة الدولة البريطانية " فيونا ماكتاغارت" "أن الجدل حول دور الإيمان في المجتمع العلماني، عرفناه منذ مدة طويلة ،و نجحنا في أن نجد ضمن ثقافتنا سبيلا لإحياء التنوع بعيدا عن الجدل" مضيفة أن "بريطانيا فخورة بتقاليدها في مجال حرية التعبير و الدين و أنه في وسع المرأة أن ترتدي الحجاب من دون مشكلة في الأماكن العامة أو في المدرسة".

كما قامت مؤسسات المجتمع المدني في بريطانيا بشن حملة مشتركة لنصرة الحجاب و على رأسها جمعية المرأة المسلمة و الرابطة الإسلامية التي قامت بتنظيم مسيرات سلمية و اعتصامات أمام السفارة الفرنسية تنديدا لقرار حظر الحجاب. (11)

في الوقت الذي التزم فيه أئمة المساجد في فرنسا بالصمت و عدم مناقشة قضية الحجاب، رفض أساقفة فرنسا في اللجنة الأسقفية الدائمة بفرنسا . في بيان صدر في نوفمبر 2003 تحميل الإسلام السبب في التغييرات التي أدخلتها الحكومة، حيث دعوا إلى ضرورة منح الوقت الكافي للدين الإسلامي في فرنسا ليكتشف المعنى الحقيق للعلمانية.

كما انه في الوقت الذي لم تحرك فيه منظمة المؤتمر الإسلامي ساكنا إزاء القضية، نجد الكنائس الكاثوليكية و البروتستانتية و الارثودوكسية قد أصدرت بيانا مشتركا تؤكد فيه أن فرض نزع الحجاب لن يحل نزاعا محتدما حول ما إذا كان ارتداء الرموز الدينية انتهاك لقوانين فرنسا

الصارمة، و رأت الكنائس أن الفشل في تحقيق اندماج أفضل لمسلمي فرنسا، قد يدفع البعض إلى اللجوء إلى العنف و التطرف.

بينما اتفق المسيحيون على معارضة قرار حظر الرموز الدينية لا سيما الحجاب، نجد أن اليهود قد انقسموا بين رأي معارض يتزعمه الحاخام الأكبر"جوزيف سيتروك"، و رأي مؤيد بزعامة رئيس مجلس المنظمات اليهودية في فرنسا "روجيه كوكرمان "، إلا أن كلا من الديانتين المسيحية و اليهودية قد أبدتا قلقهما إزاء القانون خوفا من ان يفتح الطريق عمليا أمام منع مظاهر دينية أخرى تمس إحدى الديانتين.

كما دافع العديد من العلمانيين عن قضية الحجاب مستندين في ذلك إلى أن العلمانية التي يؤمنون بها لا تدعو إلى التمييز، كما أن فرض نزع الحجاب قد يحرم آلاف الفرنسيات المسلمات من حق التعلم الذي هو حق للجميع، و دفاعهم هذا ليس دفاعا عن الحجاب في حد ذاته بل دفاعا عن العلمانية التي تتيح للجميع التعلم، قائلين أن المدرسة العلمانية طبقا لقوانين التعلم التي صدرت في سنة1881 ،1882، 1886،لا تمانع أن تحضر تلميذة إلى المدرسة متحجبة شرط أن لا تغيب عن المدرسة لأسباب دينية ،و أن لا تعمل على إحداث الفوضى في المدرسة و أن التجربة أثبتت أن التلميذات المتحجبات لم يتسببن بأي تعطيل للدروس متهمة فرنسا بممارسة العنصرية.

في المقابل ظهرت العديد من الآراء التي دعمت قرار حظر الرموز الدينية(الحجاب) بحجة أن الحجاب فيه اضطهاد للمرأة، و خوفا من ينتشر إلى باقي الفتيات، مستدلة على ذلك بان قضية الحجاب هي قضية سياسية متطرفة تسعى الجماعات السلفية المتشددة من ورائها إلى بسط نفوذها و هي بالأساس قضية إرهاب نفسي و عقائدي. [(12)]

كما نجد العديد من الدول الأوربية الداعمة لهذا الموقف و على رأسها هولندا التي حاربت الحجاب بشدة، حيث قام مدير إحدى المدارس برفض السماح لطالبة محجبة بدخول المدرسة مبررا موقفه بأنه يؤمن بالمساواة التامة بين الرجل و المرأة ، و أن الحجاب رمز للظلم و الاضطهاد ، كما منعت الدانمارك الحجاب في الجامعات و المدارس و فرضت عقوبات صارمة إلا أنها تراجعت فيما بعد عن ذلك.

خاتمة:

بين موقفي الإقرار و الإنكار تجاه ظاهرة الإسلاموفوبيا، وحدهم مسلمو فرنسا البالغ عددهم 6 ملايين نسمة، والمنحدرون من 53 بلدا والذين يتحدثون 21 لغة إلى جانب اللغة الفرنسية، أي ما يقارب 10 % من السكان بقدرة تصويتية تتجاوز 1.1 مليون صوت، وحدهم يدركون موقعهم في النسيج السياسي و الثقافي و الاجتماعي الفرنسي أما الإشكالات المرتبطة باندماجهم فإن طرحها من زاوية "إسلام فرنسي" أو "إسلام في فرنسا" هو طرح غير صائب ، فالمطلوب أن يكون هذا الإسلام نابعا في المقام الأول من المسلمين الفرنسيين، وليس إسلاما حسب تصور الحكومة الفرنسية أو أي جهة أخرى لأنه لا شيء يمنع المرء من أن يكون مسلما و فرنسيا في الآن ذاته و لعل هذه هي الرسالة التي قصدت توجيهها فتيات مسلمات فرنسيات يرتدين الحجاب حين تظاهرن في شوارع باريس عقب صدور قرار حظر ارتداء الرموز الدينية في المؤسسات التعليمية وهن يتلفعن بالعلم الفرنسي، و يرددن النشيد الوطني الفرنسي.

الهوامش:

1- محمد بن سعد الشويعر، **حماية الإسلام للمرأة**، مصر، دار الصحوة للنشر، 1985، ص

2- موسوعة الحجاب الإسلامي، على الرابط الالكتروني:
http://mka2222.jeeran.com/archive/2006/12/126933.html

3- عثمان اقروس، حجاب المرأة شرعًا، على الرابط الالكتروني:
http://aghrous.maktoobblog.com:02/11/2010

4- مصطفى حقي، الحجاب كان مفروضاً على الرجل والمرأة قبل الإسلام ...!؟، مجلة الحوار المتمدن، العدد: 2396 ، 2008 / 9 / 6 ، على الرابط الالكتروني:
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=146219

5- تاريخ الحجاب، على الرابط الالكتروني:
http://forum.lahaonline.com/showthread.php?t=72939

6- الحجاب في التاريخ النصراني، على الرابط الالكتروني:
http://www.arcri.org/hijab/index.php?option=com_content&view=article&id=98&Itemid=220

7- أحمد عثمان ، الحوار المتمدن - العدد: 2214 - 2008 / 3 / 8
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=127334

9- فرنسا والحجاب الإسلامي ، على الرابط الالكتروني: http://www.aljazeera.net/NR/exeres

8- البرلمان الفرنسي يبدأ مناقشة قانون منع الحجاب والشارات الدينية في المدارس، على الرابط الالكتروني:
http://www.aawsat.com/details.asp?article=216103&issueno=9199



10- قضية الحجاب في فرنسا، على الرابط الالكتروني:

http://www.balagh.com/woman/trbiah/hr0m37w5.htm

11- حظر الحجاب في المدارس الفرنسية ، على الرابط الالكتروني:

http://www.aljazeera.net/NR/exeres/9D11DA78-D1EE-4E4F-AAA4-6E253EA5D12F.htm

13- آثار حظر الحجاب في فرنسا ، على الرابط الالكتروني:

http://www.aljazeera.net/Channel/archive/archive?ArchiveId=92546

12- البرلمان الفرنسي يحظر الحجاب والرموز الدينية ، على الرابط الالكتروني:

http://www.aljazeera.net/Channel/archive/archive?ArchiveId=92544

الإسلاموفوبيا في أوروبا: بين إرث الماضي وتحدي الراهن.

د.كربوسة عمراني
جامعة محمد خيضر – بسكرة- الجزائر

مقدمة:

أعادت مسألة اللاجئين نحو أوروبا من بؤر الصراع خاصة من العراق وسوريا وليبيا عقب أحداث الربيع العربي2011 { Arab Spring } النقاش والجدل بقوة حول الخوف من الإسلام وتنامي شعارات الكراهية والتعصب تجاه الجالية المسلمة، خاصة من طرف أحزاب اليمين المتطرف، فما اصطلح عليها " الإسلاموفوبيا" { Islamophobia }؛ فظاهرة الإسلاموفوبيا ظاهرة قديمة، لكنها تتجدّد وتتجلىّ في المشهد الدولي مع كل حدث يثير انشغال الرأي العام العالمي. حيث كان من تداعيات تدفق موجة اللاجئين تلك هو ارتفاع معدل العمليات الإرهابية بشكل رهيب لم تسلم منه معظم دول الاتحاد الأوروبي { فرنسا، بلجيكا، بريطانيا، النمسا.....} والتي تبنت غالبيتها تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام { داعش} ، مما أعطى ذريعة للأحزاب اليمين المتطرف لكي تطعن في الإسلام والمسلمين بدون أي تمييز أو تفرقة؛ إذ وضعت الجالية المسلمة بكاملها في خانة "الإرهاب الداعشي"؛ أين أصبحت الجالية مصدرا لتغذية العنف وممارسة مختلف أشكال التطرف والإرهاب بما يهدد النسيج المجتمعي والهوية الغربية ويؤثر سلبا على أمن واستقرار الديمقراطيات الغربية من منظور تلك الأحزاب التي جعلت كراهية الآخر في سلم أولوياتها في برامجها وحملاتها الانتخابية.

ففي ظل هذا الجدل القائم؛ تطرح عدة تساؤلات حول الخلفيات التاريخية لظاهرة الإسلاموفوبيا في أوروبا؟ وهل فعلا كانت لسلسلة العمليات الإرهابية التي شهدتها معظم الدول الغربية سببا مباشرا في ارتفاع منسوب حالات الكراهية والتمييز ضد الإسلام والمسلمين لمستويات قياسية؟ أم أن الأمر كان مخططا له مسبقا، خاصة في ظل الشعبية الكبيرة التي أصبحت تحظى بها أحزاب اليمين المتطرف في أوروبا كالجبهة الوطنية الفرنسية التي حصدت في الانتخابات الرئاسية الأخيرة 2017 أكثر من 10 ملايين صوت، وفوزها لأول مرة في تاريخ اليمين لمقعد في البرلمان الفرنسي؟

أولا : إرث الماضي: ثقل الاتهامات ضد الإسلام والمسلمين.

شهد مؤلف الكاتب الأمريكي صموئيل هنتنغتون" صدام الحضارات" { The Clash of Civilisation}، صدى واسعا في أوروبا أكثر ممن الصدى الذي أحدثه في أمريكا، نظرا للمخاوف والهلع الذي تعيشه أوروبا جراء تفشي ظاهرة صدام الثقافات داخل الحدود الأوروبية بين الإسلام والغرب على أساس أنها تشكل خط تماس مهم بينها وبين القارة الإفريقية التي تعتبر المصدّر الأول للمهاجرين المسلمين{ الهجرة الشرعية أو غير شرعية}، وهو ما اعتبره المراقبون تمهيدا لصدام الحضارات الأوسع المتوقع في القرن 21 على طول الحدود بين العرب والإسلام. وقد كانت لأحداث 2001/09/11 أثرا بالغا في تنامي ظاهرة الإسلاموفوبيا في العالم بشكل عام وفي أوروبا بشكل خاص، وهو ما أشار إليه الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان تاريخ 2004/12/07 في مؤتمر عقد بمقر الأمم المتحدة بعنوان" مواجهة الهلع من الإسلام: التعليم من أجل التسامح والتفاهم"، حيث صرح بقوله: "عندما يضطر العالم إلى إصدار تعبير جديد يدخل في اعتباره التعصب الذي يتزايد انتشاره، فالتطور محزن ويثير المتاعب، هكذا" الهلع من الإسلام"(Islamophobia) منذ هجمات سبتمبر على الولايات المتحدة، وجد المسلمون أنفسهم أهدافا للشك والتحرش والتفرقة ... ويعتبر الكثيرون أن الإسلام وحدة واحدة، وهو معارض للغرب بحكم طبيعته الباطنة ... إن الكاريكاتورية مازالت واسعة الانتشار وفجوة الجهل عميقة إلى حد خطير"(1). وانطلاقا من هذا التقرير وغيره نحاول رصد أهم المحطات التاريخية التي شكلت خلفية لنمو ظاهرة الإسلاموفوبيا ووصولها للحالة التي عليها في وقتنا الراهن، في النقاط التالية:

1. منذ الفتوحات الإسلامية التي بدأت منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وتوسعت حدودها وآفاقها على امتداد القرون اللاحقة دحر المسلمين للروم وتهديم إمبراطوريتهم العظمى، حيث ساهمت على سبيل المثال الهزيمة النكراء التي منيت بها جيوش الغرب في معركة اليرموك في السنة السادس عشر للهجرة والتي ترتب عنها خروج الاحتلال الروماني من المنطقة العربية وتداعيات ذلك فيما بعد على النظرة العدائية من جانب الغرب الوريث الشرعي للإمبراطورية الرومانية حيال الإسلام وأمته، وزادت تلك العدائية مع سلسلة المواجهة الدامية التي سجلها التاريخ في العديد من المعارك الحاسمة التي كانت تهديدا حقيقيا للغرب كفتح الأندلس 91هـ، ومعركة بلاط الشهداء (لابواتية)114هـ والتي انتصر فيها المسلمون

ودخل الإسلام إلى باريس نفسها، وفتح القسطنطينية على يد العثمانيين في 857هـ وغيرها من المعارك العنيفة بين الطرفين. [2] فقد كان الصعود والتوسع السريع للدولة الإسلامية وازدهار الحضارة الإسلامية دورا في فرض الخطر على العالم المسيحي من الناحية اللاهوتية والسياسية على السواء، وهو ما أكده المفكر مكيسم رودنسون بقوله: " كان المسلمون تهديدا للمسيحية الغربية قبل أن يصبحوا مشكلة بزمن طويل"، فالتشابهات اللاهوتية بين المسيحية والإسلام وضعت الديانتين على طريق الصدام، إذ كانت كل أمة تؤمن أن ميثاقها مع الله يقتضي تحقيق وحي الله الباكر إلى أمة سابقة خلت، وكل منها تؤمن بتاريخ الوحي الإلهي وأن الوحي أو الرسالة التي جاءتها خاتمة للوحي والنبوة . [3]

فبينما كان المسيحيون يزعمون لأنفسهم الصدارة، رأوا في الإسلام تهديدا لتفرد دور المسيحية التي يرعاه الرّب وبدعوى أنها الممثل الوحيد للرّب ووسيلة الخلاص الوحيدة، وفي أفضل الأحوال كان الإسلام – في رأي الكنيسة – هرطقة يبشر بها نبي ضال ومشوش وفي أسوتها كان تحديا مباشرا للمزاعم والمهمة المسيحية:" إذ أن خليط الخوف والجهل قد أنتج كيانا من الأساطير بعضها عبثي وغير منصف: المسلمون يعبدون الأصنام ويعبدون ثالوثا مزيفا، ومحمد ساحر، بل إنه كان أحد كرادلة كنيسة روما، خاب طموحه في أن يعتلي كرسي البابوية فتمرد وهرب إلى بلاد العرب وهناك أسس لنفسه كنيسة خاصة".[4]

" فحروب المسلمين" كما يطلق عليها الغرب المتكررة على أوروبا في القرنيين السابع والعاشر وكذا القرنيين الرابع عشر والثامن عشر، زادت في تشويه صورة الإسلام ونشر الأكاذيب والخرافات منه، في ظل صعوبة التواصل والنقل المباشر بين الشعوب، في نفس الوقت الذي ساهمت في مولد أوروبا وتحديد ملامحها وتشكيل هويتها. إضافة إلى الحروب الصليبية التي تعبر عن مدى قلق ومخاوف المسيحية الغربية من نهاية العالم، إذ في عام 1095م اشتعلت التوقعات وجعلت الشعوب الغربية تنظر بتركيز إلى القدس الذي ينتظر أن يحدد مصير البشرية، بحيث تدفقت موجات جديدة من المؤمنين المنزعجين على فلسطين أملا أن تفاجئهم نهاية العالم هناك، وهزّ أوروبا الرعب من نهاية العالم الوشيكة، حيث كان الغربيون يفكرون بتركيز أكثر دائما في الوصول إلى الآخرة بين الحسابات الفلكية وتفسيرات الكتب المقدسة. [5]

2. كانت أوروبا طوال القرن الحادي عشر تمرّ بإرهاصات مرحلة جديدة تمثلت ذروتها في الحملة الصليبية، حيث كانت الألفية عن نهاية العالم من أهم روافد الفكرة الصليبية، ففي ذلك الجو النفسي والفكري الذي ساد أوروبا آنذاك كان من الطبيعي أن يتطلع الناس الذين سيطرت عليهم هذه المشاعر إلى ضمان الخلاص الذي يترابط بضرورة الرحلة إلى القدس (Iter Heyro soLinic tanum). وقد تجسد هذا في ازدياد عدد رحلات الحج من جميع أنحاء الغرب الأوروبي الكاثوليكي إلى بيت المقدس، لكن تلك الرحلات المقدسة أفرزت نمطا من الدعاية الكاثوليكية، وتولد عنها نوع من الهجوم الهستيري على الإسلام والمسلمين. كما شاع عنها أن كثير من الحجاج يتمنى الموت في الأراضي المقدسة بأيدي الكفار(أي المسلمين) الذين صورتهم الدعاية المحمومة في أبشع الصور. وكل ذلك منطلقه أن الأراضي التي شهدت قصة المسيح وفيها ضريحه لا بد أن تكون تحت سيطرة أتباعه وكانت الكنيسة الكاثوليكية ترى أنها الكنيسة الوحيدة على طريق الإيمان الصحيح، ولذلك رفضت بقاء هذه المناطق المقدسة (فلسطين) بأيدي المسلمين الدين صورتهم في صورة الكفار المتوحشين، وهنا انتقلت الصورة في الذهنية الأوربية من العداء المتعقل إلى الهياج والعداء الهستيري.[6]

ولعل ما يثبت هذا الطرح هو أن أغلب الكتاب الأوروبيين المعاصرين لهذه الأحداث لم يفرقوا أبدا بين الحج والحملة الصليبية إذ وجدوا السبب العادل (Just cause) للحرب، على أساس استعادة القدس من المسلمين "الكفار" كما يعتبرون أن القدس هي"مملكة المسيح" التي تنتمي إلى العالم المسيحي، التي يجب الدفاع عنها، واستردادها من المسلمين الأشرار. [7]

هذا ما قد يفسر لنا مدى استجابة الأوروبيين الغربيين للحملة الصليبية الأولى والتي لم تعتمد على الكراهية المتصاعدة ضد الإسلام وضد كل ما هو مسلم فقط، بل كانت هناك أنماط فجّة من الدعاية ومن سوء الفهم، حيث تم تصوير المسلمين بأبشع الأوصاف والصور مستخدمين في ذلك العديد من القصص والأساطير الخرافية عن الإسلام وعن النبي محمد (ص)، وهو ما يجعلنا لا نستغرب الرسوم الكاريكاتورية التي ظهرت مؤخرا والتي تصف النبي الكريم بأنه إرهابي ومتطرف ويحبذ النساء.... فهذا ما هو إلا تكرار لأساطير وخرافات الحروب الصليبية. مما يعني أن العداء للمسلمين (الإسلاموفوبيا)، من أبرز ما تأسست عليه هو طابع الدعاية والدعاية

المغرضة الهادفة إلى تشويه كل ما هو مسلم، والتي تعمل على نشر مختلف الأكاذيب. الأمر الذي برز خلال القرن 14 عندما زادت المواقف المعادية للعرب والمسلمين عمقا وتجذّرا حتى أصبحت أحد المكونات الأساسية للحركة الإنسانية، وتكرس ذلك العداء والكراهية مع ظهور الطباعة في القرن 16، حيث انتشرت الكتابات والمنشورات المسيئة والمشوهة للإسلام وتصفه بصورة سلبية للغاية وأنه مصدر الإرهاب يسعى للانتشار بحدّ السيف. [8] فأصبح من الصعب الحديث عن ثقة طرف في الآخر، خاصة في ظل استمرار الدعم اللامشروط للكيان الصهيوني من جهة، وغضّ البصر عن المجازر التي ترتكب في حق الشعب الفلسطيني الأعزل.

3. من المفارقات أن عام 1989 الذي شهد تسارع في الاندماج الأوروبي بسقوط جدار برلين، فإنه في المقابل شهد تصاعد التوترات مع العالم الإسلامي بشأن قضية سليمان رشدي في المملكة المتحدة، وبداية الجدل حول الحجاب في فرنسا، ومند ذلك الوقت استقطبت سلسلة من الأحداث الشعبية في اتجاه الجالية المسلمة في أوروبا، وبلورت هوية إسلامية داخل هذه المجتمعات، إذ أصبح السكان المسلمون في أوروبا أكثر من مجرد مسألة هجرة، نتيجة التزايد الديموغرافي للمسلمين مما أثر على نسبة الشباب المسلم، التي هي في تصاعد مستمر في مقابل تراجع عدد الفئات الشابة وزيادة المعمرين الأوروبيين أو كما يطلق عليها البعض"الشبابية الإسلامية والشيخوخة المسيحية"، هذا ما أشارت إليه وزارة الخارجية الأمريكية في تقريرها عن الحريات الدينية لعام 2003، إلى أن هناك حوالي 23 مليون مسلم في أوروبا أي 5% من إجمالي عدد السكان، وإذا انضمت تركيا إلى الإتحاد الأوروبي فيقفز العدد إلى 90% بنسبة 15% من عدد سكان أوروبا،[9] وهو ما اعتبره البعض خاصة اليمين المتطرف "نحو أسلمة أوروبا" وبذلك يكون العداء والكراهية ضد الإسلام والمسلمين مبررا من وجهة نظر اليمين المتطرف.

4. الجهل بالإسلام وتعاليمه السمحة: "إذ لم يحدث حتى سنوات مابين الحربين العالميتين، أن بذل جهد جاد لفهم إسهامات الإسلام في تطور الفكر الغربي والتأثر الذي جرى على المجتمع الغربي من الجوار الإسلامي".[10] وهذا ما جاء في استطلاع الرأي الذي أجري في الدنمارك بعد أزمة الرسوم الكاريكاتوري المسيئة للنبي الكريم (محمد ص)، أشار إلى أن أغلبية الشعب الدنماركي لا يفهم السبب وراء غضب المسلمين من نشر الرسوم

المسيئة، وهذا ليس بالأمر الغريب إذا رجعنا إلى صورة العرب والمسلمين في المناهج الدراسية الأوروبية، ففي فرنسا مثلا تصور في البرامج المدرسية العرب بدو رحّل يمتازون بالعدائية والعنف والدونية، إذ تستخدم المفردات الثلاثة (البدو) و(العرب) و(المور Moor) وتستخدمها بغير تمييز للدلالة على الشخصيات نفسها ويعرف (البدوي) بأنه (عربي راحل من الصحراء)، والأكثر من ذلك هو قلب الحقائق التاريخية وتشويهها عندما يتعلق الأمر بالحروب الصليبية، فرغم أن الغرب هو من هاجم الشرق، إلا أنهم عكسوا الصورة حيث نسب للفاعل المسلم أفعال العدوان ضد الحجاج (الحملات الصليبية)، إضافة إلى أن كتب الجمهورية الثالثة كانت تصنف الإسلام بأنه "دين مسخ ابتكره محمد الذي ادعى النبوة" ، أما الكتب الحالية لا تخرج عن ذلك السياق العدائي للإسلام، لكنها تستخدم عبارات أقل حدة، حيث " تصور الإسلام كدين يسعى إلى تحقيق الفتوحات العسكرية، وتتفق كتب الجمهورية على إبراز دور البطل الفرنسي (تشارلز مارتيل) الذي وضع حدا لتوسع الإسلام في الغرب. (11)

5. التحيّز في الدراسة الأكاديمية: كدراسة الباحثين فلاتوري وتوروشكا التي امتدت عشرة سنوات كاملة [1985-1995] حول (ما يجب أن يجده المرء عن الإسلام من معلومات ومفاهيم بالكتب المدرسية باللغات الألمانية والهولندية والإيطالية والدنماركية من مواد الدين والتاريخ والجغرافيا) وكانت النتيجة مذهلة للغاية؛ حيث تصور هذه الكتب للطلبة الأوروبيين "الإسلام بأنه دين التخلف والعنف وأن المسلمين مستعدون للدخول في حرب مقدسة ضد المسيحيين في أية فرصة تتاح لهم".[12]

6. إسهامات المفكرين الغربيين: أهمها كتابات فوليتر الشهيرة؛ التي عملت على رسم صورة نمطية سلبية عن الإسلام في أذهان الشباب الأوروبي، فمثلا ألف فوليتر كتابا تحت اسم (التعصب، أو محمد النبي)، صور النبي طاغيا دينيا، وكذلك أرنست رنيان الذي أسبغ المديح على العلم والعقل والتقدم مستبعدا الإسلام على اعتباره أنه لا يتوافق مع العلم، "لا يقدر أن يتعلم شيئا أو ينفتح في مواجهة فكرة جديدة"[13]. وهذا الجهل بحقيقة الإسلام لم يتوقف عند هؤلاء المفكرين فقط بل تم تسويقه والتشهير والدعاية له في مختلف دراساتهم التي يدعون أنها أكاديمية ومحكمة، الأمر الذي ساهم في بناء جيل مؤدلج -إن صح القول-

لا يفقه في حقيقة الإسلام شيئا إلا أنه دين عنف وإرهاب شعارهم في ذلك "أن كل مسلم هو بالضرورة إرهابي".

7. خوف أوروبا من الإسلام: إما بسبب عدم معرفتها الواسعة لثقافة وتعاليم الإسلام المبنية على السلام والتسامح، أو بسبب عدم محاولتها معرفته لاعتبارات عنصرية استعلائية، الأمر الذي تجعلها تنفي جملة وتفصيلاً القيم النبيلة لهذا الدين التي عرفت عنه منذ أربعة عشرة قرنا[14]. مما يفسر لنا العدائية الكبيرة التي أصبحت تعاني منها الجالية المسلمة في الآونة الأخيرة (قضية الحجاب في فرنسا/المآذن في سويسرا/ الرسوم المسيئة في الدنمارك...) رغم ما يدعيه الغرب في أن العالم أصبح قرية واحدة في ظل العولمة، في مقابل ذلك نجد هناك العديد من الشخصيات السياسية والفكرية التي درست وفهمت الإسلام جيدا أشهرت إسلامها، على غرار أخت زوجة توني بلير، وقبلها سفير ألمانيا في المغرب مراد هوفمان، والمفكر الفرنسي المشهور روجيه(رجاء) غارودي... وما يثبت الجهل الغربي بالإسلام أيضا؛ هو ما أشارت إليه الإحصائيات الأمريكية في أن أكبر الكتب التي عرفت نسبة عالية من التسويق تمثلت في القرآن الكريم، الغريب في الأمر أن ذلك جاء مباشرة بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001.

8. المستشرقون ورحلة البحث عن التشويه للإسلام: فقد لعب المستشرقون المتطرفون دورا بارزا في تشويه صورة العرب والمسلمين وفي تقديمهم لأفكار مغلوطة لمجتمعاتهم الغربية عن سلوكية المسلمين وطبيعة دينهم على أساس أنهم مختصين ومسخّرين أنفسهم لهذه العملية، وبالتالي كان ذنبهم مضاعف نتيجة علمهم الكامل بما يحتويه الإسلام من أحكام وفرائض، والتي ترجع إلى دراساتهم المعمقة للقرآن الكريم ومعايشتهم لواقع المسلمين، إذ لم يشفع لهم ذلك بنقل الحقائق كما هي، بل عمدوا إلى تحريفها والتضليل على مختلف الحقائق التي توصلوا إليها، فعلى سبيل المثال توصل المستشرق وليام إيوارث جلادستون إلى حقيقة مفادها " أن ما دام القرآن موجودا فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق ولا أن تكون في أمان" ونتيجة لذلك سخر المستشرقون المتطرفون أقلامهم للطعن في القرآن الكريم.[15] وهذا ما أشار له الباحث محمد عبد الغني حسن بقوله :"أن كل ناحية من نواحي القرآن

لا تسلم من اتهامات المبطلين وادعائهم حتى القصص القرآنية كانت موضعا للتشكيك فيها"، وقد جاء طعنهم للقرآن الكريم في النقاط التالية:

- إنكار مصدر القرآن الرباني واعتباره من عمل محمد (ص) .
- الإدعاء بأن القرآن حرف بعد وفاة الرسول (ص) .
- الإدعاء أن حروف التهجي التي جاءت في أوائل بعض السور بأنها اختصارات لأسماء مالكي النسخ التي استخدمها زيد بن ثابت بجمع آيات القرآن في مصحف واحد .
- الإدعاء بأن القرآن ليس نظام مجتمع كامل وإنما هو محاولة للإصلاح. [16]

9. برنارد لويس[17] وهندسة "الخطر الإسلامي": هذا المؤرخ ذو الأصل اليهودي عمل واشتغل طويلا على تقديم طروحات فكرية قائمة على" خرافة الخطر الإسلامي" أو "أوروبا المستعربة" (Euro Arabie)؛ حيث كتب في صحيفة (Jérusalem post) عام 2007 أن أوروبا ستكون مسلمة عند نهاية هذا القرن (على أبعد تقدير)، [18]وقد اكتسب لويس شهرته في محورين أساسيين يبرزان دائما في كتاباته، وسجل فيهما براعة غير مسبوقة هما:

- **المحور الأول**/ تطويع التاريخ لخدمة منطقه وفرضياته (لي أعناق النصوص) ويتبع في سبيل ذلك منهجا انتقائيا مقيتا يسيء إلى التاريخ والى العلم بصفة عامة.
- **المحور الثاني**/ إشاعة الخوف من التغلغل الإسلامي، والتحريض الدائم على طرد المسلمين من أوروبا حفاظا على هويتها وخصوصيتها القومية التي ستضيع بسبب المهاجرين المسلمين. [19]

وعليه يمكن القول أن فهم السياق الإيديولوجي الذي ظهر فيه اليمين المتطرف في أوروبا فهو لم يأتي هكذا صدفة، وإنما جاء في إطار صيرورة تاريخية وفكرية أنتجت خطاب تحريض عدائي تجاه الإسلام والمسلمين، أي أن ظهور اليمين المتطرف في أوروبا جاء كترجمة ميدانية لمجموعة من الأطروحات النظرية على وجه التحديد التي صاغها الجهل بحقيقة الإسلام من جهة وسياسة التظليل والتعميم الأكاديمي التي هندس لها مجموعة من المفكرين والمستشرقين المتطرفين، وتم تلقينها للأجيال الصاعدة في مختلف مراحل التعليم والدراسة.

ثانيا: تحدي الراهن: خطابات الكراهية وتنامي التهديد الإرهابي.

شهدت أوروبا في الآونة الأخيرة موجة من العمليات الإرهابية المتتالية التي تنبت اغلبها تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام {داعش} ، الأمر الذي جعل أحزاب اليمين المتطرف في معظم الدول الأوروبية تصعد من لهجة خطاب الكراهية والعداء للجالية المسلمة وتحمّلها المسؤولية الكاملة في تلك العمليات الإرهابية.

1. **اليمين المتطرف: خطاب الكراهية ....تغذية للإرهاب وتهديد لأمن أوروبا:** عرفت الساحة الأوروبية تصاعدا مثيرا للأحزاب المتطرفة وتصدرها المشهد السياسي في بلدانا، خاصة مع ارتفاع موجة اللاجئين المسلمين من بؤر الصراع خصوصا سوريا والعراق، وهذا رغم الأصوات المعتدلة المطالبة بإدماجهم بصورة تدريجية في المجتمع الأوروبي كصوت المستشارة الألمانية إنجيلا ميركل التي أكدت "أن الإسلام والمسلمين أصبحوا جزء من هذه الدول وجزء من ألمانيا". إلا أن أصوات التطرف كانت اقوي على غرار تصريحات ماري لوبان المتشددة زعيمة حزب الجبهة الوطنية الفرنسية، التي جعلت من كراهية الإسلام والمسلمين وقودا لحملتها في الانتخابات الرئاسية الأخيرة 2017، على أساس أن حزبها الذي أسسه والدها جون يعتبر من أوائل الأحزاب اليمنية المتطرفة الذي استخدم الإسلاموفوبيا في خطبه السياسية، وقد لقيت خطاباتها هذه صدى واسعا في المجتمع الفرنسي بحصولها على عدد تاريخي من الأصوات في الدورة الثانية 10,6 ملايين ناخب أي بنسبة 33,90%. وهذا مؤشر على أن إستراتيجيتها لـ"نزع صفة الشيطنة" عن الجبهة الوطنية نجحت، وبات حزبها جزءا من المشهد السياسي الفرنسي. [20] وقد استثمرت زعيمة اليمين المتطرف في فرنسا في عدد الملايين التي انتخبت عليها في الدور الثاني للرئاسيات، مما مكّنها من أن تفوز لأول مرة في تاريخ اليمين المتطرف بمقعد في البرلمان الفرنسي، حيث انتخبت زعيمة اليمين الفرنسي المتطرف **مارين لوبان** في معقلها هينان-بومون (شمال) في الدورة الثانية من **الانتخابات التشريعية** التي حقق فيها حزب الرئيس إيمانويل ماكرون فوزا عريضا. [21] وكانت من انعكاسات تصدّر اليمين المتطرف على المشهد السياسي في فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية هو تصاعد موجة العمليات الإرهابية بشكل متسلسل.

وقد انتهجت عدة أحزاب وشخصيات يمينية متطرفة في أوروبا نفس نهج الجبهة الوطنية الفرنسية مواقف عدائية مشجعة على الكراهية والعداء للإسلام والمسلمين خاصة وان عدد المهاجرين المسلمين المقيمين في أوروبا تجاوز 45 مليون نسمة، الأمر الذي اعتبرته تهديدا لهوية أوروبا المسيحية فيما أطلق عليه البعض "غزوة الأسلمة"،[22] ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

- الحزب النمساوي اليميني الشعبي: اعتبر الإسلام بأنه العدو الأول للأمة النمساوية ولأوروبا والعالم اجمع.
- الحزب الدنماركي التقدمي: يرافع هذا الحزب من أجل إيجاد منطقة حرة للمسلمين بمنزلة المنطقة العازلة في خضم تحذيره من خطر "أسلمة أوروبا" وتهديد الهوية المسيحية الغربية.
- الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني : اعتبر أن المهاجرين المسلمين سيجعلون ألمانيا أغبى وأفقر، لأنهم جينيا اقل ذكاء ، كما أنهم يزاحمون الألمان في الاستفادة من الموارد الاقتصادية. [23]
- تصريحات الرئيس الفرنسي السابق نيكولا ساركوزي؛ الذي رفض استقبال الداعية الإسلامي المعتدل يوسف القرضاوي بحجة تحريضه على قتل اليهود وهذا عقب العملية الإرهابية لمحمد مراح التي شبهها ساركوزي بهجمات 11 سبتمبر 2001.
- تصريحات برلسكوني رئيس الوزراء الايطالي السابق أكد على تفوق الثقافة الغربية على الثقافة الإسلامية في ترديده لمقولة نهاية التاريخ وانتصار الليبرالية.
- تصريح رئيس حزب التقدم المسيحي المتطرف في النرويج؛ "أن كتب هتلر كفاحي والقران هما شيء واحد، وطالب بضرورة منع القران من التداول في مختلف المكتبات النرويجية".[24]
- قرار محكمة بلجيكا بتاريخ 12 /2017/07 بحظر الحجاب يؤكد التوجهات المتطرفة التي سادت المشهد السياسية في البلاد على حساب التوجهات المعتدلة. [25]

فهده المواقف والتصريحات المتطرفة لم تسهم في القضاء على الإرهاب أو تحقيق الأمن والاستقرار لدول الاتحاد الأوروبي كما تنادي أحزاب اليمين المتطرف في حالة إقصاء الجالية



المسلمة و إبعاد الدين الإسلامي من النسيج الغربي، يقدر ما زادت في توتر الوضع وارتفاع منسوب العنف والكراهية، خاصة من بعض المتطرفين المحسوبين على المسلمين، عندما حاولوا الرد أو الدفاع عن هويتهم بنفس منهج تطرف أحزاب اليمين في سياق "العنف والعنف المضاد"، وهذا ما تم استغلاله من طرف الجماعات الإرهابية وعلى رأسها تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام { داعش}، التي استغلت حالة التململ والسخط التي تسود في نفوس العديد من أفراد الجالية المسلمة جراء الإقصاء والتهميش التي تتعرض له، وتجنيدها وتعبئتها بالفكر المتطرف من أجل تنفيذ عمليات إرهابية انتحارية انتقامية ، ولعل هذا ما يفسر ارتفاع سلسلة العمليات الإرهابية في عدة دول أوروبية في الآونة الأخيرة، فعملية شارلي ايبدو الإرهابية التي جاءت مباشرة عقب نشر الجريدة للرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول الكريم {ص}، وهو ما اعتبره منفذي الهجوم استفزازا للمسلمين، فجاء الرد والانتقام بقتل معظم الطاقم الصحفي الذي اشرف نشر تلك الرسوم.

2. **التهديد الإرهابي: عولمة تنظيم داعش مؤشر استمرار الإسلاموفوبيا:** المتتبع اليوم للعمليات الإرهابية التي ضربت أوروبا في السنوات الأخيرة يدرك عمق الأزمة التي تشهدها هذه القارة ، بين تصاعد للعمليات الإرهابية وتنامي لظاهرة الإسلاموفوبيا في جدلية صعب تحديد خلفياتها ومسبباتها خاصة في ظل تطور وسائل وتكنولوجيات الاتصال والإعلام التي ساهمت في انتشار الإرهاب فيما يعرف "بعولمة الإرهاب" بحيث أصبحت أوروبا معقلا لمختلف التهديدات الإرهابية رغم الاحتياطات الأمنية التي تضعها الدول الأوروبية لمواجهة الظاهرة، إلا أنها فشلت في صد العديد منها، وهذا دليل على احترافية التنظيمات الإرهابية في اختراق أمن الدول بانتهاجها لعدة طرق مستجدة يصعب على الاستخبارات كشفها في وقتها { عمليات الدهس، العمليات الانتحارية في سياق التجنيد الالكتروني وفق نظرية الذئاب المنفردة ....} . لكن الأكيد هو أن هناك جملة من الاختلالات التي ساهمت في تنامي الخطر الإرهابي وتفشي الإسلاموفوبيا، ويمكن رصدها في مؤشرين أساسيتين:

- **المؤشر الأول:** الاختلالات المرتبطة بفصيل متطرف محسوب على المسلمين: هذا الفصيل يدعي امتلاك الحق والعدل الإلهي في تطبيق تعاليم الإسلام على الغرب الكافر من منظوره الإيديولوجي، وحتى على المسلمين الذي لا يطبقون تعاليم الإسلام كما جاءت

في كتب الله وسنة رسوله، فيعتمدون على الترهيب والعنف من أجل تحقيق ذلك، فالجماعات الإرهابية التي تقتل باسم الدين الإسلامي أو توظف الإسلام لأغراض شيطانية مهددة للأمن والسلم العالميين لم تسلم من همجيتها لا الغرب ولا المسلمين، أصبحت حالة وأمر واقع وليس ظاهرة عرضية. الغريب أن داعش وأخواتها من التنظيمات الإرهابية تحاول استنساخ الماضي وإسقاطه على الواقع أو ما يسمى" بالعنف المحاكاتي" {Violence Mimetique} قائم أساسا على "فلسفة اسلاماوية" متشددة تعتمد منهج القوة لأخلقة المجتمع وأسلمته دون مراعاة لخصوصيات وبيئة تلك المجتمعات { العربية أو الغربية على السواء}. ويمثل تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام { داعش} نموذجا راهنا للجناح المتطرف الذي تبنى أغلب العمليات الإرهابية في أوروبا في السنوات الاخيرة، ومنها:

1. **هجمات باريس نوفمبر 2015: شهدت العاصمة الفرنسية مساء الجمعة 13 نوفمبر سلسلة من الهجمات دموية متزامنة في ستة مواقع مختلفة{ شارع أليبير، خارج ملعب فرنيا، شارع فونتان أو روا، شئشارع شارون/ طريق فولتير} ، أسفرت عن مقتل 129 شخصا على الأقل، وإصابة قرابة 352، أعلن على إثرها الرئيس الفرنسي** فرانسوا هولاند **حالة الطوارئ في البلاد ودعا الجيش للنزول إلى الشارع للمساهمة في أمن البلاد، معتبرا الهجمات تهديدا ليس لفرنسا فقط وإنما لكامل دول الاتحاد الأوروبي. خاصة أن باريس عاشت عمليات مماثلة فيما عرفت بهجمات "شارلي ايبدو" راح ضحيتها 12 قتيل و11 جريحا بتاريخ 07 جانفي 2015.** [26]
2. **انفجارات بروكسل مارس** 2016 : شهدت العاصمة البلجيكية سلسلة من الهجمات الإرهابية استهدفت المطار ومحطة لقطار الأنفاق قرب مقر مؤسسات الاتحاد الأوروبي في بروكسل وخلفت حسب مصادر محلية 26 قتيلا وعشرات المصابين، جراء العملية الانتحارية الأولى في المطار أدت إلى قتل 11 شخصا على الأقل وأصيب 81 آخرون بجروح ، والثانية وقعت بمحطة للمترو في ساعة الذروة الصباحية مسفرة عن مقتل 15 شخصا. وقد اعتبر رئيس الوزراء البلجيكي شارل ميشال "بأنها لحظة سوداء في تاريخ البلاد ودعا المواطنين للتضامن والهدوء ووصف الانفجارات بأنها غاشمة وجبانة ." [27]

3. **العمليات الإرهابية في لندن وفرنسا 2017 :** تعرضت لندن إلى سلسلة من العمليات الإرهابية على غرار عملية الدهس التي تمت بتاريخ 03 جوان 2017 ؛ عندما استخدم الإرهابيين شاحنة من أجل دهس مواطنين مشاة كانوا يعبرون جسر لندن كوردون سقط فيها عدة ضحايا، كما شهدت العملية هذه قيام الإرهابي المشتبه بهم عدة أشخاص في المنطقة التي كانت تعجّ بحشود كبيرة من المواطنين. وقبلها تعرض البرلمان البريطاني أمام قصر وستمنسر في لندن لهجوم إرهابي أسفر على سقوط 3 ضحايا وعشرات الجرحى الذي استنكرته رئيسة الوزراء تيريزا ماي بقولها : إن بلادها ماضية بمحاربة الإرهاب أينما كان... وشدّدت على أن الهجوم لم يكن عفوياً بل كان مخططاً له، وهدفه واضح، لأن الشخص قد هاجم أقدم برلمان في العالم".[28] وفي نفس الشهر والعام شهدت فرنسا كذلك عملية إرهابية نوعية في ذكرى الاحتفال السنوي بعيدها الوطني 2017/06/14 تناقلتها معظم وسائل الإعلام العالمية مثله في هجمات نيس الإرهابية التي خلفت 84 ضحية. مما جعل صناع القرار في الاتحاد الأوروبي يدركون عمق التهديد التي يضع أمنهم واستقرارهم على المحك، الأمر الذي يتطلب رسم استراتيجيات فعالة لصد تلك التهديدات الإرهابية

فهذه العمليات الإرهابية وغيرها زادت بطريقة جدلية تغذية خطب الكراهية عند الأحزاب اليمينية المتطرفة في أوروبا، وأصبح خطاب الكراهية برنامجا سياسيا في مختلف المحطات الانتخابية، وهو ما ذهبت إليه المحللة السياسية الفرنسية المحاضرة بمعهد الدراسات السياسية في باريس كاترين دي ويندو Catherine de Wenden ترجع هجوم شارلي إلى تفشي الإسلاموفوبيا في فرنسا، وقد صرحت لإذاعة دويتشة الألمانية ب :" مثلما هو الحال في ألمانيا ، تحدث في فرنسا مظاهرات **فرنسا** مظاهرات عامة مناهضة للدين الإسلامي" وإضافة :" نشر مجلة **شارلي إيبدو** لانتقادات ساخرة من الإسلام، تحت مسمى حرية الصحافة، يمثل سبا لجزء من المجتمع الفرنسي المسلم." كما قدمت أمثلة عن ظواهر الإسلاموفوبيا على غرار إصدارات "Le suicide francaise” أو "الانتحار الفرنسي"، للكاتب إريك زيمور الذي تحدث فيه عن سقوط الجمهورية الفرنسية، وهاجم من خلاله الإسلام والمسلمين[29].

في السياق ذاته انتقدت كاترين دي ويندو خطابات الكراهية التي تروج لها الأحزاب المتطرفة والداعية إلى حظر كافة الرموز الدينية، ومنعهم من الظهور العلني، واعتبرت ان منتقدو



الإسلام في **فرنسا** يفعلون ذلك بحرية متزايدة كحزب الجبهة الوطنية الذي أضحى بإمكانه التعبير عن كراهية المسلمين علنا بعكس ما كان يحدث سابقا، حينما كان الإعلام الفرنسي ينتقد خطاباته بشدة، مؤكدة أنه لا يمكن ربط ارتفاع البطالة في المجتمع الفرنسي بزيادة عدد المهاجرين المسلمين فقط، مبرزة في الوقت نفسه أن الجالية المسلمة تعاني فعلا من إشكالية الاندماج بسبب افتقار الكثير منها للتعليم والتدريب. غير أن هناك قطاعا واسعا منها استطاع التأقلم والاندماج مع العادات العلمانية الفرنسية، لكنه للأسف لا يظهر في خطب الأحزاب المتطرفة. [30]

فخطاب الكراهية للآخر أنتج بدوره خطابا مضادا كذلك ، ممثلا في الجماعات الإرهابية أو الأشخاص المتطرفين الذين يوظفون الذين الإسلامي لتشويه صورة الإسلام والمسلمين في أوروبا والعالم، مما ساهم في تضليل الكثير الشعوب الأوروبية وجعلها ترسم صورة نمطية سلبية ؛ تضع الإسلام والمسلمين في سلة واحدة، طبعا هي سلة الإرهاب والتطرف.."

- **المؤشر الثاني : اختلالات مرتبطة بالاعتداءات على الجالية المسلمة:** من الأسباب الأساسية التي أعطت مبرر للجماعات الإرهابية لتنفيذ تهديداتها في عدة دول أوروبية هي الاعتداءات الواسعة والمتكررة على الجالية المسلمة، وهذا ما أكده المرصد الوطني لمكافحة الإسلاموفوبيا في فرنسا على سبيل المثال؛ بان حالات الاعتداءات والتهديد على المسلمين في تزايد مستمر خلال الأشهر التسعة من عام 2015 ثلاثة أضعاف مقارنة بعام 2014، وذلك بعدما تم تسجيل 330 اعتداء، منها اعتداءات مباشرة على الأشخاص والمساجد والمقابر والممتلكات الشخصية، وتهديدات غير مباشر ممثلة في كلمات عنصرية وشعارات تحريضية تنتشر في عدة وسائل إعلامية مختلفة. [31]

وكان لارتفاع الاعتداءات على المسلمين لعام 2015 مردّه الهجمات الإرهابية التي ضربت باريس خلال تلك السنة حسب ما أشارت إليه إذاعة أوروبا 01 الفرنسية، وقد عرف عام 2015 ارتفاعا بنسبة 23 بالمئة مقارنة بالسنة الماضية ويعود سبب ذلك تداعيات العملية الإرهابية على الجريدة الساخرة شارلي ايبدو حسب لجنة مكافحة ظاهرة الإسلاموفوبيا، ومند هذا الهجوم سجلت اللجنة أكثر من 222 عملا معاديا للإسلام، منها 119 حالة لها علاقة بالتمييز و 103 حالات مرتبطة بحالة الطوارئ المفروضة والمداهمات التعسفية؛ منها تخريب المساجد ودو العبادة، العنف ضد المحجبات لفظيا وجسديا، التميز في الأماكن العمومية، وفي

المدارس والميتشفيات... ضد الأطفال المسلمين وغيرها من ممارسات التميز والعنصرية ضد الإسلام والمسلمين[32]وكأمثلة عن أهم الاعتداءات والممارسات العنصرية التي زادت في تأجيج الوضع الراهن وزادت من عولمة العمليات الإرهابية نجد: [33]

1. **عملية إطلاق النار على المصلين في سويسرا:** حيث تم استهداف المصلين بالمركز الإسلامي في مدينة زيوريخ السويسرية، أحدث حوادث الكراهية ضد المسلمين في الغرب، والذي أسفر عن إصابة ثلاثة أشخاص جراء تعرضهم لإطلاق النار أثناء أدائهم الصلاة، حسبما أفادت الشرطة المحلية.
2. **عمليات الدهس والقتل في الأماكن العمومية :** كثيرة منها قتل المواطنة المصرية في ساحة عمومية بألمانية، ودهس سائق سيارة امرأة محجبة في العاصمة البلجيكية بروكسل يوم 2أبريل 2016، خلال مظاهرة نظمها اليمين المتطرف ضد وجود المسلمين في بلجيكا.
3. في النمسا قام متطرفون بوضع رأس خنزير على مقبض باب مدخل المسجد، أثناء أداء المسلمين لصلاة التراويح، وهذا بالرغم من تكريم البلدية لإدارة المسجد ومنحه "جائزة الاندماج في المجتمع النمساوي"، تقديرا لدور المسجد في تعزيز الاندماج، ومساهمته في مختلف الأنشطة و الأعمال الخيرية التي تعتبر عن أن المسلمين جزء لا يتجزأ من النسيج الاجتماعي.
4. **نشاط حركة "بيجيدا" المتطرفة في ألمانيا:** بيجيدا هي حركة عنصرية معادية للإسلام وكلمة بيجيدا اختصارا لعبارة "أوروبيون وطنيون ضد أسلمة الغرب" ، هدفها طرد المسلمين من البلاد الأوروبية، ونظمت عدة مظاهرات تحمل شعارات معادية للمسلمين، منها بشعارات "اطردوا المسلمين من أوروبا، سيحوّلونها لخلافة إسلامية"، و"احموا أطفالنا من الإرهابيين"، كما رفع المتظاهرون صورة ساخرة للمستشارة الألمانية "ميركل" محجبة؛ تعبيراً عن موقفهم المناهض لترحيبها باللاجئين المسلمين في المجتمع الألماني.
5. **انفصال بريطانيا عن الاتحاد الأوروبي دو خلفية عنصرية: حيث تم استخدام ملف المهاجرين في الدعاية الانتخابية والتسويق لانفصال بريطانيا عن الاتحاد** وهذا ما



ترجمته الشعارات ضد اللاجئين، كما اعتبر الكثير من المتتبعين أن من أسباب التصويت بالانفصال هو مسالة المهاجرين والإسلام أكثر من قضية علاقات اقتصادية تجارية.

فهذه الاعتداءات العنصرية اللفظية والجسدية، مهما كانت مبرراتها تعتبر غير مقبولة، لان لا يمكن أن نعاقب كل فرد بسبب عرقه أو لغته أو طائفته الدينية { الانتماء الإسلامي} بسبب تصرف بعض المتطرفين والمتعصبين من الإسلاميين الذين لا يمثلون الإسلام طبعا في شيء، خاصة وأن هذه الاعتداءات أصبحا واقعا وليست حالة عرضية فقط في المجتمعات الأوروبية مهد الحضارة والتقدم واحترام حقوق الإنسان والديمقراطية، وهو ما يشكل مفارقة كبيرة تستحق الدراسة والتحليل العميقين.

الخـــــاتمة: أي مستقبل للإسلاموفوبيا في أوروبا...؟؟؟؟

بين الاتهامات والاتهامات المتبادلة؛ من يتطّرف على من؟ اليمين المتطرف يتهم الجالية المسلمة بعدم قدرتها على الاندماج في المجتمعات الغربية، وتمسكها بموروثها الديني والثقافي، في حيت ترى هذه الأخيرة؛ أن اليمين المتطرف يعمل على تشويه صورتها من خلال الدعاية المغرضة واعتماده سياسة التعميم والتضليل والتضخيم لأي عملية إرهابية ينفذها " الجماعات الإرهابية التي تنسب نفسها للإسلام". في مقابل ذلك يتم غض البصر عن عديد العمليات الإرهابية التي ينفذها متعصبون مسيح أو يهود ضد الجالية المسلمة، بل ويتم تصنفها في خانة الفعل الإجرامي وليس الفعل الإرهابي الذي يبقى ملتصقا بالإسلام والمسلمين. فكانت نتائجها وتداعيات ذلك وخيمة بالدرجة الأولى على واقع الجالية المسلمة التي ترفض وضعها في خانة واحدة مع التطرف والإرهاب. وفي ظل هذا الجدل الكبير والمعقد؛ حريّ بنا التأكيد على أن معالجة أو التخفيف من حدة الإسلاموفوبيا مستقبلا مرهون بطرحين أساسيين هما:

الطرح الأول/ الدول الأوروبية: مطالبة بتعزيز منظومة قانونية قوية تحفظ حق الأقليات المسلمة في ممارسة عقائدها الدينية دون أي تضييق أو تعسف في تطبيق القوانين، كما تسهل من عملية اندماج الجالية المسلمة في المجتمعات الغربية؛ بالعمل على تطوير ميكانزمات وآليات جديدة قائمة على مقاربة شاملة تراعي خصوصية الجالية وتشجعها على الاندماج بمرونة في النسيج الغربي، تتكيف مع الوضع الراهن وتواكب التحديات الجديدة التي فرضتها عولمة التهديدات الإرهابية من جهة، ومن جهة ثانية إعادة النظر في سياستها الدول الأوروبية تجاه بؤر الصراع

في المنطقة العربية والإسلامية، والعمل على التخلص من سياسة الاستعلاء والاستغلال لتلك الدول، حتى لا تعطي أي مبرر للجماعات المتطرفة كتنظيم داعش وأخواتها للرد وتهديد مصالح الغرب خاصة والسلم العالمي عامة.

الطرح الثاني: الجالية المسلمة: مطالبة بدورها باحترام قوانين الديمقراطيات الغربية عند ممارسة شعائرها ومعتقداتها الدينية دون أي تعصب أو تطرف، والعمل على محاولة إبراز الوجه السمح والسلمي للإسلام والمسلمين، وإعطاء صورة نمطية ايجابية عن مدى قدرة الجالية المسلمة على الاندماج والتعاطي مع مختلف القضايا الغربية، وذلك من خلال توظيف مختلف المنابر والمؤسسات الدينية في سبيل شرح تعاليم الإسلام السمح سواء للغرب أو حتى للأفراد الذين لهم القابلية للتطرف، حيث يمكن أن تستغلهم الجماعات الإرهابية نتيجة ضعف ومحدودية ثقافتهم الدينية أو معاناتهم من التهميش والعنصرية والإقصاء المجتمعي ... ومواجهتها لمختلف المعيقات التي قد تحد من عملية اندماجهم وتأقلمهم مع الهوية الغربية. فإن لم تأخذ بيدهم تلك المؤسسات نحو الاعتدال والوسطية فلأكيد سيقعون في فخ التطرف والتعصب، خاصة مع سهولة التجنيد والتعبئة التي أصبحت عبر شبكات الانترنيت وتطبيقاتها الجديدة.

ختاما نؤكد أن الدعاية المغرضة التي تروج لها الدولة الأوروبية بأن التطرف والإرهاب هما سببا مباشرا لارتفاع منسوب الكراهية والاسلاموفوبيا، دعاية غير مؤسسة لاعتبارات مرتبطة بثقل خلفيات الماضي ضد الإسلام والمسلمين رغم عدم إنكارنا لدور الجماعات الإرهابية التي تنسب نفسها للإسلام في تغذية خطاب الكراهية. على أساس أن عدة إحصائيات غربية تؤكد أن نسب تنفيذ أشخاص دو أصول إسلامية لعمليات إرهابية ضد الغرب ضعيفة جدا مقارنة بالعمليات الإرهابية التي تنفذها جماعات دينية مسيحية أو يهودية ضد المسلمين، لكن للأسف الترسانة الإعلامية التي يمتلكها الغرب التي تتحكم في غالبيتها قوى صهيونية متشددة قلبت الموازين عند الرأي العام العالمي. فهل من المنطق أن تعلّق أوروبا كل مشاكلها السوسيو اقتصادية على الجالية المسلمة؟ كما يمكن التساؤل كذلك؛ لماذا تم رفض انضمام تركيا ذات الأغلبية المسلمة للاتحاد الأوروبي؟ أليس هو الخوف من أوروبا المستعربة {Euro Arabia } على حد تعبير عرّاب صراع الحضارات المستشرق برنارد لويس ؟؟؟.

الهوامش:

1. جون أسبوزيتو وداليا مجاهد، من يتحدث باسم الإسلام: "كيف يفكر –حقا–مليار مسلم ؟ تر (عزت شعلان)، القاهرة: دار الشروق 2009، ص 168 .
2. خالد سليمان، ظاهرة الإسلاموفوبيا، مؤتمر فيلادلفيا الدولي الحادي عشر حول ثقافة الخوف، جامعة فيلادلفيا، الاردن، 26/24 نيسان 2006.
3. جون اسبوزيتو، التهديد الإسلامي: خرافة أم حقيقة،(تر: قاسم عبده قاسم)، القاهرة، دار الشروق، ط2، 2002، ص60.
4. المرجع نفسه، ص61.
5. فوانكوكاديني، أوروبا والإسلام ...تاريخ من سؤ التفاهم، (تر: عماد البغدادي)، القاهرة: دار الشرقيات، 2008، ص10.
6. – قاسم عبده قاسم، المسلمون وأوروبا: التطور التاريخي لصورة الآخر، القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2008، ص117.
7. المرجع نفسه، ص118.
8. فوانكوكاديني، مرجع سابق، ص11.
9. – ثيموثن سافيج، أوروبا والإسلام: الهلال المتنامي وصدام الثقافات، ترجمات، القاهرة: المركز الدولي للدراسات المستقبلية والإستراتيجية، 2006، ص 05.
10. جون أسبوزيتو، التهديد الإسلامي: خرافة أم حقيقة، مرجع سابق، ص70.
11. مجموعة من الباحثين، صورة العرب والمسلمين في المناهج الدراسية حول العالم، السعودية: مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر ،2003، ص ص 81–87.
12. عبد المؤمن الهباء،الدين والحرب في زمن بوش، القاهرة: دار الجمهورية للصحافة، 2008، ص.159.
13. جون أسبوزيتو، التهديد الإسلامي: خرافة أم حقيقة، مرجع سابق، ص71.
14. Ekmeleddin Ihsanoglu, Islamophobia and Terrorism: Impediments to the Culture of Peace, Arches Quarterly, Vol 04, Edition 07, Winter,2010, p11.
15. أحمد نصري، آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم، الرباط: دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، 2009، ص03
16. المرجع نفسه، نفس المرجع.
17. برنارد لويس: مؤرخ بارز من مواليد 1916 من أصل يهودي، يعتبر الأب الروحي لدعاة صراع الحضارات، أستاذ الدراسات الشرق الأوسط في جامعة لندن وكاليفورنيا وكولومبيا ، وعضو دائم في معهد الدراسات المتقدمة والجمعية الأمريكية مند عام 1973، يعتبر من كبار المستشرقين ذو التوجهات الصهيونية، ومن ابرز المحافظون الجدد الذين اعتمد عليهم بوش الابن في حربه على الإرهاب بعد هجمات 2001/09/11، من دعاة الحرب الصليبية للرد على الجهاد الإسلامي، له العديد من المؤلفات حول الإسلام والمسلمين تجاوز 20 مؤلفا منها: حماتنا الصليبية ضرورية لوقف انتشار الإسلام، أزمة الإسلام، الصدام بين الإسلام والحداثة في الشرق الأوسط.......
18. جون اسبوزيتو وداليا مجاهد، من يتحدث باسم الإسلام، مرجع سابق، ص 170



19.عبد المؤمن الهباء، مرجع سابق ، ص.174
20.فرنسا: مارين لوبان تعود لتولي رياسة الجبهة الوطنية:
http://www.france24.com/ar/2017051%D9%81%D8%B1%D9%86%D8%B3A7-

21.فرنسا: زعيمة اليمين المتطرف مارين لوبان تفوز لأول مرة بمقعد في البرلمان:
http://www.france24.com/ar/20170618-9%85%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D9%86-
22.بلغ عدد المسلمين حوالي 45 مليون مسلم في قارة أوروبا بنسبة 5.2 بالمائة ، وهو رقم يشمل أيضا كلا من روسيا والقسم الأوروبي لتركيا، وتتوقع دراسات متقاطعة ارتفاع نسبة المسلمين في أوروبا بنحو 8 بالمائة بحلول عام 2030. حيث تشير دراسات حديثة إلى أن نسبة المسلمين في أوروبا الغربية تتزايد يوما بعد يوم، بعكس أوروبا الشرقية، التي تظهر فيها تيارات التعصب والتشدد والعنصرية في مختلف مؤسسات الدولة والمجتمع ، كما تشير التقارير أن المسلمين في غرب أوروبا يشكلون نسبة 50 بالمائة ففي فرنسا بلغت 5 مليون نسمة، وفي ألمانيا يبلغ عددهم 4 مليون نسمة و3 ملايين في بريطانيا. لتفاصيل أكثر ارجع سناء القويطي ومريم التايدي، إرهاب التطرف وإرهاب "الاسلاموفوبيا" .. وجهان لعملة واحدة:
http://www.jadidpresse.com/%D8%A5%D8%B1%D9%87%D8%A7%D8%A
23.بوحنية قوي، هواجس الأمن وتداعيات الإسلاموفوبيا: فرنسا نموذجا، مجلة السياسة الدولية، العدد 206، أكتوبر 2016، ص 63
24.عمراني كربوسة، ظاهرة الإسلاموفوبيا: المفهوم والآليات، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 44 السنة السادسة عشر، جوان 2016، ص 80.
25.قرار محكمة بلجيكا حظر الحجاب 2017/07/12: https://tv.ennaharonline.com
26.هجمات باريس القصة الكاملة :
http://www.aljazeera.net/encyclopedia/events/2015/11/15/
27.هجمات في بروكسل وشظايا التفجيرات تصيب اروبا :
http://www.aljazeera.net/news/international/2016/3/22/%D8%B9%D8%B4%D8%B1%D8%A7%D8
28.تيريزا ماي: منفذ اعتداء لندن بريطاني معروف لدى الأمن:
https://www.alarabiya.net/ar/in-focus/london-parliamentincident/2017/03/23/%D8
29.1 - Catherine de Wenden, Islamophobia in France more prevalent,
http://www.dw.com/en/islamophobia-in-france-more-prevalent-political-scientist
30.ibid
31.بوحنية قوي، مرجع سابق، ص 68.
32.نفس المرجع، ص 69
33.سلمي أحمد، ابرز الاعتداءات على المسلمين بالغرب في 2016، مركز رصد للدراسات،
http://rassd.com/198197.htm



السياسة الخارجية الأمريكية: من الارهاب الأحمر الى الارهاب الأخضر

أ.د. وداد غزلاني

جامعة 08 ماي 1945 قالمة –الجزائر

مقدمة:

لم يكن القرن العشرين أكير حظا من سابقيه، إذ عرف الإرهاب فيه تطورا من حيث الطبيعة والمدى، إذ شهد امتدادا طبيعيا لصورتي الإرهاب الرسمي وغير الرسمي وأضفى بالمقابل نطاقه أوسع. إذ لم يعد محصورا في إرهاب الأقوياء في مواجهة الضعفاء بمفهومه المحلي (اليعقوبين والعدميين)، بل أصبح يعبر عن العلاقة بين دول ومعسكرات وفي مواضع أخرى بين حضارات كما سنأتي على تبيانه لاحقا، وأعتبر أن الإرهاب يشكل بديلا عن المعركة المفتوحة والمعلنة التي تخاض بالزي العسكري، وأنه يستخدم بدلا من الجنود، مقاتلين سريين ومجموعات منظمة تعتمد عنصر المفاجأة وهو ما أصطلح على تسميته بالإرهاب " الموضعي" المحلي والذي عّد مجرد حلقة داخلية ترتبط بحلقات أخرى في الخارج. لذا ارتأيت في هذه المداخلة التطرق إلى التغير النوعي في الإرهاب وهذا بالرجوع إلى الإرهاب الذي مورس من طرف الاشتراكيين الروس وعلاقته بالإرهاب اليميني أو الإرهاب الأحمر، ثم التطرق إلى التغير النوعي الثاني الذي رسم ظاهرة الإرهاب على إثر تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر في الولايات المتحدة الأمريكية وكيف وظفته هذه الأخيرة لتعزيز مكانتها على الصعيد الدولي.

1-من الإرهاب اليســاري إلى الإرهاب اليميني

كان للتجربة الثورية الروسية آثارا هامة انعكست على أغلب الحركات الثورية وأيديولوجياتها في القرن العشرين. فنجاح ثورة 1917 أثبتت لشعوب العالم نجاح الثوار في استخدام الوسائل والطرق الكفيلة بقيادة العمل الثوري، إلى النجاح والوصول إلى السلطة. ويرجع الفضل إلى كل من لينين وتروسكي اللذين رسما الخطط والمناهج العملية التطبيقية للوصول إلى السلطة من خلال الإرهاب المنظم. ولقد استند لينين على الإرهاب المنظم كوسيلة من وسائل العمل السياسي، وأن الإرهاب الفردي عبثي لا طائل منه، برغم تعاطفه الضمني معه، وهذا ما يتضح من كتاباته بعد حادثة" الأحد الأحمر"[1]. ومن الرسالة التي بعث بها إلى لجنة العمال التابعة للحزب الاشتراكي الديمقراطي في "سان بيترسبورغ"، يطالبها فيها بتشكيل مجموعات قتالية على الفور، وبتسليح

أنفسهم بجميع أنواع الأسلحة، وباللجوء إلى الإرهاب، لأنه السبيل الوحيد للمجابهة الكبرى ولتهيئة الأجواء استعدادا للثورة. وقال: " نحن لم نرفض أبدا ولا يمكن أن نرفض الإرهاب، انه وجه من وجوه الحرب بإمكانه أن يتوافق مع مرحلة المعركة، ولكن المشكلة أنهم يقترحون علينا الإرهاب، لا كعملية من عمليات الجيش المحارب مرتبطة بنظام النضال بأكمله. وإنما كوسيلة قائمة بذاتها للهجوم منعزلة ومستقلة عن الجيش والتنظيم[2] ويؤكد تروسكي: " إن مسألة الإرهاب بالنسبة لنا نحن الثوار الروس مسألة حياة أو موت بالمعنى السياسي للكلمة لا بمعناها الحرفي[3].

إن الإرهاب الشيوعي لم يعد عملا يسعى للقضاء على شخصية سياسية أو عسكرية ولا انتقاما، بل أصبح مدخلا لأعمال فصائل الجيش الثوري مرتبطا باستراتيجية وتكتيك سياسي وعسكري يرسمها ويخططها الحزب. وأصبح الإرهاب الشيوعي مرحلة تكتيكية مر بها البلاشفة في نضالهم الثوري حتى عام 1917، وأنه لم تنته مسألة الإرهاب السياسي بقيام ثورة 1917 بل تفاعلت معها واتخذت وجوها عديدة. ويمكن حصر هذه الوجوه في اتجاهين رئيسيين[4].

1. إن مفهوم الإرهاب أثناء التنظيم العام للنضال الشعبي قبل عام 1917 قد تحول إلى أساس عملي لحرب العصابات كما وضح بعد استلام لينين السلطة وأثناء الحرب الأهلية التي حدثت في روسيا.
2. لقد غير "لينين" المعنى السياسي لإرهاب الضعفاء (أي الذين ليسوا في السلطة) وكذلك المعنى السياسي لإرهاب الأقوياء بعد استلامه السلطة.

واكتسب إرهاب الأقوياء أصولا إيديولوجية غير التي أرستها الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر، ومن ثم فانه يمكن القول إن إرهاب الضعفاء لا يتشابه مع إرهاب الفوضويين. وأن إرهاب الأقوياء لا يتشابه مع إرهاب اليعقوبين في الجمهورية الأولى.

ويؤكد "فيكتور سيرج" أن الإرهاب الشيوعي لم يتوقف بعد وصول لينين إلى السلطة، بل خفت حدثه وأصبح قطاعا لا يمكن إنكاره. ولقد أصبحت الإجراءات الإرهابية حكرا على الدولة ومؤسساتها وأجهزتها البوليسية خاصة التشيكاTchika وهي اللجنة الاستشارية الروسية التي أنشأت بمرسوم صادر في 7 ديسمبر 1917 عن مجلس سوفيات مندوبي الشعب، وقد أنبطت بها مهمة النضال ضد التخريب و الثورة المضادة و إساءة استعمال السلطة [5].



لقد كان لإرهاب الدولة إبان حكم لينين طابعان رئيسيان: الأول ارتباطه التصاعدي بالأوضاع العسكرية التي كانت تمر بالبلاد، وتزايده مع حالة اللاستقرار والمعارك التي كان يخوضها الجيش الأحمر في الداخل، والثاني اتخاذ الإرهاب شكل الصراع الطبقي.

وقد ذهب" لاتزيس" أحد رؤساء " التشيكا" بتطرفه إلى أقصى حد عندما قال: " لا تبحثوا عن إثباتات حتى تتحققوا أن سجينكم قد تصدى للسلطة السوفياتية بالقول أو بالفعل، إن واجبكم أن تسألوه: إلى أية طبقة ينتمي؟ ما هو أصله؟ ما هي درجة ثقافته؟ و ما هي مهنته؟ هذه الأسئلة التي يجب أن تقرر مصيره "، هذا هو معنى وجوهر الإرهاب الأحمر[6].

لقد واجه الإرهاب البلشفي انتقادات كثيرة من ماركسيين بارزين كان على رأسهم كارل كاو تسكي[7] وقد رد عليه تروتكسي مفندا حججه ومؤكدا على صحة المبررات التي دعت إلى اللجوء لاستخدام الإرهاب من قبل السلطة الحاكمة. وقد رسم تروتكسي أيضا استراتيجية خاصة للعنف، من واقع الصراع الإيديولوجي الطبقي. وكان يرى أن من واجب الطبقة العاملة عندما تتهم السلطة بالصراع، استخدام أية وسائل لبلوغ أهدافها، وأن الإرهاب وسيلة وقتية، تبرز ضرورتها في ظروف معينة، وفي أحوال قاهرة، لا يمكن الاستغناء عنها إلا في حالة الاستغناء عن الهدف الإيديولوجي الذي تجعله الثورة أسمى أهدافها وترمي إلى بلوغه[8].

استباحت الدول الاستعمارية أقاليم الشعوب الضعيفة، فاضطهدتها وجوعتها، وعذبتها باسم المدنية وضمن أطر رسمية نظمتها عصبة الأمم من خلال عهدها وعبر نظام الانتداب المفخخ ثم منظمة الأمم المتحدة بنظامها الوصائي ولم يخرج هذا أو ذاك عن كونه إرهابا مقننا. ولم يكن في يد هذه الشعوب المضطهدة إلا أن تتخذ من العنف والقتل والتدمير سلاح لرفع المظلمة عنها إما بمعاقبة المسئولين عن الحالة التي يرفضونها، وإما للفت انتباه العالم أو لشق الطريق أمام ثورة محلية. ونشأت بالتالي المقاومة في شكل حركات تحرر، سمتها الأجهزة الرسمية في بعض بلدان أمريكا اللاتينية والتي ارتبطت أنظمتها الديكتاتورية بالولايات المتحدة الأمريكية خلال الستينيات من القرن السابق بالإرهاب الأحمر، لوصف عمليات المجموعات الثورية التي كانت تسميها وسائل إعلام الغرب " عمليات رجال العصابات"، ليطلق عليه الغرب ما بعد هذا اصطلاح "الإرهاب الثوري"[9].

ومع تصاعد ظاهرة العمليات الخارجية للمقاومة الفلسطينية، وتوافق ذلك مع ظهور المنظمات السرية التي أعلنت حربها على "الأنظمة البورجوازية" في ألمانيا الغربية سابقا وايطاليا واليابان



وبنسبة أقل في بعض البلدان الأوروبية الأخرى، شاع في الأدب السياسي الغربي استخدام عبارة " الإرهاب الأحمر"، للتدليل على العملية العسكرية، التي استهدفت بادئ الأمر المؤسسات الرسمية العسكرية والاقتصادية لإسرائيل داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة وخارجها.

وقد تم الخلط بين هذا النوع من الممارسة الكفاحية للمقاومة الفلسطينية وأعمال العنف الأخرى التي مارستها منظمات اليسار الأوروبي السرية داخل بلدانها، ومن بينها الألوية الحمراء في ايطاليا وبادر ماينهوف في ألمانيا[10].

وتناسى العالم والغرب خاصة، ما يباشره الإسرائيليون ضد الفلسطينيين من الإرهاب، فكانت مجازر دير ياسين، كفر قاسم، صبرا وشتيلا والحرب غير المتعادلة في 2009 أو ما سميت بحرب غزة.

كما عرفت الدول الغربية إرهاب اليمين الذي عرف بالإرهاب الأسود Terrorisme nero والإرهاب الذي مارسته منظمة الفهود السود في الولايات المتحدة الأمريكية ضد البيض المتمسكين بالتمييز العنصري والعرقي. وبالمقابل ظهر اصطلاح الإرهاب الأبيض والذي ارتبط بالتنظيمات الفاشية والنازية في ألمانيا وايطاليا والنمسا والتنظيمات اليمينية المتطرفة في فرنسا. وسارت أمريكا اللاتينية على نفس النهج خاصة في الأوروغواي والسلفادور ضد السلطة الحاكمة الموالية للو.م.أ، ورفضت هذه الحركات ومن بينها منظمة التوباماروس في الأوروغواي نعتهم بالإرهابيين واعتبروا أنفسهم مناضلين وأن نشاطهم كفاح مسلح في نطاق ما وصفوه ببداية اندلاع الحرب الأهلية كرد فعل عن الإرهاب الأبيض[11].

واتخذ الإرهاب في السبعينات صورا أساسية تمثلت في جماعات سياسية محددة تستخدم العنف المنظم ضد الحكومات، وتحدد استراتيجية تلك الحركات في نطاق تعبر عنه باختصار: " ارهب عدوك وأنشر قضيتك" حيث أعتبر نشر القضية عبر استقطاب الرأي العام هدفا استراتيجيا للإرهابيين[12].

أما مرحلة الثمانينيات فقد شهد الإرهاب خلالها تحولا خطيرا ليس في استراتيجيته فقط، بل كذلك في نوعية القائمين به. حيث كانت العمليات الإرهابية عبارة عن عمليات وطنية أو داخلية قاصرة على المجموعات في مواجهة السلطة الحاكمة. أو بالعكس، أما في هذه الفترة تدخلت فيها قوى أجنبية لمساعدة الحركات الإرهابية ضد حكوماتها، فأصبح الإرهاب تمارسه مخابرات بعض الدول الكبرى أو الصغرى عن طريق عمليات مباشرة تقوم بها القوات الحكومية أو الخاصة، و تحولت

استراتيجية الإرهاب من مجرد بث الذعر إلى إحداث التدمير و إيقاع الخسائر الكبيرة بالخصم بقصد التأثير على القرار السياسي وإظهار عجز الحكومات في حماية مواطنيها، وهو ما يضطر الدولة المستهدفة في الغالب إلى اتخاذ إجراءات قمعية تكون في مقدمتها الحد من الحريات العامة- الحظر أو الطوارئ- مما يوقع الرأي العام تحت الضغط، و الذي يباشره بدوره على السلطة للعدول عن المواقف السياسية التي تثير الإرهاب. وتحولت أيضا تكتيكات الإرهاب من العمليات التقليدية والتهديد إلى أسلوب جديد في استخدامه، قديم في أصله هو الأسلوب الانتحاري.

وفي عقد التسعينيات من القرن السابق، لم يعد للإرهاب نفس ملامحه الظاهرة التي كانت تعالجها الدراسات الاستراتيجية قبل بداية هذا العقد. فالدراسات الهائلة عن الإرهاب الدولي والتي بدأت في نهاية الستينيات من القرن السابق فقدت أيضا الكثير من قيمتها في ظل الحقائق التي تكشفت مع بداية التسعينيات وأهم هذه الحقائق:

1. إن الإرهاب كان في قمة ازدهاره بين عام 1968-1990، وقد كان أحد أهم بدائل الحرب التقليدية بين الكتلتين الشرقية والغربية. لذلك فان أكثر من 80% من النشاطات الإرهابية في العالم كانت وراءها مخابرات دول كبيرة وصغيرة على حد سواء، ويؤكد ذلك سقوط 52 منظمة يسارية في أوروبا الغربية على أثر انهيار الاتحاد السوفياتي وانتهاء الحرب الباردة. وانهيار منظمات يمينية متطرفة في دول الكتلة الشرقية بعد أن انتهى دورها بالنسبة للمخابرات الغربية، بل إن منظمات كثيرة مثل توباماروس ومنينتيوزوس في البرازيل والبارغواي وبوليفيا، ومنظمة الدرب المضيء في البيرو، تحولت إلى الاتجار في المخدرات، ومع خلو الساحة من المنظمات اليسارية اشتد عود المنظمات العنصرية والدينية المتطرفة وكذلك العرقية مثل النازية والفاشية الجديدة. خاصة وأن بعض هذه المنظمات تعمل الآن تحت رعاية مخابرات بعض الدول لإضعاف مناطق معينة في العالم[13]، فالإرهاب إذن ليس حركة ثورية، وليس قتالا من أجل الحرية وإنما هو في معظمه عمل مخابرات وحكومات، كما أن له أسبابه المحلية.
2. إن استراتيجيات الإرهاب في عقد التسعينيات قد تحولت بشكل حاد من الدعاية عن طريق الفعل إلى التدمير الكامل للخصم، أو على الأقل " الانتهاك المستمر لقوى الدولة" وإذا كان الإرهابيون في الماضي يسعون إلى نشر قضاياهم والتعريف بها عن طريق أفعال مثيرة



لجذب الانتباه دون أن تحدث خسائر كبيرة. ودون الإعلان عن مسؤوليتهم عن هذه الأعمال حتى لا يفقدوا تعاطف مؤيديها، أما الآن فإنهم في حرب فعلية مع الدولة الخصم، ومن ثم فان هدفهم هو تحطيم تلك الدولة وإحداث أكبر قدر من الخسائر بها[14]. والدليل على هذا التحول ما نراه من عمليات لا هدف لها إلا الإضرار العام مثل عملية نشر غاز "السارين" في أنفاق طوكيو التي ارتكبتها جماعة مذهبية متطرفة هي الحقيقة المطلقة أو السامية". وعمليات السيارات الملغومة والتقتيل الجماعي في الجزائر.

2-تفجيرات 11 سبتمبر 2001 والإرهاب الدولي: تغير نوعي في السياسة الخارجية الأمريكية

إن اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر 2001 والتي طالت مركزي التجارة العالمي والبنتاغون في الولايات المتحدة الأمريكية تشكل نقلة نوعية في تاريخ الإرهاب الدولي. إذ أثبتت أن أذرع الإرهاب يمكن أن تطال أيا كان، وأن لا أحد ولا حتى أمريكا في منأى عنه، أخرجت بمقتضاه الإرهاب من شكله التقليدي القديم إلى ما اصطلح على تسميته بالإرهاب الجديد[15]، وفي ذلك إشارة لذاك الشكل من الإرهاب الذي تحركه الإيديولوجيات العرقية المتطرفة والتي ذاع صيته في التسعينات من القرن الفارط. والذي يبقى هدفه التدمير[16].

إن القفزة النوعية التنظيمية للإرهاب الجديد تتجلى أيضا في طبيعة الأسلحة والقدرة الكبيرة والجد متقدمة للجماعات الإرهابية والتي فاقت كل التصورات، بما فيه عمل المخابرات، والذي شكل استراتيجية عمله في المرحلة ما بين الثمانيات والتسعينيات السابقة، وحافظ في ذات الوقت على منحاه التصاعدي[17] ألتدميري والذي يستهدف المدنيين ومعالم السلطة والذي سبق تطويره في المرحلة السابقة، إلا أن حدته وصلت أقصاها على ما يبدو في هذه الاعتداءات. فأخرج الإرهاب من دائرته التقليدية السابقة إلى أخرى أكثر حداثة. سواء ما تعلق بالتنظيم أو المدى، إذا أصبح الحديث المتداول يتحدث عن شبكات عالمية سرية للإرهاب، متعددة الجنسية ومعقدة التنظيم، مما مكنها من الاستفادة من مزايا العولمة[18] وتسهيلاتها من تدفق المعلومات والتكنولوجيا، ووسائل التمويل العابرة للقارات، مما يستوجب بحسب البعض رؤية جديدة تتناسب وهذا التغير للتعامل معها[19]، وهو ما كرس أطروحة أن الإرهاب أضحى الشكل الرئيسي للصراع في العلاقات الدولية، وبديلا للحروب التقليدية خاصة بالنظر إلى هامشية تكلفته وفاعلية ضرباته[20]. واعتبرت أن هذه الاعتداءات لا تشكل اعتداء سافرا على الولايات المتحدة الأمريكية وما تمثله بالنسبة للمجتمع

الدولي، بل خرقا لكل المواثيق الدولية وتهديد للسلم والأمن الدوليين، لابد أن تتوافق كل الإرادات للتصدي لها ومعاقبة مرتكبيها، وكل متخاذل في شجبها أو ساكت عنها يعد مناصرا وداعما لها.

وكانت ردة فعل الجماعة الدولية، فورية وآنية، إذ تلي في اليوم الثاني من هذه الاعتداءات إصدار لقرارين من مجلس الأمن هو القرار 1368 بتاريخ 12 سبتمبر 2001، والقرار 1373 بتاريخ 28 سبتمبر 2001 والذين شكلا دعامتا التحرك الدولي الجديد في مسار مكافحة الإرهاب والإرهابيين، وصك على بياض مكّنت منه الولايات المتحدة الأمريكية لقيادة هذه الحملة الجديدة القديمة على الإرهاب الدولي فكيف تحقق ذلك؟

أدان مجلس الأمن عبر القرار 1368 الاعتداءات التي وقعت على الولايات المتحدة الأمريكية واعتبرتها أنها خرق لميثاق الأمم المتحدة وللسلم والأمن الدوليين وعبر على استعداده لاتخاذ كل الإجراءات للرد عليها ومكافحة الإرهاب الدولي بكل أشكاله. وكان من المنتظر أن يتخذ مجلس الأمن، أو بالأحرى أن يباشر اختصاصاته المقررة وفقا لأحكام الفصل السابع من الميثاق في مثل هذه الحالة. ولكنه وقف صامتا ولم يقرر أية تدابير استعجاليه في هذا الصدد، ومرد ذلك بحسب البعض يعود لعاملين:

1. عجز مجلس الأمن عن تحديد جهة مسئولة بعينها عن هذه التفجيرات وبالتالي الحيلولة–واقعيا–عن اتخاذ أي تدابير استعجاليه فعلية إزاءها، حتى ولو أن الأصوات المتعالية في ذلك الظرف كانت توجه أصابع الاتهام لتنظيم القاعدة، لكن لم يقدم ولحد الآن أي دليل مادي على ذلك للمجلس[21].
2. تملص أو تقاعس مجلس الأمن عن أداء التزامه في مثل هذا الموضع كان بقصد حسب البعض، وهذا لتمكين الولايات المتحدة الأمريكية من التحرك تحت ذريعة الدفاع عن النفس وملاحقة ومحاصرة الإرهاب في أي مكان كان، والذي أريد منه فعليا خلق مشروعية للتصرفات المقبلة التي ستتخذها أمريكا في إطار ترتيبها للجماعة الدولية التي نصبت نفسها حامية ومشرعة لها[22].

ولم يقف القرار رقم 1373 عند حد الإدانة بل تعداها إلى فرض التزامات على عاتق الدول بمنعها تمويل العمليات الإرهابية، ومساعدة الإرهابيين وإيواءهم. واعتبر أن أي خرق لهذه الالتزامات يعد خرق وتهديدا للسلم والأمن الدوليين ويترتب عنه جزاء والغريب أن هذا القرار لم يتطرق ولم يشر لا



من قريب ولا من بعيد لمسألة تعريف الإرهاب الدولي(23)، وكأنه أراد من خلف ذلك إعطاء الأسبقية للتفسيرات الأمريكية لهذا الموضوع وتغليب منطقها هي في هذا الصدد(24).

ومن المفارقات الغريبة التي تحير الباحث في وقتنا الراهن، أنه وفي نفس الوقت الذي تتعالى فيه أصوات غربية كثيرة بأن الإسلام هو الخطر الجديد على الحضارة الغربية بعد سقوط الشيوعية، وأن كل العمليات الإرهابية التي تنفذ هنا وهناك هي من توقيع الجماعات الإسلامية المتطرفة والإرهابيين الإسلاميين الهاربين من سلطة بلدانهم، كما هو الحال في الولايات المتحدة الأمريكية، بريطانيا، فرنسا، ايطاليا، الدنمارك وألمانيا. والأغرب من ذلك، أنه ما لبثت أن انقلبت هذه التنظيمات على هذه الدول، كما هو الحال بالنسبة لتنظيم القاعدة وأسامة بن لادن الذي صنعته الولايات المتحدة الأمريكية، لكنه ما لبث أن انقلب عليها معلنا الجهاد المسلح ضدها.

لهذا السبب ولغيره، اعتبرت بحسب البعض اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر 2001 مجرد ذريعة للقرن الأمريكي الجديد، وأن الولايات المتحدة الأمريكية قد علمت مسبقا بهذه التدابير واستدرجت على طريقتها، أو شاركت بطريقة أو بأخرى في تنفيذ هذه العمليات حتى تشق لنفسها طريقا لتحقيق أهدافها الجديدة عبر آرائها الجديدة وهي مكافحة الإرهاب. ولا أدل على هذا ما قاله الرئيس السابق لمكافحة الإرهاب في البنتاغون أنه في حالة إشارة أصابع الاتهام إلى بعض الإرهابيين، فانه من الحكمة أن نسير في الطريق الذي تأتي منه اليد والذراع والشخص الذي يمدها.(25)

عندما نطرح السؤال من المستفيد والمتضرر من أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001، فانه يتضح لنا أن هذه الأحداث قد جرّت على العالم العربي والإسلامي بأسره أضرارا تمتد كما يبدو لعدة عقود قادمة، ومن الضروري أن يكون الجناة قد وضعوا ذلك في اعتبارهم، وبالمقابل و إن كانت هذه الاعتداءات قد خلفت ضحايا تحزن لهم الأنفس، فان المستفيد الأول منها تبقى حكومة بوش أو الإدارة الأمريكية إجمالا، إذ تستطيع الآن و تحت ادعاء الحرب ضد أو على الإرهاب، أن تعيد تشكيل الصيغة العسكرية و السياسية والاقتصادية في المناطق التي يقطنها المسلمون، ليس فقط في الشرق الأوسط و إنما في كل العالم الإسلامي، فيمكنها على صعيد الجغرافيا السياسية أن تحتل مواقع استراتيجية مهمة قريبة من الصين و روسيا، ودعم هذه المواقع بالقواعد العسكرية، و فوق ذلك تفرض على موطنيها عبء تمويل المشروعات الجارية و القادمة.



تبيح الحرب المندلعة بصور مفاجئة ضد الإرهاب، تعقب أهداف كانت موضوعة في الحسبان قبل الحادي عشر من سبتمبر، و يتضح ذلك مباشرة من خلال عدد من المشروعات السياسية التي دونها الفريق المحيط بالرئيس جورج بوش قبل سنوات من الدخول في الحكومة، حيث ثمت مناقشة " مشروع القرن الأمريكي الجديد"، أقطاب المستفيدين من أموال السلاح والذخيرة وصناعة البترول والغاز والمواد الخام. وينطلق مشروع القرن الأمريكي الجديد[26]، من الوعي التاريخي لأمريكا في أنها اضطرت في القرن العشرين للتغلب على الشر ثلاث مرات، ذلك الشر الذي تمثل في القيصرية الألمانية (في الحرب العالمية الأولى)، ثم ألمانيا الهتلرية (الحرب العالمية الثانية) والاتحاد السوفياتي (الحرب الباردة).

تؤدي هذه السياسة إلى السلام العالمي الأمريكي الذي يجب أن تنزعه أمريكا لنفسها، ويجب على أمريكا أن تؤمن احتكار القوة العظمى، والسلام العالمي، الذي لا يضمنه سواها، ويجب أن تمنع المنافسين المحتملين من الصعود، هذه هي المهمة الملحة للسياسة الأمريكية، ولا تختلف هذه الأفكار جوهريا عما كتبه " بريجنسكي" في بداية التسعينيات في كتابه " القوة العظمى الوحيدة- الاستراتيجية الأمريكية للسيادة". ثم التعبير عن السياسة الضرورية لتأمين القرن الأمريكي الجديد في صيغة كتبت عن إعادة بناء الدفاع الأمريكي فيما يتعلق بالاستراتيجية والقوات العسكرية[27]؛ وطبقا لذلك يجب على أمريكا أن تؤمن احتكار القوة العظمى لكي تسود العالم لمدة قرن آخر من الزمن.

علاوة على ذلك يجب تأمين هذا الموقف عسكريا، و يجب على الولايات المتحدة الأمريكية، بالمقياس العالمي و الإقليمي، أن تحافظ على السيادة الصناعية و التكنولوجية و الاقتصادية التي تتمتع بالحماية، فيجب أن تؤمن نفسها ضد الاعتداءات من الفضاء و يجب أن يحظى هذا البرنامج بأولوية مطلقة، كما يجب إزالة قيود معاهدة حظر التسلح العالمي مع روسيا في الفضاء، ويجب أن تسيطر الولايات المتحدة على الشبكة الالكترونية لعالم المعلومات، و يجب أن يكون في استطاعة القوات العسكرية الأمريكية أن تشن أكثر من حرب كبيرة بنجاح في القارات المختلفة في وقت واحد، ويجب ضمان التفوق التكنولوجي لأمريكا في مجال التطورات الجديدة للأسلحة، و يجب تطوير الأسلحة النووية التكتيكية لتفجير المخابئ تحت الأرض التي يستغلها الأعداء الذين يقاتلون بالطرق التقليدية، و يجب أن تجهز هذه الأسلحة لاستخدام القوات العسكرية، إضافة إلى ذلك يجب

العودة إلى التجارب تحت الأرض، حتى أنه يجب الدفاع عن مواصلة تطوير الأسلحة البيولوجية كأداة نافعة من أدوات الحرب في أيدي القوة العظمى المتفوقة[28].

بلهجة آسفة ينطلق فريق " بوش" من أن التغيير ضروري لتمويل هذا البرنامج، يجب تأجيله، إلى أن تحدث كارثة مثل هجوم القوات العسكرية اليابانية على جنود المارينز الأمريكيين في بيرل هاربر، والتي اتخذتها الولايات المتحدة الأمريكية كذريعة للدخول في الحرب العالمية الثانية. ذريعة شكك في تلقائيتها، واعتبرت من طرف العديد من المؤرخين الأمريكيين ذرائع مفبركة، وهي سمة تميز التاريخي الأمريكي الطويل بحسبهم. ويحضرنا تأكيد لهذا الطرح قولهم: بأنه لا يوجد في هذه المرحلة من التطور الأمريكي ما يبرر موقف البراءة السياسية، بما فيه التسليم بالنوايا الطيبة لحكومتنا، إذ أن لدينا تاريخا طويلا من الاعتقادات الشعبية المزيفة، وخاصة في مسائل الحرب والسلم. في الواقع ثمة اتفاق متزايد بين المؤرخين على أنّ الحقائق قد تم تزويرها في تفجير السفينة الحربية " ماين Maine" لتبرير اندلاع الحرب الأمريكية الاسبانية في العام 1898[29]، فيما يتعلق بالهجوم الياباني على بيرل هاربر من أجل تبرير الدخول في الحرب العالمية الثانية، في حادثة خليج " تونكين" عام 1964 التي استغلها البيت الأبيض لتبرير التوسيع المأساوي لرقعة الحرب الفيتنامية إلى شمال فيتنام. والأكثر حداثة، تصوير العراق بأنه يخبئ ترسانة مهددة من أسلحة الدمار الشامل، من أجل تبرير اللجوء للحرب دفاعا عن القانون الدولي والأمم المتحدة[30]، ونفس السيناريو هو في طريقه للتركيب والصياغة فيما يخص إيران اليوم.

لذا فغالبا ما قورنت هجمات 09/11 بالهجمات على بيرل هاربر، فقد كتب المراسل الصحفي المحقق جيمس بامفورد، على سبيل المثال، عن تصرف بوش بأنه " في معمعة بيرل هاربر معاصرة"، كما صرحت شبكة سي.بي.أس C.B.S للأخبار بأن الرئيس نفسه، قبل أن يذهب إلى فراشه في 09/11، كتب في مفكرته: " وقعت اليوم بيرل هاربر القرن الواحد والعشرين"[31]. ولقد وضعت هذه المقارنة على الأغلب من أجل التأكيد على أن الرد الأمريكي على اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر ينبغي أن يكون مشابها للرد الأمريكي على بيرل هاربر. فبعد خطاب الرئيس بوش إلى الأمة في 2001/09/11 مباشرة، نشر هنري كيسنجر مقالة على الانترنت قال فيها: " يجب أن نطالب الحكومة برد منظم، يتمنى المرء أن ينتهي كما انتهى الهجوم على بيرل هاربر بتدمير النظام المسئول عنه"[32]. بعض المقارنات أشارت إلى أن هذه الهجمات أثارت بالفعل ردة

فعل مشابهة لردة الفعل التي أحدثها الهجوم على بيرل هاربر: المطالبة باستخدام القوة العسكرية الأمريكية. فقد كتب الصحفي الأسترالي "جون بيجر"، مستشهدا بتكهنا صرح به في العام 2000، رجالا سرعان ما أصبحوا من كبار المسئولين في إدارة بوش، مفادها أن التغيرات التي يرغبون بها ستكون صعبة ما لم تحدث بيرل هاربر جديدة، " لقد أمنت هجمات 11 سبتمبر 2001 بيرل هاربر جديدة"[33].

على أي حال، إن هذه المقارنات بين هجمات الحادي عشر من سبتمبر والهجوم على بيرل هاربر لا تبدو بدون مبرر على الإطلاق. فأحداث 09/11 يتفق الجميع على ذلك عمليا كانت من أكثر الأحداث أهمية في التاريخ الحديث بالنسبة لكل من أمريكا وبقية العالم معا، فقد هيأت هجمات ذلك اليوم الأرضية المناسبة لحصول تقييد كبير على الحريات المدنية في الولايات المتحدة " تماما كما أدى الهجوم على بيرل هاربر إلى تقييد الحريات المدنية للأمريكيين اليابانيين، بالإضافة إلى أنها كانت بمثابة حجر الأساس لشن " حرب عالمية على الإرهاب" بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، مع كون الحربان على أفغانستان والعراق حدثين كبيرين حتى الآن[34].

علاوة على ذلك تعتبر الحرب العالمية على الإرهاب التي شنتها إدارة بوش مجرد ذريعة لإتباع سياسة امبريالية أشد عدوانية من ذي قبل، يقول فيليس بينيس على سبيل المثال، أنه نتج عن هذه الهجمات " سياسة خارجية مفروضة على بقية العالم عبر قانون إمبراطوري متسلط" ووصفها ريتشارد فالك " بمشروع الهيمنة العالمية"[35]

إن اعتداءات الحادي عشر من سبتمبر 2001 قد جاءت بعد سنة واحدة من الصياغة العملية لمشروع القرن الأمريكي الجديد، وبعد تسعة أشهر فقط من وصول الرئيس بوش إلى الحكم، وعلى الفور تتحدث الحكومة ووسائل الإعلام عن بيرل هاربر جديدة، وعن حرب عالمية تشمل العالم بأسره ضد الإرهاب، لتغيير التصورات السياسية السائدة حتى الآن في العالم الإسلامي من الأساس. وتطالب حكومة بوش في الداخل والخارج بالتبعية لها دون قيد أو شرط، فمن ليس معنا فهو مع الإرهاب، وتتوالى خطوات الذي أخرجنا عبره من الارهاب الأحمر في إطار الصراع شرق غرب، الى الارهاب الأخضر وأطروحة الخطر الزاحف ألا وهو الاسلام عبر معطى أطروحة الصراع الحضاري.



الهوامش:

([1])- وقعت حادثة الأحد الأحمر في 22 جانفي 1905، عندما فتح رجال البوليس النار على عمال سان بيترسبورغ، بسبب مطالبتهم بجعل ساعات العمل ثماني ساعات، وكانوا ينشدون أهازيج مؤيدة للقيصر. وقد سقط في الحادثة 500 قتيل وثلاثة آلاف جريح بما فيهم الأطفال والنساء.

2- Lénine, op. cit, p 15.

3- Léon Trotsky, **Les crimes de Staline** (Paris : Maspero 1973), P43.

(4)- ادونيس العكره، مرجع سابق، ص 54.

[5] Jacques Baynac, **La Terreur sous Lénine** (Paris : Sagittaire, 1975), P 30.

[6]- Marcel Liebmann, **Le Léninisme sous Lénine** (Paris : du seuil, 1973), P138.

(7)- نشر كاو تسكي كتابا بعنوان " الإرهاب و الشيوعية" رفض فيه أن يتحول مبدأ ديكتاتورية البروليتاريا إلى مبدأ إرهاب للشعب. و قد رد عليه ترو تسكي بكتاب يحمل الاسم ذاته قدم فيه المبررات و الدوافع لاستخدام الإرهاب من قبل السلطة الثورية.

8- Marcel Liebarman,op .cit,p139.

(9)-إسماعيل الغزال، **الإرهاب والقانون الدولي**، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1990)، ص 37.

(10)- نفس المرجع، ص 39.

(11)- نفس المرجع، ص87.

(12)- مجموعة من الباحثين، الإرهاب الدولي بين الواقع و التشويه، مرجع سابق، ص 47.

(13)-عبد العزيز مخيمر عبد الهادي، **الإرهاب الدولي مع دراسة للاتفاقيات الدولية و القرارات الصادرة عن المنظمات الدولية**، ب.ط (القاهرة: دار النهضة العربية، 1986)، ص07.

(14)- يرجع البعض هذا الأسلوب الانتحاري إلى طوائف المحاربين من اليابانيين المعتنقين لتقاليد الساموراي أو لجماعة الحشاشين من الايرانيين الذين تزعمهم كما رأينا الحسن الصباح و الذين انحدروا من طائفة الشيعة الإسماعيلية، و اتخذوا من قلعة الموت في ايران مركزا لهم في القرن العاشر الميلادي و أشاعوا الرعب في العالم الإسلامي.

(15)- مختار شعيب، مرجع سابق، ص 33.

(16)- المرجع السابق ، ص ص 33-34.

(17)- أحمد إبراهيم محمود،" الإرهاب الجديد: الشكل الرئيسي للصراع المسلح في الساحة الدولية" ، **مجلة السياسة الدولية**، العدد147 (جانفي) 2002، ص 44.

(18)- توفيق المصري، "الإرهاب في ميزان القانون الدولي" ، **مجلة شؤون الأوسط**، (شتاء) 2002، ص ص 46-47.

(19)- أحمد إبراهيم محمود، مرجع سابق، ص 46.

- Luigi Condorelli," Les Attentats du 11 septembre 2001 et leur suite: où va le droit international?», **R.G.D.I.P**, vol105, N°04,2002, p829.



(20)– مصطفى الفقي، "العلاقات الدولية بعد الحادي عشر سبتمبر 2001"، **مجلة السياسية الدولية**، العدد 147، (جانفي) 2002، ص ص147–148.

(21)– بطرس بطرس غالي، مرجع سابق، ص 160.

22- Chantal Carpentier,"L'ONU au secours des Etats-Unis", **R.D.N**, N°02, 2002, p 55.
23- Georges Eric Touchard," La cassure du 11 septembre: Eléments d'analyses", **R.D.N**,N°01,2002, pp 24-26.
24- Chantal Carpentier, op. cit, p 56.
25- Ibid, pp 60-61.
26- Louigi Condorelli, op. cit, pp 834-835.

(27)– شفيق المصري، مرجع سابق، ص 51.

28- Noel Koch," Hearings on Terrorism: Interagency conflicts in Combating International Terrorism", **US congress senate committee on Governmental Affairs report**, 2006, p 124.
29- I Bid, p 126.
30- White House, **Rebuilding America's Defenses: Strategy, Forces and Resources for a new century**, **A report of the project for the new American Century**, September 2000, pp07-09.
31- IBid, p 10.

(32)– دافيد راي غريفين، **شبهات حول 09/11: أسئلة مقلقة حول إدارة بوش و أحداث 09/11**،ترجمة مركز التعريب والبرمجة، الطبعة الأولى(بيروت: الدار العربية للعلوم، 2005)، ص 10.

(33)–نفس المرجع.

34- James Bamford, **Body of secrets: Anatomy of the ultra-secret National Security Agency** (New York: Anchor Books, 2002), p 633.

(35)– دافيد راي غريفين، مرجع سابق، ص 14.



حظر المآذن في سويسرا وعلاقته برهاب الإسلام

د. حكار حنان

الجزائر

تقديم:

تعد ظاهرة الخوف من الإسلام التي اصطلح عليها في الغرب "بالإسلاموفوبيا" من الظواهر الحديثة التي اقترنت بتصاعد موجة العنصرية والكراهية ضد الإسلام، فهي صناعة إعلامية وبضاعة سياسية، تضافرت في تضخيمها جهود دوائر كثيرة معادية للإسلام والمسلمين، أراد مروجوها تشويه هذا الدين الحنيف لأغراض ودوافع سيئة، لعل أبرزها الحد من انتشار الإسلام الذي شهد في الربع الأخير من القرن العشرين ولا يزال يشهد إقبالا كبيرا واتساعا متزايدا على اعتناقه في شتى القارات، حيث ثارت حملات معادية في العديد من الدول الغربية والأوروبية بصفة خاصة مست حتى الدول التي عرفت بعلاقاتها الحسنة تاريخيا مع الدول الإسلامية، ومن بينها سويسرا التي ضمت العديد من المبادرات التي هدفت إلى تشويه صورة الإسلام والمسلمين، وأكثر من ذلك السعي إلى تهجيرهم إلى بلدانهم وتضييق الخناق المعيشي عليهم، ومن بين تلك الحملات نجد مبادرة حظر المآذن التي أخذت بعدا دوليا، بعد أن لقيت ترحيبا مجتمعيا كبيرا ينم عن كره وعداء غير طبيعيين للإسلام، أججته دوافع تيارات يمينية متطرفة قادت الحملة واستطاعت في الأخير تضييق الخناق على حرية المعتقد في سويسرا، وخاصة المعتقد الإسلامي.

أولا: التواجد الإسلامي في أوروبا وما يطرحه من تحديات

يتوفر العالم الغربي بكل ما يحمله من تناقضات على العديد من التحديات والتي تصب جميعها في قالب واحد، ألا وهو التنامي المتزايد للتواجد الإسلامي في الغرب لاسيما القارة الأوروبية، والتي أصبحت معتركا دائما لقضايا المقاربة للهوية الأوروبية وعلاقتها بالإسلام، وهو ما يفسر تنامي المظاهر السلبية تجاه الإسلام والمسلمين، والتي يمكن طرحها في ثلاث نقاط رئيسية:

1- **سياقات وبنى: (Context And Structure)** وتتمثل في مجموع المؤسسات والمراكز



الكفيلة بتوفير نمط حياة معينة لمسلمي أوروبا سواء منهم اللاجئين أو حتى المسلمين ذوي الأصول الأوروبية، وما يعيشه هؤلاء من اقصاءات وتهميش وهضم للحقوق والحريات، وتصاعد الخطابات العنصرية...

2-اتجاهات سلوكية: (attitudes) وهي مجموع الميول الداخلية في الإدراك والفكر والعاطفة والإرادة التي تحرك بعض الأوروبيين وتكيف رؤيتهم لأنفسهم، وفي المقابل من ذلك رؤيتهم لغيرهم من المسلمين والتي يكتنفها عادة الكراهية والاستنكار والحقد والعنصرية.

3-سلوكيات: (Behaviour) وتشمل مجموع الأفعال وردود الأفعال الموجهة ضد المسلمين، خاصة حملات التضليل سواء للمسلمين أنفسهم أو حتى تلك التي تستهدف العالم الخارجي ونظرته للإسلام، وكذا حملات تدنيس المواقع الرمزية (كالمساجد والمقابر...)، ومظاهر القمع والتقتيل وغيرها ...

وبالتالي يمكن القول أن هذه المظاهر وللأسف تتزايد وتتنامى بتنامي التواجد الإسلامي في حد ذاته، وجل الأحداث التي شهدتها القارة الأوروبية في القرن الواحد والعشرين شاهدة على ذلك، وعموما يمكن توصيف مظاهر مواجهة الإسلام والمسلمين في أوروبا في أربع صور أساسية وهي:

1-معادادة الإسلام (anti-islam-ism) :

وغالبا ماتعد هذه الظاهرة من أخطر مظاهر المواجهة بين الطرفين لكونها ناجمة عن أسباب دينية أو إيديولوجية مترسخة في ذهنيات معينة، ومن الصعب تغييرها أو العدول عنها لكونها تمتاز بالثبات والديمومة.

2-معاداة ما يسمى بالاسلاموية (أو ما يعرف بالإسلام السياسي) :

(anti-islamism) وهذه الظاهرة ناجمة بطبيعة الحال عن الأصولية العلمانية.

3-رهاب الإسلام أو ما يعرف بالاسلاموفوبيا(Islamophobia):

حيث احتلت هذه الظاهرة حيزا كبيرا في الفكر الأوروبي في القرن الواحد والعشرين خاصة، وليس هو فحسب بل حتى الشارع العربي هو الآخر تأثر بهذه الظاهرة، سواء بتعداد مختلف المؤتمرات

والندوات التي عقدت بهذا الشأن، أو حتى تجلي هذه الظاهرة في بعض الأوساط التي تعرف بالانفتاحية والتوجه نحو الأفكار الغربية، ورفض واستنكار بعض المعتقدات الإسلامية التي يصفونها بالمتشددة، في حين تعتبر من

صميم الإسلام وروح معتنقيه، وعلى سبيل المثال نجد التخوف من المنقبات أو أصحاب اللحى وغيرها من المظاهر الأخرى، والاسلاموفوبيا أو الخوف من الإسلام تكون إما ناجمة عن جهل حقيقي وفعلي بالإسلام أو مرتبطة بعوامل نفسية وتاريخية تتعلق بجروح جماعية حديثة أو قديمة أهملت فلم تندمل [1]

4-نقد الإسلام: (Islam-Critisme) وهي من أكثر مظاهر التعامل مع الإسلام والمسلمين عقلانية بالنظر إلى أنها تستند إلى أسس واعية، وهذا النقد إما أن يكون سلبيا هداما أو إيجابيا بناءا، وفي كلا الحالتين تكون أسبابه مقنعة ومبنية على واقع معين دون الخوض في متاهات الحقد والكراهية غير المبررتين، والتي تحكمها عادة أسباب تاريخية واهية. [2]

ثانيا: واقع الاسلاموفوبيا في الغرب

حيث نجد أنه ومنذ كتب المستشرق الغربي " صامويل هنتجتون " بقوله: " إن مشكلة الغرب ليست مع الأصولية الإسلامية بل مع الإسلام"، ظهرت موجة من الأفكار الاستشراقية قادها إعلاميون وسياسيون وكتاب ورجال الدين المسيحيين، تدعوا إلى أخذ الحيطة والحذر من المسلمين، واعتبارهم تهديدا للدولة والمجتمع، والملاحظ في الأمر أن العدائية ضد المسلمين لم تحملها الأنظمة والأحزاب السياسية فقط بل حملها الأفراد والأسر أيضا، لتصبح قضية مجتمع بالكامل ، وظاهرة الرهاب من الإسلام أخذت منهجا جديدا مختلفا عن المنهج القديم منذ الحروب الصليبية، وعززه هذه المرة انتشار وسائل الإعلام والانترنت وشبكات التواصل الاجتماعي[3]، ومن خلال الجدول التالي الذي نشرته منظمة التعاون الإسلامي، سيتم توضيح بعض الشعارات والعبارات العدائية التي انتشرت بسرعة في أوساط المجتمعات الأوروبية، وكيف كان التفاعل المجتمعي معها .

الجدول رقم (1): واقع انتشار بعض العبارات العدائية حول الإسلام

الحملة المعادية	الدانمارك	بريطانيا	فرنسا	هولندا	ايطاليا	البرتغال	بولندا	المجر
كثرة المسلمين	%46.1	44.7%	36.2%	41.5%	49.7%	27.1%	47.1%	60.7%
المسلمون لهم مطالب أكثر من اللازم	54.1%	50%	52%	51.8%	64.7%	34.4%	62.3%	60%
الإسلام دين التعصب	%52.5	47.2%	52.3%	46.7%	60.4%	62.2%	61.5%	53.4%
توجهات المسلمين اتجاه المرأة تتعارض مع قيمنا	%76.1	81.5%	78.8%	78.2%	82.2%	72.1%	72.1%	76.8%
يجد غالبية المسلمين الإرهاب مبررا	%17.1	26.3%	23.3%	19.9%	21.5%	22.4%	26%	29.6%

المصدر: التقرير الخامس لمرصد منظمة التعاون الإسلامي بشأن ظاهرة الاسلاموفوبيا، الدورة التاسعة لمجلس وزراء الخارجية، جمهورية جيبوتي، 15-17 نوفمبر 2012، ص.12.

وهناك العديد من التقارير والمقالات لمؤلفين غربيين تبين من جهة واقع الرهاب من الإسلام، ومن جهة أخرى تؤسس لبناء مواقف عدائية في أوساط المجتمعات الغربية المعاصرة، فمثلا نجد مقال بعنوان: الرياح المريضة للفاشية الإسلامية " بقلم الكاتب الصحفي الأمريكي(**جيمس كارول James carooll**) الصادر بتاريخ **21** جانفي **2008** بمجلتي (**بوسطن غلوب وانترناشيونال هيرل تريبيون**) يبين فيه مدى تفاعل المجتمع المسيحي مع قضية الإسلاموفوبيا – بما لا يخدم القضية مؤكدا –، وفي صحيفة **نيويورك تايمز** نشر مقال للكاتب (**نواه فيلدمان Noah Feldman**) يقول فيه " يبدوا أن هناك شيئا فضيعا يحدث في البلدان الأوروبية اليوم، فالمقولات القديمة المعهودة ضد المهاجرين من قبل أنهم مجرمون، وأن ثقافتهم تجعلهم غير مناسبين ، وأنهم يقتنصون الوظائف من السكان الأصليين، تغذي تعصبا معاديا للإسلام أخذ يكتسب صبغة مؤسسة

في سياسات القارة العادية "، وتمت فيه الإشارة إلى بداية تجسيد الأقوال في الأفعال العدائية المباشرة ضد الجالية الإسلامية في الخارج، وكيف أن قضيتهم أصبحت من ضمن أجندات سياساتهم اليومية.

وفي تقرير آخر لشبكة برامج التلفزيون وصحيفة (**Nederlands Dagbold**) ب**هولندا** يشير إلى أن حوالي **65%** من الهولنديين يوافقون على وجوب إيقاف بناء المساجد الكبيرة، وأن معظمهم متخوفون إزاء انتشار الإسلام ببلادهم وتقويض المسيحية، وبعيدا عن التقارير وإصدارات الصحف أعطت الشعارات ضد المساجد والمراكز الإسلامية هي الأخرى مظهرا من واقع ظاهرة الرهاب من الإسلام عند المجتمع الغربي، ففي أحد المراكز الإسلامية بمدينة " **ماين**" الأمريكية كتب شخص ما بشارع " **أندرسين** " ب " **بورتلاند**" يوم **2011/05/2** على جدار الواجهة الأمامية للمركز يقول فيها " أسامة اليوم، الإسلام غدا، اذهبوا إلى دياركم "، فهذا الشعار أصبح حديث كل الشعوب الغربية التي تخلط بين الإسلام كديانة وبين الأشخاص الذين ارتبطوا بهذا الدين بطريقة أو بأخرى، وتجسيدا للأفعال العدوانية نتيجة الخوف من الإسلام أصبحت المساجد هي الأخرى عرضة للتهديد والتخريب، ومثال ذلك ما وقع لمسجد " **بوسيير** " بالولايات المتحدة الأمريكية والذي تعرض للعبث وتلطيخ أبوابه وجدرانه بدماء الخنازير ، وفي اليونان هي الأخرى تعرض مسجد آخر ب " **كاليتا** " للتخريب من طرف مجهولين سنة **2011**، بالإضافة إلى أحداث المئذنة في سويسرا- والتي سيتم التطرق إليها بالتفصيل لاحقا -.

وقد أصدر مركز التقدم الأمريكي تقريرا مفصلا يوم **26** أوت **2011** يتكون من **130** صفحة بعنوان " مؤسسة الخوف : جذور شبكة الإسلاموفوبيا في أمريكا " كشف عن أكثر من **42** مليون دولار تم تمويلها من طرف سبع مؤسسات[4]، من أجل تأجيج الصراع وتغذيته بين المسلمين وغيرهم من المواطنين الأمريكيين، وعليه فقد تعدت مسألة الاسلاموفوبيا التجنيد الشعبي فقط لتصل إلى مسألة التجنيد الاقتصادي، والذي يعد أخطر بكثير من سابقه كونه يعمل على تهيئة كافة السبل والمستلزمات لأجل تأجيج الصراع وتغذيته . [5]

ثالثا: التواجد الإسلامي في سويسرا

تعد سويسرا مخبرا للتعايش بين الشعوب والثقافات، وبؤرة للثراء والمال في أوروبا، فهي البلد الذي لم يخض حربا منذ ثلاثمائة عام تقريبا، الأمر الذي ساهم في ازدهارها واستقرارها، وإعطائها



جاذبية خاصة بأعين المهاجرين المسلمين إلى أوروبا، الذين تنوعت أسبابهم للاستقرار فيها، منها البحث عن فرص العمل المأمونة، أو اللجوء السياسي والإنساني فرارا من قضايا تلاحقهم ببلدانهم الأصلية، أو استكمالا لمشاريع بحثية أو للدراسة فيها، حيث تستقبل سويسرا سنويا الآلاف من الطلبة المسلمين بالإضافة إلى رجال الأعمال.

ونتيجة لتيارات الهجرة التي شهدتها المنطقة ظل عدد المسلمين في تزايد بشكل ملحوظ ، فبينما لم يتجاوز عددهم **16** ألفا عام **1970** تطور بحلول **1980** ليصل إلى **56** ألفا، ثم إلى **152** ألفا كما أوضح التعداد العام للسكان في عام **1990** ليبلغ بحلول سنة **2009** حوالي **400** ألفا ، ويرتبط الحضور الإسلامي بالمدن السويسرية الكبرى، ففي العاصمة بيرن يعيش حوالي **25** ألف مسلم، وهناك حوالي **17** ألفا في زيورخ والتي تعد أشهر مدينة في سويسرا و**11** ألفا في لوزان، التي افتتح مركزها الإسلامي عام **1983**، وتستقطب جامعاتها الكبرى عددا كبيرا من الطلاب المسلمين ، ويوجد قسم كبير منهم في جنيف التي تعد مركز تواجد كبير للإفريقيين والعرب، ورغم حداثة الوجود الإسلامي في أوروبا إلا أن العلاقة بين سويسرا والإسلام قديمة ، فقد كانت الدراسات الشرقية قناة هامة للاتصال بين المثقفين السويسريين والثقافة العربية والإسلامية، فأول ترجمة لاتينية لمعاني القرآن الكريم طبعت في مدينة بازل السويسرية عام **1543**م، أي بعد أربعة قرون من إنجازها. (6)

رابعا: استفتاء حظر المآذن في سويسرا

يرجع الجدل الدائر حول بناء المآذن إلى سنة **2007**، حيث تقدم العديد من المسلمين حينها بطلبات في العديد من المدن السويسرية بالسماح لهم ببناء مآذن، وقد واجهت هذه الحملة استنكارا قويا من طرف المواطنين السويسريين، قاموا على إثرها بجمع توقيعات لوقف خطط البناء معتبرين القضية سياسية بالدرجة الأولى وواصفين المآذن بأنها تعبر عن رمز للقوة الإسلامية والتطرف. (7)

وقد خاض مؤيدو حظر بناء المآذن في سويسرا في الأشهر التي عقبت الاستفتاء العام حملات تعبئة واسعة، تستخدم شعارات ذات طابع عنصري تعتمد على الإثارة والتهويل ضد المسلمين، حيث شملت كل المدن السويسرية، وكان مفاد اغلبها إعلانات جدارية تمثل رسم لخريطة سويسرا وقد اخترقتها مئذنة، وفي بعضها عدد كبير من المآذن السوداء المرتفعة فوق العلم السويسري، المرسومة وكأنها صواريخ تخترق الخريطة السويسرية، وهو ما يصرح بشكل مباشر إلى الترهيب

من اختراق الهوية الإسلامية للدولة السويسرية، ليس هذا فحسب بل اعتمدت الحملة صورا أخرى لامرأة منقبة متشحة بالسواد[8]، بجانب المآذن السوداء هي الأخرى، وكانت حملة المرأة المنقبة بداية للقرار الذي صادق عليه البرلمان السويسري بمنع ارتداء النقاب في **28** سبتمبر **2011.** [9]والتي تعتبر هي الأخرى وجها من أوجه الاضطهاد للرموز
العقائدية والتي تتجاوز كافة حقوق الإنسان التي يتغنى باحترامها الغرب. [10]

وكانت نتيجة الاستفتاء مفاجئة للجميع، حيث أنه وقبل بداية الاستفتاء أعرب سبر للآراء في أوساط الشعب السويسري عن نسبة **53 %** رافضين لقانون حظر بناء المآذن، إلا أن الاستفتاء الفعلي جاء بنتائج كارثية كانت لها تداعيات وردود فعل مختلفة – سيتم التطرق إليها لاحقا – ، إذ أسفر عن نسبة **57.5%** مؤيدين لقرار الحظر، وهو ما يعني الحظر الفعلي بقوة الديمقراطية الشعبية، التي كانت هذه المرة وككل مرة تقريبا في صالح اليمين الشعبوي، وأعلنت الحكومة السويسرية في بيان رسمي صادر بعد أربع ساعات من إغلاق مراكز التصويت في إطار الاستفتاء الذي شارك فيه السويسريون أن: " بناء المآذن بات محظورا في سويسرا " موضحا أن المآذن الأربعة الموجودة أصلا غير معنية بهذا القرار[11]، في حين رفضت أربع كانتونات فقط من أصل **26** يتألف منها الاتحاد السويسري الاقتراح الذي حظي بدعم حزب اليمين الشعبوي والحزب المسيحي اليميني (الاتحاد الديمقراطي الفيدرالي)،وقد أدى التصويت إلى تعديل المادة **72** من الدستور التي تحكم العلاقات بين الدولة والديانات وذلك بإدراج حظر بناء المآذن على أنه: " إجراء يرمي للحفاظ على السلام بين أفراد مختلف المجموعات الدينية "[12]، وحسب النتائج النهائية يتصدر قائمة المعارضين كانتون أبنزل –انيرهوذن نسبة **71.5%** متبوعا بغلاروس وسانت غالن ، بينما تراوحت النسب في كانتوني غورا وفريبروغ ولننبين **51** و **55%**[13]، وبذلك فإن قضية حظر المآذن في سويسرا أثبتت أن موضوع المظاهر الإسلامية في الغرب أصبح محل اهتمام واسع في السنوات الأخيرة، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وهذا يشير إلى أن الأمر لم يعد يقتصر فقط على الحركية الإسلامية (الإسلام السياسي)، وإنما الأمر امتد ليشمل رموز الهوية الإسلامية في حد ذاتها، والمبادرة السويسرية توضح أن النقد هذه المرة يطال كل ما يحيل إلى الإسلام كمرجعية دينية، وليس بالضرورة يتعلق بالمسلمين أنفسهم، بل يمكن أن يستهدف مجرد رمز معماري يشير إلى الديانة الإسلامية مثل المئذنة. [14]

خامسا: ردود الفعل تجاه نتائج استفتاء حظر المآذن

شكلت نتائج الاستفتاء العام لحظر بناء المآذن في سويسرا صدمة مجتمعية كبيرة، سواء في أوساط المسلمين في سويسرا[15] أو غيرها من دول العالم، وأكدت كلها تقريبا على أن القرار يشكل ضربة لحرية الأديان والتسامح في الدول الأوروبية، التي طالما تغنت باحترامها لحقوق الإنسان ومعتقداته وحرياته الأساسية، وكانت أولى ردود الفعل الدولية التي ناهضت قرار الحظر أصحاب الديانات الموازية منها المسيحيين، إذ اعتبر الفاتيكان أن الحظر يبعث على القلق ويشكل تهديدا مباشرا للديانات ككل، حيث صرح رئيس المجلس البابوي للمهاجرين المونسونيور **أنتونيو ماريا فيليو** **Antonio Maria Filho** "أنه متفق مع الخط الذي تبناه الأساقفة السويسريون الذين أعربوا عن قلقهم العميق لما وصفوه ضربة قاسية للحرية الدينية وللاندماج بشكل عام"، وذلك وفقا لما نقلته وكالة " آكي " الايطالية للأنباء ، وبحسب نفس الوكالة صرح أيضا: "نحن المسيحيين لا يمكن أن نقبل منطق الاستعباد إذا كان أحد يريد أن يكون كاثوليكيا فيجب أن يكون منفتحا على الآخرين" ، وقد ربط هذا الأخير بين قرار الحظر والقرار الصادر عن المحكمة الأوروبية حول منع وضع الصلبان في ايطاليا، "كلا الموقفين يقومان على أساس الاعتقاد الخاطئ بأن الدين ينبغي أن يكون مجرد مسألة خاصة، وبالنسبة للمسيحي فهذا غير ممكن...، علينا أن نفتح نقاشا واضحا لأن المجتمع مضطرب ، وهناك تناقض في كافة المجتمعات الأوروبية "[16]، كما أخذت بعض الدول الأوروبية موقفا مناهضا لقرار الحظر، حيث دعا برلمانيوا مجلس أوروبا بالإجماع في اختتام مناقشة حول " التيار الإسلامي المتشدد وكره الإسلام" سويسرا إلى إلغاء قرارها بشأن حظر بناء المآذن، وأوضح البيان أن بناء المآذن يجب أن يكون ممكنا على غرار أجراس الكنائس، مع احترام ظروف الأمن العام وكيفية تنظيم المدن".[17]

وفي ايطاليا وصف وزير الخارجية الايطالي " **فرانكو فراتيني** **Franco Frattini**" قرار سويسرا حول حظر المآذن بأنه مثير للقلق، وقال نحن ندافع عن حقنا كايطاليين بوضع الصلبان في الصفوف المدرسية، لذلك ننظر بعين القلق إلى رسائل من هذا النوع تؤكد على الاختلاف أو تدعو إلى الحظر حيال الأديان الأخرى كالدين الإسلامي...، وفي ألمانيا وصف مسؤول في حزب المستشارة "**أنجيلا ميركل** **Angela Dorothea Merkel**" نتيجة الاستفتاء السويسري بأنه

مؤشر لاتساع نطاق الخوف من أسلمة المجتمع، فيما أعربت أحزاب المعارضة أن الحرية الدينية لا ينبغي أن تخضع لاستفتاء.

وفي فرنسا صرح وزير الخارجية الفرنسي "**برنار كوشنير Bernard Kouchner**" أن حظر بناء المآذن يعبر عن عدم التسامح ، قائلا في تصريح لإذاعة " آر تي ال ": إنه إذا كنا لا نريد بناء مآذن فهذا يعني أننا نقمع ديانة في حد ذاتها.

أما عن العالمين العربي والإسلامي فقد كانت ردود الأفعال تسير في الاتجاه نفسه، إذ انتقد المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم عبد العزيز التويجري نتيجة الاستفتاء معتبرا أنه يعبر عن روح ضيقة وغير متسامحة أما الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي أكمل الدين حسان أوغلو فقد أكد أن تأييد منع بناء المآذن في سويسرا، يمثل " نموذجا جديدا من العداء للمسلمين في أوروبا "، وفي مصر اعتبر مفتي الديار المصرية علي جمعة أن نتيجة هذا الاستفتاء بالإهانة التي طالت كل المسلمين في العالم بصرف النظر عن المسلمين في سويسرا "[18]، كما أكد رئيس اتحاد المنظمات الإسلامية في سويسرا أن الأمر أصبح ضد الإسلام في المقام الأول وليس ضد المسلمين كأفراد "، واستند في ذلك إلى تصريحات أعضاء اللجنة المؤيدة لحظر المآذن، وهو أمر يدعو للقلق، لأنه يهدف إلى التفريق بين الإنسان ومعتقداته، فالمسلم إذا ابتعد عن دينه فلن تكون له هوية أو شخصية أو ثقافة إسلامية " وأكد أن كل تلك المبادرات تهدف إلى إفراغ المسلم في أوروبا من معتقداته." [19]

وقد انتقد التقرير السنوي الذي تصدره وزارة الخارجية الأمريكية حول حقوق الإنسان في العالم سنة **2010** سويسرا بشدة واتهمها بكونها " أسوء نموذج للتمييز ضد المسلمين في أوروبا "، وذلك في الفصل المخصص للأوضاع في سويسرا، حيث يشير التقرير أيضا إلى التجاوزات التي ترتكبها الشرطة السويسرية وإلى استخدامها المفرط للقوة لكن هذه الممارسات تظل دون عقاب خاصة تجاه المسلمين هناك. [20]

وجدير بالذكر أن الحكومة السويسرية هي الأخرى وقفت موقفا معارضا للمبادرة واعتبرتها لا تعبر عن طبيعة النظام السويسري، إلا أن رأيها في الأخير لا يمكنه أن يغير في الأمر شيئا، بالنظر إلى أن الإرادة الشعبية في سويسرا بإمكانها أن تغير وتصدر أي قرار مهما كانت الحكومة معارضة له، حيث صرحت وزيرة الخارجية السويسرية " **ميشلين كالمي Michelin Calmy**" :

أن النقاش حول حظر المآذن " لم يكن نزيها" وأوضحت أن " الجهات المسؤولة عن الاستفتاء استخدمت الكذب والخوف وأعطت انطباعا بأن مئات المآذن ستبنى في سويسرا " .[21]

سادسا: حزب الشعب السويسري اليميني (SVP) ومبادرة حظر المآذن

هو الحزب الأكبر في الائتلاف الحاكم معروف بحملاته سيئة السمعة، إذ لم تكن قضية حظر المآذن القضية الأولى التي يقف موقفا مناهضا لها فحسب بل سبقه العديد من القضايا نذكر منها أحداث انتخابات **2007** البرلمانية، إذ أثار الحزب ضجة كبيرة بسبب نشره ملصقا يحمل صورة خراف بيض تركل آخر أسودا يسير وحيدا في القطيع، وهي تعبر بشكل مباشر عن تمييز عنصري يستهدف ترحيل المهاجرين الذين تكررت إدانتهم بجرائم عنف، ورغم أن هذه القضية لم تحظى بالاهتمام قدره الذي حضيت به قضية حظر المآذن ولم تطرح كمبادرة للاستفتاء إلا أنها منحت الحزب انتصارا ساحقا في انتخابات ذلك العام، وذلك بنسبة 29 % من الأصوات، المؤكد هنا أن القضايا الساخنة التي يطرحها الحزب ويدافع عنها ما هي إلا أوراق انتخابية لا أكثر ، يستهدف من خلالها الوصول إلى سدة الحكم وحسب.

بالإضافة إلى تقدمه باقتراح آخر سنة **2008** يقضي بمنح الشعب لا الحكومة القول الفصل في إجراءات التجنيس، وملصقات الحملة هي الأخرى حملت العديد من مظاهر التعسف والعنصرية المبالغ فيها، حيث كانت تجسد صورة لخمس أيادي سوداء تجذب كومة من جوازات السفر السويسرية، غير أن هذه المبادرة هذه المرة لم تكن نتائجها متوقعة، وكانت صفعة في وجه الحزب بعدما صوت **63%** من المواطنين ضدها.

والحزب كما أوردته مختلف المصادر الناقدة لأدواره في النظام الحاكم السويسري قد استغل بصورة أو بأخرى – سواء تعلق الأمر بقضية المآذن أو غيرها – مبدأ الديمقراطية المباشرة، لفرض أجندته المعادية للمهاجرين بصفة عامة والمسلمين بصفة خاصة، كون المواطنون السويسريون لهم الحق في اقتراح قوانين جديدة وما على البرلمان إلا المصادقة عليها مهما كان الشأن، كل ما يحتاجونه هو عريضة موقعة من طرف مليون شخص وبها تمرر القوانين مرور الكرام على أي سلطة داخل البلد حتى ولو كانت سلطة الرئيس،[22] وحتى يمكن تقديم تحليل منطقي للربط بين قضية حظر بناء المآذن، وغيرها من القضايا التي مست المسلمين في الأوساط الأوروبية، وبين ظاهرة الاسلاموفوبيا أو التخوف من الإسلام ينبغي تحديد المصدر الأكبر للعداء تجاه المسلمين

من خلال خطابات أقصى اليمين المتطرف، والتي كانت جلها وراء المبادرات المغرضة التي طالت الدين الإسلامي في الغرب.

سابعا: خطاب اليمين المتطرف وعلاقته بالحملات المغرضة تجاه المسلمين

لقد أصبحت ظاهرة الاسلاموفوبيا واقعا معاشا في الغرب وخاصة الدول الأوروبية التي كانت مهدا لهذه الظاهرة، ولا يتعلق الأمر بمنظومة القوانين المجحفة التي تطال المواطن المسلم يوميا، ولكن اتسع الأمر ليصبح واجهة للخطابات السياسية والإعلامية، وأي مشروع تطرفي يراد تمريره يكفي أن يرتبط بالإسلام والمهاجرين المسلمين حتى يصبح أمرا عاديا ومقبولا، حتى من قبل منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان وحرياته الأساسية بمسوغات واهية تتعلق باحترام حرية الرأي والتعبير، حيث تؤكد كافة التقارير الأوروبية نفسها من قبيل تقارير المكتب الأوروبي حول الحقوق الأساسية أن واحدا من ثلاثة مسلمين في أوروبا يتعرض للتمييز العنصري، وعليه فقد كانت أحزاب اليمين أولى الجماعات التي تبنت الخطابات العنصرية والمتطرفة ضد الإسلام والمسلمين، حيث أكد **زيكيت (j.p.zuquete)** في دراسته " اليمين الأوروبي المتطرف والإسلام" أن هذه الأحزاب معادية للإسلام، وأنه طوال العشريتين الماضيتين كان أحد أهم انشغالاتها ما تعتبره التهديدات المنبعثة عن الإسلام والمسلمين المقيمين في أوروبا ".[23]

وبالتالي فما كان أمام حزب الشعب اليميني السويسري ساعة بلوغه السلطة سوى العمل على تأجيج هذه الخطابات وتحريض الرأي العام السويسري بشأنها، فهو يعد أداة لتنفيذ المخطط الليبرالي المعادي للإسلام منذ القدم، حيث لم تكن قضية المآذن هي الشاغل الوحيد في أجندة الحزب المتطرفة، وإنما طالت العديد من رموز الهوية الإسلامية كحظر ارتداء النقاب، وتشديد إجراءات التجنيس وتصاعد الخطابات العنصرية ضد اللاجئين المسلمين في الدول الأوروبية بصفة عامة، وإخضاعهم للرقابة الدائمة والمشددة لاسيما في المطارات، على اعتبار أنهم يمثلون تهديدا حقيقيا لأمن الدول الأوروبية، وما زاد الطين بلة وزاد القضايا تعقيدا هو تصرفات بعض المسلمين الخاطئة، والتي تمثل جانبا عنصريا لا يمت بصلة للإسلام وتعاليمه، ولا يعبر عن الهوية الإسلامية السمحة التي تقوم على مبادئ الإحسان والتعايش وقبول الآخر...، فكانت مظاهر التعنت والتمرد التي صبغت بعض التصرفات للجالية المسلمة في الخارج صورة دعائية أخرى لتزايد مظاهر الكره والعداء لهم.



ثامنا: علاقة حظر المآذن برهاب الاسلاموفوبيا في سويسرا

إن إجراء حظر المآذن في سويسرا راجع إلى تنامي ظاهرة الخوف المرضي (الاسلاموفوبيا) في أوروبا بأسرها، وسويسرا من بينها، حيث تغذي جهات معينة مشاعر الخوف من الإسلام في أوروبا تارة تحت مزاعم الحفاظ على الهوية الوطنية والعلمانية الغربية ...، وتارة أخرى بإثارة الخوف من انتشار الإرهاب الإسلامي داخل القارة الآمنة...– حسب زعمهم –، وفي سبيل ذلك تقوم تلك الجهات بطرح قضايا ذات صلة بالشأن الإسلامي على الرأي العام الأوروبي لتحقيق تلك المآرب، ومن هنا أثيرت قضية الحجاب في فرنسا، والتي انتهت إلى منع ارتدائه في الأماكن العمومية والمؤسسات التعليمية ...، ثم أثيرت قضية ارتداء النقاب في ايطاليا، والتي انتهت هي الأخرى إلى سن قانون يمنع ارتدائه في بعض مقاطعات الشمال، ثم جاءت بعد ذلك الحالة السويسرية داعية إلى حظر بناء المآذن، وعليه يمكن القول أن المسبب الرئيسي للأزمة السويسرية وغيرها من الأزمات الأوروبية الأخرى هو مسألة التعارض في القيم فيما يخص العلاقة بين الإسلام والقارة الأوروبية (وهذا الأمر يأخذ صيغ متعددة سيتم التطرق إليها لاحقا)، ويظهر ذلك في صورتين:

1–التعارض بين الحق في حرية الرأي والتعبير والحق في احترام المقدسات، أو بصيغة أخرى أصح واجب احترام المقدسات وثوابت الدولة، حيث ظهر ذلك جليا في أزمة الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم التي نشرتها صحيفة يولاندس بوستن الدانمركية في **30** سبتمبر **2005**، وفي أزمة فيلم فتنة الذي أنتجه السياسي الهولندي " **غيرت فيلدرز Geert Wilders** " وأصدره على الانترنت في **27** مارس **2008**، والحالة السويسرية تعبر عن هذا النوع من التعارض، ففي الوقت الذي ثار فيه المجتمع برمته لأجل المطالبة بحق حرية التعبير عن رأيهم في منع بناء المآذن على اعتبارها رمزا سياسيا محض يعبر عن السيطرة والتسلط ، تجاهلوا واجبهم في احترام مقدسات الغير.

2–أيضا مسألة التعارض بين الحقوق الديمقراطية من جهة، وحقوق الإنسان من جهة أخرى، أو بين الإرادة الشعبية والتزام الدولة القانونية على الصعيد الدولي، وموقف الحكومة السويسرية الذي أعربت عنه من خلال استيائها من المبادرة الشعبية التي أقدم على رعايتها حزب الشعب السويسري ، ورغم ذلك كانت مضطرة لقبول نتائج الاستفتاء العام، وقبول المبادرة الشعبية وما أسفرت عنه. (24)

وقد تبلور بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر اتجاه في الغرب يلقي مسؤولية ما حدث في 11 سبتمبر 2001 على ما يسمونه البيئة الفكرية والفقهية التي ترعى نشوء الإسلام الجهادي الذي جنحت أبرز فصائله إلى ممارسة الإرهاب، فادعى بعضهم أن هذه البيئة تكمن في صميم التعاليم الإسلامية ، وحاول من خلالها أن يخلط بين كفاح المسلمين لمقاومة الاحتلال وحق تقرير المصير في فلسطين والعراق والشيشان وبين العمليات الإرهابية التي تستهدف المدنيين والتي وصل بعضها إلى مستويات إجرامية لا تبرير لها في أي شريعة أو دين، وقد تحول شعار مكافحة الإرهاب علميا إلى إيديولوجية أمريكية جديدة مع المحافظين الجدد، أعلنت فيها الحرب على محور الشر الذي هو في غالبيته يتمثل في المسلمين، بعد أن كان لسنوات طويلة يتمثل في المعسكر الاشتراكي حسب منطق المحافظين الجدد، وبفعل هذه السياسة الجديدة لإدارة **جورج بوش** الابن تحولت الحرب على الإرهاب إلى حرب على الإسلام، وظهر مصطلح " الاسلاموفوبيا" ليعبر عن ظاهرة الخوف المرضي من الإسلام، والذي تحاول بعض الدوائر المعادية في الغرب فضلا عن المؤسسات الصهيونية عموما تعميمه وتسويقه. [25]

وقد حاولت العديد من القيادات السياسية الغربية وحتى العربية استثمار أحداث الحادي عشر من سبتمبر لمصلحتهم السياسية ، ومحاولة الإدلاء بالتصريحات العبثية التي أرادوا من خلالها ترهيب الناس من أهل الالتزام والتدين بين المسلمين، وساعدهم في ذلك فرض قوانين وأنظمة لمحاربة مظاهر التميز الإسلامي[26]، والأمر ليس بالبساطة التي يعتقدها البعض فالعقل الغربي العدائي للمسلمين قد تشكل عبر التاريخ بفعل عوامل عدة كان أبرزها الإعلام الدعائي والحملات المغرضة التي طالت مختلف الرموز الإسلامية من قبيل المآذن، والمفارقة أن الكنائس المسيحية وأبراجها وطبولها لم تطلها أي من هذه الادعاءات والحملات على الرغم من أن شكلها هو أقرب للترهيب من المآذن الإسلامية، لكن دائما يبقى هناك فرق في التعاطي مع القضايا الدينية خاصة إذا تعلق الأمر بالإسلام والمسيحية[27]، فكيف لنا أن نتصور عندما ينشأ الطفل الغربي على المقررات والكتب الدراسية التي تصف الإسلام بدين يحض على القتل، ولا ينصف المرأة وأن بلاد المسلمين بلاد بدائية تعتمد على الصحراء والخيام، وهم عبارة عن أناس همجيين وعندما يشاهد الطفل الغربي الأفلام السينيمائية سيجدها تتحدث عن المسلمين على أنهم أساس الإرهاب، وعندما يحدث أي حادث إرهابي على مستوى العالم خصوصا في دولهم الغربية سيجد من يخبره من خلال

النشرات الإخبارية والبرامج التلفزيونية أن وراء الحادث الإرهابي جماعات إسلامية متطرفة، وبالتالي كيف يمكن تصور هذا العقل الغربي الذي تشكل من كل هذه الثقافات والموروثات منذ الصغر أن يكون منصفا في عرضه للدين الإسلامي أو الحديث عنه، أو قبول رموزه كالمآذن والمقابر وارتداء الحجاب... [28]، وعليه فإن تلك المواقف الناقدة والمعادية للإسلام والتي تكمن خلفها إيديولوجية أو مصالح معينة تلتقي برأي عام لا يستطيع أن يقدر مصدرها كما أنه نفسه مشحون بمشاعر عدائية تجاه هذا الدين، عداء نلمسه حتى في وسائل الإعلام الجادة ، وغالبا ما تتخذ مشاعر العداء هذه طابعا مسيحيا محافظا وتعتمد من أجل توصيف موقفها مصطلح التنوير مؤكدة تنورها وغيابه لدى الآخر المتمثل في المسلمين. [29] وبناء على ما تقدم فإن الإسلاموفوبيا لا تخرج عن كونها تحويرا عظاميا بارانويديا (فيما يعرف بجنون العظمة) للعداء الغربي للإسلام والمسلمين، حيث تدرك الاستخبارات الغربية العاملة على تأجيج هذا العداء أن غالبية الدول الإسلامية مشرعة الأبواب أمام مصالحها ومخابراتها على حساب شعوب مسلمة تنهب ثرواتها وتحتل بلدانها دون أن تملك مجرد حق الاعتراض على هذا الواقع. [30]

وبالتالي يمكن القول أن دراسة قضية حظر المآذن في سويسرا بمعزل عن مناخها الأوروبي المتكامل يشكل وجهة نظر غير منطقية وناقصة، وهذا ما سيتم التطرق إليه من خلال العنصر الموالي:

تاسعا: المأزق السويسري وامتداده الأوروبي

إن المطلب السويسري بحظر بناء المآذن شكل صدمة للعديد من الدول ومرتادي هذه المنطقة، خاصة أن سويسرا لطالما حافظت تاريخيا على علاقات محايدة، وشكلت الوجهة الأولى للعديد من أثرياء العرب والمسلمين، كما أنها لم تعرف سابقا الإسلام الراديكالي المتشدد، فجنيف ليست لندن وبرن ليست مارسيليا من حيث أهمية الجالية المسلمة وغلو مطالبها، كونها من أكثر الجاليات المسالمة التي عرفتها الدول الأوروبية، فهي تتكون في جانب كبير من مواطني البلقان (كوسوفو – ألبانيا– البوسنة)، ثم بدرجة ثانية من الأتراك ، ثم قلة من المسلمين العرب والأفارقة والآسيويين.

والمعروف تاريخيا عن الإسلام البلقاني أنه أقل تشددا من الإسلام الآسيوي والعربي ، أين تنتعش التيارات الجهادية والأصولية، وهو أكثر اندماجا من سابقيه كونهم جعلوا من الدين الإسلامي

مصدرا للهوية الثقافية ، وليس منهج حياة يتم تطبيقه بحذافيره التي تتعارض كثيرا مع البيئة التي نشأ فيها الغرب، وقل ما وجد من يستطيع تبني مبادئ الإسلام وجعلها قالبا للعيش لا خيار بعده، ويمكن تفهم ولو بنسبة قليلة رد فعل الشارع السويسري على طلب بناء المآذن الموجه من قبل المسلمين، وبعد ذلك الاستفتاء العام الذي أقر الحظر التام ووأد أي مطالب من هذا النوع، فسويسرا ورغم انفتاحها وكونها قبلة سياحية هامة في القطب الأوروبي إلا أنها منغلقة نوعا ما على بعض العادات والرموز الدينية الإسلامية، فمشكل بناء المآذن مثلا لم يطرح في دول كبريطانيا وفرنسا بالنظر أن كلا البلدين قد سنحت له الفرص تاريخيا من خلال الحملات الاستعمارية التعرف على رموز العمارة الإسلامية واعتبار المآذن رمزا معماريا فحسب دون أن تكون له أي خبايا أو مؤشرات سياسية، وهو الشعار الذي حمله الشارع السويسري في حملته المغرضة ضد بناء المآذن، وربما نجد تجربة من قبيل تجربة مكتب الشؤون العربية في مستعمرات فرنسا المغاربية خير دليل على ذلك. (31)

ما حصل في سويسرا هو في عمقه رد فعل مجتمع منغلق نسبيا ضمن إيديولوجية الحياد السياسي على الصدى الذي يصله من بلدان أوروبية بدأت تواجه حدة التيارات الإسلامية الراديكالية، بمعنى آخر فإن الشارع السويسري صوت على لمنع المآذن كرد فعل للتحصين مما يحدث في الجوار الأوروبي، لأنه غير مهيأ فكريا ووجدانيا لقبول الآخر المسلم في ظرف تتواتر فيه أخبار التيارات الإسلامية الجهادية في أوروبا وفي بقية أنحاء العالم، والدليل على ذلك أن التجاوب مع منع المآذن تم بالأخص في القرى الصغيرة وفي داخل البلاد.

أما المستوى الثاني للقضية فيتعلق بخصوصية مسلمي سويسرا أنفسهم الذي وجدوا أنفسهم بعد خروجهم من سياق الحكم الشيوعي وغطرسته في فوهة المدفع أمام نظرائهم من الكاثوليك والأرثوذكس ، ولذلك تحتم عليهم وكصورة من صور حفظ البقاء وإثبات الذات التمسك بتعليم (أي ترك علامة) بعض الأماكن واثبات امتلاكهم لها، وضمن هذه الرهانات مثلت المآذن الإسلامية أداة صراع الوجود والهوية في وجه المعالم الكنسية المرتفعة.

وعليه فهناك في النهاية بعد ومستوى أوروبي لقضية المآذن السويسرية التي غذاها الوضع المتزايد لتصاعد الخطاب الشعبوي ضد الهجرة وثقافة المهاجرين، خاصة بعد الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت معظم دول أوروبا وساهمت في تدني مستويات المعيشة عما كانت عليه في السابق،

فأصبحت المطالب الشعبية متزايدة بشأن حفظ وصون كرامة المواطن الأوروبي الحامل للهوية الأوروبية الأصلية، دون الاهتمام بحقوق وحريات المواطن المسلم الذي اختار اتخاذ سبيل معارض للهوية الأوروبية، واتخذ من معالم الدين الإسلامي ورموزه هوية جديدة، هذا دون الحديث عن حقوق وحريات اللاجئين والمهاجرين والتي تعتبر أمرا ثانويا يمكن الاستغناء عنه.

والواضح أن الانزلاق داخل الخطابات العنصرية تجاه المسلمين أصبح سهلا من ذي قبل لأن الأرض أصبحت خصبة بعد تشبع العقل الغربي بالترهات والأكاذيب المتعلقة بالإسلام والمسلمين، إلى درجة أن كل حوار تقريبا يفتح يتعلق بالديانة الإسلامية ينتهي حتما بالتحدث عن النقاب والبرقع وعيد الأضحى والمساجد، وكأن هذا الدين اختزل في مظاهر ورموز معينة تكاد تكون أكثر الخطابات إثارة للجدل في الغرب، وقد بلغ الأمر ذروته عندما قال عمدة إحدى القرى الفرنسية النائية للصحفيين إنه " يجب إيجاد حل قبل أن يلتهمنا العشرة ملايين مهاجر والذين نعطيهم المال هباء "، وبالتالي فالأمر لا يتعلق بمجرد مخاوف مجتمعية فحسب بل يتعلق بالعديد من الجوانب أبرزها الجانب الاقتصادي – كما سبق وأشرنا إليه سابقا-، بالإضافة إلى أن الخطابات المعادية خرجت عن دائرة الاستغلال السياسي الانتخابي لتمس عدواه فضاء العلم والبحث العلمي، وإنكار أي دور للعقل العربي المسلم في صناعة تاريخ الدول الأوروبية ونفي أي دور للفلاسفة المسلمين في صنع الحضارة الأوروبية، وهذا جلي في كتب بعض المؤرخين الغربيين وعلى رأسهم **سلفان غوغنهايم**، والذي نفى في كتابه حول "الجذور الإغريقية لأوروبا المسيحية" أي إسهام للمسلمين العرب في بناء التاريخي الأوروبي، وبالتالي لا يمكن إنكار التيار الأوروبي المعادي والمجاهر بخطاباته العنصرية تجاه المسلمين، والأكثر من ذلك التجاوب الشعبي الفضفاض لطروحاته المغرضة. (32)

وقد أكد الدكتور مرزوق أولاد عبد الله أستاذ الدراسات الإسلامية في الجامعة الحرة بأمستردام أن صورة الإسلام كما جاءت في الموروث الاستشراقي والتصور التاريخي المغلوط عن الإسلام في المناهج الدراسية كرست للصورة الذهنية الخاطئة عن الإسلام في الغرب، هذا فضلا عن ضعف البديل الذي يقدمه المسلمين في الغرب وشتاتهم، وأكثر من ذلك تمرد بعض الجماعات منهم وإعطاء صورة سوداوية عن الدين الإسلامي، وبالتالي تكافل هذان العاملان ساهم في بناء رهاب الإسلام لدى الغرب، خاصة أن الاهتمام بالجاليات المسلمة في الدول الأوروبية ليس بقديم العهد،



ويبقى اهتماما متواضعا لم يرتق إلى تقديم شيء عملي ذو فائدة شاملة على ارض الواقع كبناء مراكز ومؤسسات إسلامية بحثية تساهم في تدريب الباحثين وتأهيلهم ليساهموا في إزاحة الصورة النمطية عن الإسلام عبر التعليم والبحث العلمي، فمستوى التفكير الذي بلغه الغرب لم يعد يحتاج إلى مجرد خطابات عاطفية مثلما هو الشأن في البلاد الإسلامية، وإنما مخاطبة العقل والمنطق هي الأجدى والأنفع في مثل هذه القضايا، وهذه المفارقة هي التي تقف حائلا أمام وجود حوار عقلاني مجدي بين العالم الإسلامي والغرب واندماج المسلمين فيه، وهذا الأمر لا يجعلنا ننكر وجود مجهودات أقيمت بهذا الشأن لكن لم تبلغ الصدى الواجب بلوغه، والدليل على ذلك تصاعد حدة الخطابات العنصرية ضد المسلمين في سويسرا بالذات، والتي طالما عرفت بكونها البلاد الآمنة التي يطمح كل مسلم العيش فيها، فالحقيقة أن هناك قامات كبيرة من وزن العلامة أبو الحسن الندوي، والمفكر محمد حميد عبد الله، والداعية سعيد رمضان، أنشأت في سويسرا سنة 1961 أول المراكز الإسلامية في أوروبا[33]، وكان من أهدافه الاهتمام بالطلبة المسلمين على وجه الخصوص باعتبارهم نخبة المستقبل، وألحق بالمركز مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم، وتدريس اللغة العربية ، وترجم عدد كبير من الكتب الإسلامية، وإصدار مجلة " **المسلمون** " وكان المركز نقطة إشعاع ونشر لهدي الإسلام الذي استقطب العديد من السويسريون. [34]

ويبقى السؤال المطروح هو كيف يواجه الوجود الإسلامي الأوروبي والغربي عموما مختلف التحديات والتهديدات التي يواجهه؟

هناك العديد من الوسائل والآليات المدنية والدبلوماسية التي بإمكان الوجود الإسلامي في الغرب بكل مكوناته المجتمعية والمدنية والكفاءات والشخصيات الاعتبارية، وكذلك الوجود الدبلوماسي في الغرب من بعثات وسفارات الدول الإسلامية المتواجدة في كبرى المدن الدولية مثل جنيف وبروكسل، أن يقوموا بالعديد من المبادرات والفعاليات للحفاظ على الوجود الإسلامي في الغرب، وأيضا الدفاع عنه بالوسائل القانونية والآليات التي رسختها الدول الديمقراطية والمدينة على مدار العقود الماضية، وكذلك الآليات الدولية ضمن الأمم المتحدة ومجلس حقوق الإنسان ومجلس الإتحاد الأوروبي، فلكل مسلم مستهدف من ظاهرة الكراهية والعنصرية والتمييز الانتقائي على الساحة الغربية دوره ومجاله وآلياته، وعلى كل مسلم أو منظمة غير حكومية أو هيئة دبلوماسية التحرك وأخذ زمام المبادرة، موضحا فهمه للإسلام في خضم هذا الخلط الرهيب والتشويش والتشويه

له، وأيضا مدافعا عن المسلمين المنتهكة حقوقهم والمعتدى عليهم على مرأى ومسمع من العالم بشكل ممنهج وبالقانون الانتقائي.

فومنذ أن بدأت منظومة العنصرية والكراهية الانتقائية فعلها وظهورها بشكل مكشوف، وخاصة بعد العمليات الإرهابية في **11** سبتمبر **2001** في أمريكا، انتقل عمل المنظمات غير الحكومية الإسلامية إلى مرحلة جديدة في التحرك، والبحث عن الأساليب الناجعة للرد على الاتهامات لتوضيح فهمها للإسلام والتركيز على إبراز دورها في تنمية المجتمع، وتحولت من مقولة الاندماج الإيجابي إلى ممارسة عقلية المواطنة الفعلية داخل المجتمع الذي يعيشون فيه، كما لا تتغافل أن تعمل على الدفاع عن المسلمين وملاحقة الاعتداءات اللفظية والمادية ضدهم، من خلال القانون والآليات الفضائية المتعارف عليها في كل بلد غربي، وفي هذا الإطار يمكن ذكر بعض التحركات والفعاليات التي قامت بها مجموعة من المنظمات المجتمع المدني الإسلامي في الغرب، على سبيل الذكر لا الحصر بما يتسع إليه المقال، حيث نجد أن منظمة (كير) Cair " في أمريكا قامت بالعديد من التحركات على مستوى التعريف بالإسلام، وذلك بطباعة مئات آلاف النسخ من القرآن الكريم المترجم للغة الإنجليزية، وعلى مستوى الدفاع عن المسلمين، حيث قام عدد من المسلمين المتخصصين والمدافعين عن حقوق الإنسان بالتصدي للاعتداءات ومتابعة المعتدين قضائيا.

أما في أوروبا فنجد اتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا **(FIOE)** الذي قام بمجهودات كبيرة في توضيح الفهم الصحيح للإسلام، من خلال إصدار ميثاق مسلمي أوروبا، والإجابة على العديد من الأسئلة الحرجة والمطروحة على مسلمي أوروبا، وتبيان مختلف المواقف بشكل واضح وجلي، وقد لاقت هذه الوثيقة التاريخية إجماعا من قبل العديد من المنظمات والتجمعات الإسلامية، وفي الإطار نفسه أقيمت العديد من أيام الأبواب المفتوحة للمراكز الإسلامية التابعة للإتحاد وغيرها، من أجل الانفتاح والشفافية ومواجهة التشويه حول ما يدار في مساجد ومراكز المسلمين في أوروبا، أما على المستوى الحقوقي فقد أسس اتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا قسم الحقوق والحريات، للدفاع عن المسلمين والتواصل والتنسيق بين المنظمات الناشطة بهدف تكوين ائتلاف حقوقي، للتصدي بشكل أقوى وجماعي لظاهرة تصاعد الاعتداء على المسلمين في أوروبا، وفي هذا الإطار وقع التنسيق مع العديد من المنظمات الفاعلة على المستوى الميداني، مثل مجلس شباب متعدد الثقافات **(COJEP)**، واللجنة ضد الإسلاموفوبيا في فرنسا **(CCIF)** ، واللجنة ضد الإسلاموفوبيا

في بلجيكا (CCIB)، والمرصد ضد الإسلاموفوبيا والعنصرية (ORIW)، ومن خلال هذه التنسيقية وقع التواصل مع المجتمع الدولي، وتنفيذ العديد من الندوات على هامش دورات مجلس حقوق الإنسان في جنيف، بالتنسيق مع منظمة التعاون الإسلامي، والعديد من المداخلات أمام سفراء الدول الأعضاء لمجلس حقوق الإنسان بجنيف، وتطور هذا
الحراك إلى العمل على مبادرة ومشروع للمطالبة باستصدار قرار من مجلس حقوق الإنسان ضد "الإسلاموفوبيا " والكراهية والعنصرية.(35)

وختاما لما تم طرحه نجد أن حملة حظر بناء المآذن في سويسرا لم تكن إلا وجها آخر من أوجه الخوف من الإسلام والمسلمين الذي تشهده القارة الأوروبية ككل، وأن الصورة المنتشرة عن الإسلام في الغرب تعود إلى موقف دفاعي وخوف لاعقلاني من غزو إسلامي للعالم، كما تقوم على مبالغة في تقدير التأثير الإسلامي ونسيان للسيطرة الغربية في ميادين السياسة والاقتصاد والعلوم، كما تقوم على توصيفات منتقصة من الإسلام تدعمها تصورات نظرية بعيدة عن الواقع، ويتوجب هنا التأكيد على أمر مهم وهو أن العديد من مظاهر التعسف ضد الإسلام اليوم لها علاقة بالقمع السياسي والتهميش الاقتصادي والاجتماعي وضعف التعليم في أوساط واسعة من المجتمع، وهو ماتسبب في انتشار العنف والتطرف في ظل غياب إدراك تام للتعقيد الكبير للوضع الحالي في العالم الإسلامي في الداخل والخارج.

الهـــوامش :

1- أروى عباس، التواجد الإسلامي في أوروبا وما يطرحه من تحديات لمفهوم الهوية الأوروبية : سويسرا كحالة دراسية، أطلع عليه بتاريخ 2017/09/03، http://hoggar.org/index.php?option=com

2- نفس المرجع السابق.

3- شريف قوعيش ، واقع الرهاب من الإسلام عند المجتمعات الغربية المعاصرة، أطلع عليه بتاريخ : 2017/09/05، http://int-historians.com/article/1608

4 - تتمثل هذه المؤسسات في : صندوق المانحين الرأسمال، مؤسسات ريتشارد سكيف، مؤسسة ليند وهاري برادلي، مؤسسة راسل بيري، صندوق أنكوراج الخيري، صندوق عائلة ويليام روزوولد.

5 -نفس المرجع السابق.

6- حسام أبو جلارة، المسلمون في سويسرا...تاريخ عريق ومستقبل مشرق، أطلع عليه بتاريخ : 2017/09/01، http://almoslim.net/node/85366



7 – هيلينا باتشمان، معركة المآذن في سويسرا، أطلع عليه بتاريخ 2017/09/03،
http://www.islamtoday.net/albasheer/artshow-15-122461.htm

8- الجزيرة نت، استفتاء لحظر المآذن في سويسرا، أطلع عليه بتاريخ 2017/09/05،
http://www.aljazeera.net/news/international

9 – أقر البرلمان السويسري في 28 /2011/09 قرار يقضي بمنع ارتداء النقاب وتغطية الوجه في الأماكن ووسائل المواصلات العامة ، وبذلك حذا هذا البلد الأوروبي الصغير حذو بلدان أخرى كفرنسا وبلجيكا وهولندا...، ومقترح القرار جاء به نائب يميني متطرف طالب فيه الحكومة السويسرية باتخاذ كافة الإجراءات اللازمة لمنع المسلمات من تغطية أوجهنا في الأماكن العمومية، وقد صوت مجلس النواب في البرلمان السويسري بأغلبية 101 صوتا مقابل 77 على مسودة القرار الذي حمل اسم " خلع الأقنعة "، وكان أوسكار فريسينغر السياسي من حزب SVP اليميني تقدم بالاقتراح الذي يطلب من أي شخص يخاطب أي من أفراد السلطة الفدرالية أو سلطة الكانتونات أو سلطة المجتمع أثناء قيامهم بعملهم أن يقدم نفسه دون أن يكون وجهه مغطى، وفي شرح لمشروع القرار قال فريسنغر أنه: " مع تزايد حالة عدم الاستقرار في شوارعنا ، فإن عددا متزايدا من الأشخاص يخبئون وجههم خلف غطاء للرأس والوجه أو قناع أو برقع"، وأضاف أن " هذا يجعل من المستحيل التعرف على هؤلاء الأشخاص ، وهي حقيقة مزعجة في حالة حدوث عنف أو الرغبة في التأكد من الهوية ".

10 – فرانس 24، البرلمان السويسري يصدق على اقتراح بمنع ارتداء النقاب في الأماكن العمومية، أطلع عليه بتاريخ 2017/09/07، http://www.france24.com/ar/20110928-swiss-parliament-approve-veil-islamic-ban-far-right-demand

11 – تعد سويسرا بحسب الإحصاءات الحكومية لسنة 2009 نحو اربعمئة ألف مسلم بينهم 50 ألف ملتزم بالشعائر الدينية من أصل تعداد سكاني يبلغ 7.5 ملايين نسمة، وهو ما يجعل الإسلام الديانة الثانية بعد المسيحية في البلاد.

12- فرانس-24، السويسريون يوافقون على اقتراح اليمين المتطرف حظر بناء المآذن، أطلع عليه بتاريخ: 2017/09/07، http://www.france24.com/ar/20091129-switzerland-referundum-minaret-extremist-party-winner-mosque-ban

13- د.م، قضية حظر بناء المآذن تتجه للمحكمة الأوروبية، اطلع عليه بتاريخ: 2017/09/10،
http://www.farfesh.com/Display.asp?catID=119&mainCatID=117&sID=73222

14 – الشهاب للإعلام، منع المآذن.. المعارك الجديدة حول الإسلام في الغرب، اطلع عليه بتاريخ: 2017/09/10،
http://www.farfesh.com/Display.asp?catID=119&mainCatID=117&sID=73222

15- وفقا لمعهد راديوسكوب فإن عدد المسلمين في سويسرا بلغ 400 ألف مسلم سنة 2009، مما يمثل 5% من إجمالي الشعب السويسري مع العلم أنه في عام 1970 كان عدد المسلمين 16 ألف مسلم، وإجمالي 56 % من



المسلمين من يوغوسلافيا سابقا، و 20% من تركيا ونصفهم تحت سن 25، كما أن سويسرا بها العديد من المساجد منها أربعة لها مآذن سابقا ولم يشملها قرار الحظر.

16- د.م، الفاتيكان وأوروبا والمسلمون قلقون من قرار الحظر، أطلع عليه بتاريخ 2017/09/10، http://archive.arabic.cnn.com/2009/world/12/1/swiss.mosques

17- د.م، المجلس الأوروبي يدعوا إلى السماح ببناء المآذن وتخفيف القيود على ارتداء النقاب، أطلع عليه بتاريخ: 2017/09/12

http://www.turess.com/alfajrnews/35266

18- د.م، الفاتيكان وأوروبا والمسلمون قلقون من قرار الحظر، مرجع سابق.

19-الجزيرة نت، استفتاء لحظر المآذن في سويسرا، مرجع سابق.

20- يرصد هذا التقرير سنويا أوضاع حقوق الإنسان في 194 دولة، وعادة ما يوجه انتقادات شديدة لأوضاع حقوق الإنسان في روسيا البيضاء وفي الصين وكوبا وكوريا الشمالية وإيران وروسيا والسودان وسوريا وزمبابوي.

21- نفس المرجع السابق.

22-هيلينا باتشمان، مرجع سابق.

23- رابح زيغوني، الاسلاموفوبيا وصعود اليمين المتطرف في أوروبا – مقارنة سوسيوثقافية، مجلة المستقبل العربي، العدد 421، مارس2011، ص.126.

24-أروى عباس، التواجد الإسلامي في أوروبا وما يطرحه من تحديات لمفهوم الهوية الأوروبية: سويسرا كحالة دراسية، مرجع سابق.

25- عبد الغني عماد، الإسلاموفوبيا بين المقاومة والإرهاب، أطلع عليه بتاريخ: 2017/09/12،

tourathtripoli.com/phocadownload/dirasset.../alisslamofoubia.pdf

26- مروان الحمد خباب ، قوانين حظر النقاب (قراءة في الخلفيات الفكرية والسياسية)،

www.ahlalhdeeth.com

27- محمد أحمد مختار القفاص، رسالة إلى الشعوب العربية–الواقع الحالي للإسلام والمسلمين–، ج1، مصر: مركز الشرق العربي، 2011، ص.19.

28- نفس المرجع السابق، ص.19.

29- ستيفان فايدنر، خطاب ضد الإسلاموفوبيا في ألمانيا والغرب– مناهضة بيغيدا–، (قطر: منتدى العلاقات الدولية والعربية، د.س.ن)، ص.74.

30- محمد أحمد النابلسي، جنون الإسلاموفوبيا، (د.ب.ن: مؤسسة العلوم النفسية العربية، 2015)، ص.14.

31- عادل لطيفي، محنة المآذن وصورة الإسلام في أوروبا، أطلع عليه بتاريخ 2017/09/05،

http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions

32- نفس المرجع السابق.



33- مع حلول عام 1972 أقامت رابطة العالم الإسلامي " المعهد الإسلامي " الذي ضم ثاني المساجد البارزة في الإتحاد السويسري، وفي عام 1978 تم افتتاح منشأة جديدة هي المؤسسة الثقافية الإسلامية بجنيف، والمسجد التابع لها، وتقيم هذه المؤسسة سنويا مسابقة سنويا لحفظ القرآن الكريم هي الأولى من نوعها في أوروبا، ومن المؤسسات الإسلامية الرائدة أيضا نجد الجمعية الثقافية للنساء المسلمات التي تعمل على توحيد المسلمات من أجل الارتقاء بعمل جماعي منظم وتمثيلهم والدفاع عن مصالحهن، وتقديم صورة أحسن وفهم أقوم وأوسع للإسلام والمسلمين، وتقيم هذه المؤسسة العديد من النشاطات الهامة كالمؤتمرات والندوات ومعارض الكتب واللباس الإسلامي ، وهناك المؤسسة الثقافية للطفولة والشباب ، التي تركز على بناء شخصية النشئ المسلم ، وتعليم الدين الإسلامي واللغة العربية، كما تعمل المؤسسة على مساعدة أبناء المسلمين على التفوق العلمي والمهني ، وتسعى لتأهيل الشباب للقيام بدور إيجابي في مجتمعهم، ومن أجل تحقيق كل هذه الأهداف تنظم المؤسسة دورات تدريبية ومحاضرات ومخيمات صيفية ومهرجانات .

34- حوار للدكتور مرزوق أولاد عبد الله مع جريدة الشرق الأوسط، بتاريخ 22 سبتمبر 2009، العدد 11347، أطلع عليه بتاريخ: 2017/09/10،

http://ww.asharqalawsat.com/details.asp?section=17&issueno=11347&article=549550&feature=1

35- عادل الماجري، تصاعد ظاهرة الإسلاموفوبيا وصعود اليمين المتطرف في الغرب، أطلع عليه بتاريخ 2017/09/12،

http://mugtama.com/hot-files/item/50078-2017-02-21-14-42-12.html

